ANTTI TUOMAINEN

آنتي توماينين 1

عامل الأرنب

THE RABBIT FACTOR



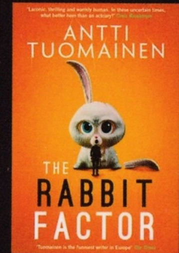
رواية | ترجمة: سليمان يوسف

عامل الأرنب
THE RABBIT FACTOR

ما الذي يجعل الحياة مثالية؟ خبير حسابات التأمين هنري كوسكينين على علم تامٍّ بالإجابة لأنه يدرسُ كل شيء بأدق تفاصيله.

كان هذا قبل أن يواجه للمرة الأولى ما لا يمكن حسابه. فبعد خسارته وظيفته، ورث متنزه مغامرات عن أخيه، بما في ذلك غرابة موظفيه ومشكلاته المالية المقلقة. ظهر أن أصعب القضايا المالية سببها قروض كبيرة اقتُرِضَت من أوساط إجراميَّة... ما جعل بعض الرجال الخطِرين في أشد توقهم لاسترداد مالهم.

لكن ما لا يمكن لهنري حسابه حقًّا هو الحب، ففي متنزه المغامرات، يلتقي هنري مصادفة بلورا، وهي فنانة ذات ماضٍ حافل بالأحداث ونمط معيشة أذهله أنه غنيٌّ بالاستمتاع بمباهج الحياة. وبينما يبذل المجرمون كل ما في وسعهم لاستيفاء ديونهم تتعمَّق علاقة هنري بلورا، يجد نفسه تلقاء مواقف ومشاعر يعجز ببساطة عن تفصيلها على جداوله الحسابية...



فكرةٌ فكاهيةٌ دافئة، وغنية بالشخصيات غير المألوفة والمواقف غير المعقولة، عامل الأرنب نصر للإثارة السوداء، ولا يضاهي توترها إلا قدرتها على حملنا على الابتهاج بالجمال والطبيعة العشوائية للحياة.

غلاف: عبد الرحمن الصواف



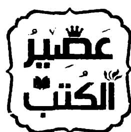


aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
AseerAlkotb
AseerAlkotb
AseerAlkotb

عامل الأرنب

THE RABBIT FACTOR





● العنوان الأصلي: Jäniskerroin

● العنوان العربي: عامل الأرنب

● طُبِع بواسطة: Otava

● ترجمة: سليمان ع. يوسف

● تدقيق لغوي: أسماء أبو المجد

● تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

● الطبعة الأولى: يناير/ 2023م

● رقم الإيداع: 2022/16868م

● الترقيم الدولي: 978-977-6972-50-6

إلى كل الأصدقاء الذين أعرفهم بأسمائهم الأولى:

شكرًا لكم.

الآن

بينما أحدق إلى الأرنب عينًا بعينٍ، انطفأت الأضواء فجأةً.

بيدي اليسرى، أعتصر أنبوب اللاصق الصناعي الفائق، وباليمنى أمسك مفك براغي، وأُنصت.

في نصف العتمة، بدا كأن الأرنب يكبُر: رأسُه ينتفخ، وعيناه تجحظان، وقمّتا أذنيه تمتدان صعودًا حتى يُظَن أنهما تتلاشيان في الظُّلمة، وسنّاه الأماميتان تنعقفان مثل نابَي فيل. وفي غضون لحظة، صار التمثال ذو الأمتار الثلاثة يبدو بضعفَي طوله، وضعفَي عرضه، وأكثر تهديدًا بكثير، كما لو أنه يحمي الظلمة داخله. والآن يظهر أنه يراقبني كأنني جزرة مُغرية.

بالطبع، لا شيء من هذا يجري حقًّا، فالأرنب الألماني الهائل مصنوع من البلاستيك الصلب والدعامات المعدنية.

الردهة مساحةٌ شاسعة، شاهقة وخاوية. يُو مِي فَن. ما زالت تفوح منها رائحة لهو الأطفال المزعج والوجبات السريعة، ويبدو أن الحلاوة السُكَّرية للمخبوزات تلتصق بالملابس.

واقفٌ بين الدب الأكبر وقطار الكومودو، وأنتظر. السُلَّم بجواري يُلقي ظلًّا طويلًا على الأرض، والضوء يتسرب من المصباح المتوهج فوق الباب الرئيس ومن أضواء مختلفة، كبيرة وصغيرة، على الآليات ويطفو مُنقَّطًا على الردهة، والنتيجة ضوء أغبش ضبابيٌّ تشوبه مسحة أخضر من لافتة مخرج، وبرتقالي الاستعداد، وأحمر زر التشغيل.

قبل فترةٍ وجيزةٍ فقط، في وضعٍ كهذا، كنتُ لأفترض أن سبب الاختفاء المفاجئ للأضواء هو بلا ريب انقطاع في التيار الكهربائي أو مشكلة تقنية في الأضواء نفسها. لكن الأحداث الأخيرة علمتني أن ما كان يبدو مُرجحًا فيما سبق، بموجب قوانين الاحتمال، يهيمُ أغلب الأحيان في مملكة المستحيل. والعكس بالعكس، فما كنتُ لأقدر فيما مضى على حسمه عبر عملية حساب بسيطة لِنِسَب الاحتمال وتحليل المخاطرة صار في الحقيقة كُل حياتي.

وَقْعُ أقدام. لا أعرفُ لمَ لمْ أسمعه في وقتٍ أبكر. لقد غادر آخرُ الزبائن الردهة منذ ساعة، ومضى آخرُ الموظفين إلى منزله منذ نصف ساعة. ومذ ذاك الحين وأنا أعمل بمفردي، أتفحص الألعاب والآلات، حتى إنني حبَوتُ في متاهة حقول الفراولة لابسًا قفازاتٍ مطاطية، فالأطفالِ يتركون كل صنوف الأشياء في المتاهة، كل شيء من الطعام والملابس حتى مكنونات حفاظاتهم. تسلقتُ المنصات والشرفات والأبواب التي تفوق العدَّ، ونظفتُ نفق الأشباح وعددًا لا بأس به من شاحنات السلاحف، وتأكدتُ من أن المحاليق في قلعة الوثب ليست مجدولةً ببعضها بعضًا بل تعمل بكفاءة ومتعلقة بالقوائم في انتظار طرزانات الغد ذوي الأصابع الدبقة، ثم انصرفتُ إلى الاعتناء بالأرنب المعطوب. لا يمكنني استيعاب كيف تدبَّر أيهم إسقاط أذنه اليمنى، فالأذن تبدأ انبثاقها على ارتفاع مترين ونصف المتر، ومعدل طول زبائننا نحو مترٍ وعشرين سنتيمترًا، ومتوسطه أقل من ذلك.

بدرجةٍ ما من الدقة، أحدد أن وقْع الأقدام قادمٌ من جوار مقهى كيرلي كيك، وأنها تخص شخصًا يحاول التحرك بأقصى قدرٍ ممكن من الهدوء، لكن جسامته وحدها تجعل ذلك محالًا.

أتحركُ بضعة أمتار إلى الجانب، ثم أحث عددًا من الخطى عَودًا ناحية قلعة الوثب، وعندها أقبض على أول لمحةٍ للوافد الجديد: رجل دحداح متسربل بلباس داكن يمشي حذرًا قدر المستطاع. يبدو أنه يبحث عني أسفل الأرنب، لكنني كنتُ قد وصلتُ بالفعل إلى الظلال الواقية للمرأب الذي تنزله شاحنات السلاحف. أواصلُ التحركَ خلفًا متجهًا ناحية بوابة قلعة الوثب، ومن هناك، ثمة ممر يمتد خلف الشلال السري، ليس شلالًا حقيقيًّا بالطبع، إنما هو جدار تسلُّقٍ مصنوع من حبال زرقاء، وحالما أصير في الداخل، يصير خروجي من

قلعة الوثب مسألة ثانية تمامًا، ولستُ أقول إنني أخطط للهرب في واحدةٍ من شاحنات السلاحف، التي تبلغ سرعتها القصوى عشرة كيلومترات في الساعة.

يتوقف الرجل أمام الأرنب، فأراه جانبيًّا، وقد أناره ضوء الطوارئ، المثبت فوق الباب الأمامي، من خلفٍ مشكلًا هالة خضراء سامَّة حول رأسه الحليق. إنه يحمل شيئًا بيمناه. كل من الرجل والأرنب قابعٌ على بُعد نحو عشرين مترًا، في الطرف الآخر من الضلع القطري بالنسبة إليَّ. مدخل قلعة الوثب يبعُد نحو سبعة أمتار باتجاه الساعة العاشرة من موقفي. آخذ بضع خطوات خرساء، فأصير في منتصف الطريق إليه وقتما يستدير الرجل فجأةً، فيراني وترتفع يده عاليًا.

سكين. السكين أفضل من المسدس، ببساطة تامة، لكنني لا أتلبث لأحسب نِسَب احتمالهما كلًّا على حدة. أغوص داخل قلعة الوثب، وأدحر القسم الأول -السلالم المتقلقلة- وأسمعُ الرجل خلفي. لا يصيحُ بي أن أقف، ولا يُجعجع، لقد جاء ليقتلني. الغرفة ذات الأرضيات المائلة مجهزة بدرابزينات تساعد في إرشادي لعبور المكان. الفرار أصعب وأبطأ بكثيرٍ مما توقعت. يدلف الضوء إلى الداخل عبر نافذتين بلاستيكيتين، ويظهر الرجل عند مدخل الغرفة. يتوقف، ربما ليقدِّر الموقف، ثم ينطلق خلفي. بيده الحرة، يمسك بالدرابزين ليُعطي نفسه زخمًا، قابضًا عليه كما قد يقبض على قضيب حمل الأثقال، فينجح، وأبدأ بالشك في خطتي.

أصل إلى الباب، وأخطو إلى أنبوب الشقلبة حُر الدوران البالغ من الطول مترًا، وأسقط من فوري على جانبي الأيمن. جذع الأنبوب يدور كأنه جسم منفصل، مستقلًا عن كل شيء آخر. أتعثر بضع مرات قبل أن أتمكن من النهوض على يديَّ وركبتيَّ، وأزحف ناحية الفتحة في الطرف الآخر، ثم يخطو الرجل الضخم إلى أنبوب الشقلبة، فيضيع كل توازني. وحتى على أربعٍ، يستحيل عليَّ البقاء قائمًا. أسمع الرجلَ يخبط على جدران الجذع وقاعدته، ولا يصرخ، بل يصدر صوتًا أقرب إلى نخرةٍ صاخبة، تكاد تكون جؤارًا، ورحنا نتشقلبُ داخل الجذع مثل صديقين ثملَين عديمَي السيقان. إنه يدركني.

أتمكن من العبور إلى الطرف الآخر لأنبوب الشقلبة، وأزحفُ مترًا، ثم مترًا آخر، ثم أنهضُ واقفًا ثانيةً بمشقة. العالم يدور ويتمايل، ويشبه الأمر المشي

في عاصفة. أدنو مما يُعرف ببساطة بالدرجات، وقمم هذه الأعمدة، المصممة لأرجل أصغر بكثير من رجليَّ، جزء من خطتي. هذا هو سبب محافظتي على أنبوب اللاصق الفائق. أنزع غطاءه وأعتصر اللاصق على الدرجات من خلفي، وقد صار تقدم الرجل الآن أبطأ نظرًا إلى محاولته المحافظة على توازنه، ما يُحسِّن كفاءة اللاصق على نعلَي حذائه.

أعرجُ متقدمًا، تاركًا أثرًا من لاصق ورائي. تبدو الدرجات مُدلَّاة في الهواء، في مكان ما بين الطابقين الأول والثاني لبهو الدخول. ثمة ضوء أكثر، كما لو أن كل الأضواء الكاشفة المنفردة في الغرفة اجتمعَت لتسمح لي بالمشي بلا إبطاء. أشعرُ وكأنني أمشي على حبل بهلوان في ليلة صافيةٍ تضيئها النجوم. أركز على البقاء على الدرجات. لا شيء خطِر تحتنا، بحرٌ عميقٌ من الإسفنج وحسب، لكن سقوطي الآن سيُبطئ رحلتي إبطاءً كارثيًّا. أُلقي نظرةً من فوق كتفي، وأرى... السكين.

وآنذاك، إثر حركة ذراع الرجل، أتذكر أن السكين ليست مُصممة للقتال القريب وحسب، إنما يمكن أيضًا... قذفها. تشقُّ السكين الهواء، وأتدبر الغطس حدًّا كافيًا لئلا تخترق قلبي. خدشَت ذراعي اليسرى لكنها فعليًّا لم تَطعنِّي، فأسقط أنبوب اللاصق. من داخل سترته، يستلُّ الرجل سكينًا أخرى، فأندفع ناحية قاعة لعبة الكرة والدبابيس. وفي تلك اللحظة، ينطق الرجل للمرة الأولى. فيصيح: «توقف، إنني أحذرك. أريد أن أريك...».

لا يقنعني حواره، فأتابع طريقي إلى قاعة الكرة والدبابيس. أصطدم في الظلمة بدعامة مطاطية لينة، ثم بأخرى، ثم تضرب ذراعي الجريح دعامةً ثالثةً، فيندلع الألم عبر جسمي، ويكاد يُسقطني على ركبتيَّ. إنني لعبة كرة ودبابيس بشرية في آلة كرة ودبابيس معتمة ذات حجم طبيعي. الضوء الوحيد في الغرفة نابعٌ من المدخل، ومنتصف الغرفة ظلام دامس. من الناحية الإيجابية، يستحيل قذف سكين أخرى، نظرًا إلى غياب خطٍّ نظرٍ مباشرٍ. أبقي ذراعي اليمنى ممدودةً بينما تنقِّلني الزعانف بين الدعامات والجدران المطاطية. أشق طريقي ناحية الضوء، سامعًا طوال الوقت صوت تلاطم الرجل جيئةً وذهابًا بين الزعانف، وآملًا أن يبطئه اللاصق على حذائه.

أصِل إلى الشلال، وأنسل بين الحبال إلى مساحة يوجد فيها باب يُفضي إلى المستودع. أخرج مفاتيحي من جيب بنطالي. يدور المفتاح في القفل، لكن الباب يأبى الانفتاح، فأنترُ المقبض حتى أدرك ما الذي حدث. لقد أُعيدَت سَلسَلة كل الأقفال. لكن لمَ غُيِّرت اليوم؟ ولمَ لم أُخبَر بذلك؟

أرجع إلى الشلال وأعبره. أرى الرجل على المنصة المقابلة، ينزع شدفة سجادة عن أسفل حذائه، فأفعل ما يمكنني فعله، أركض وأقفز. أغوص في الجو، وأهبط مرتطمًا بالزلاقة الصفيحيَّة، وأشعر بألمٍ ممضٍّ حد أنني أطلق صرخة حادة. وأبدأ بالانزلاق. تتلوى الزلاقة وتنعطف، وعلى طولها، يبدو أن الجرح في ذراعي لا يفعلُ إلا تضخيمِ التقلبات في قوة الجاذبية. يبدو الانزلاق والألم مزيجًا لا يُطاق، مثل دراجة هوائية من دون سرج: ستصل إلى النهاية بطريقة أو بأخرى، لكن الجلوس ليس واردًا على الإطلاق.

أرتمي عن الزلاقة على الفراش الوثير في الأسفل، وأقف، وتأخذني الدهشة، ذلك أنني لا أسمع صوتًا من الزلاقة. لا يمكن للرجل أن يكون داخلها. لا يمكنني رؤية المنصة العليا، لكنني أفترض أنه لا بد هناك.

أمشي قاطعًا كل المسافة حول قلعة الوثب مرة أخرى، ثم أركض لأرجع إلى الأرنب والباب الأمامي من خلفه. أستغرق وقتًا، لكن لا خيار آخر أمامي، فمفاتيحي لن تفتح الأبواب الأخرى كذلك، والباب الأمامي وحده يُفتح من الداخل بلا مفتاح. أتوقف عند المنعطف الأخير، أحدق حول الزاوية وأنصت، فلا أرى ولا أسمع شيئًا.

أنطلق مسرعًا، وأركض قاصدًا الأرنب مباشرةً. أركض وأركض وأكاد أبلغ الأرنب، عندما يظهر الرجل الضخم عريض المنكبين من خلفه. استغرقتُ جزءًا من الثانية لأعي ما أرى. ثمة تفسير جيد لظهور الرجل السريع والصامت، وهو أن نعلَي حذائه -سواء أعمدًا أم صدفة- مكسوان بمربعات صغيرة من الإسفنج. لقد قفز عن المنصة، لكن البطانة أخرسَت خطواته.

يجيش الغضب فيَّ. إنني ألتزم بقواعد اللعبة. ثانيةً. أواصل الركض، وكل ما يمكنني التفكير فيه هو الأرنب. أخبط به بشدة ويسقط فوق الرجل. يقعُ جميعنا، وينتهي بنا المطاف كلنا على الأرضية الخرسانية. يراني الرجل بجواره، وأراه كذلك في اللحظة نفسها، وكان السبَّاق في التحرك. لم أتمكن

من تحرير إلا جزء مني قبل أن يندفع هاجمًا بالسكين. جرحَ النصل فخذي وأصاب ألواح الأرضية المُصفَّحة تحتنا، وثبَّت سروالي بالأرض بهذا الفعل. أنا عالق، أصرخ، وبذراعين مرفرفتين، أقبض على أول شيء يمكنني بلوغه.

أذن الأرنب. لقد ارتخَت ثانيةً. أمسكُ بالأذن العملاقة وأهجم بعنف باتجاه الرجل، فأصيب شيئًا ما. أنهض، ويتمزق سروالي. يمد الرجل يده إلى جيب سترته، فأتساءَل: *سكينٌ أخرى؟ لا، سيكون ذلك مبالغًا فيه*، فأتصرف قبل أن تسنح له الفرصة برميها أو بطعني. أضرب وأضرب وأضرب مرة أخرى.

ثم أترك الأذن. بهو الدخول خاوٍ وصامـت. ولا يمكننـــي سماع شيء إلا لهاثي. أنظر حولي. يبدو البهو مختلفًا. متنزه مغامراتٍ لكل العائلة.

فجأةً، صار من الشاق تذكُّر كل ما أدى إلى جعل هذا كله مسؤوليتي. هذا وأكثر منه بكثير، فقد أمسى كل شيء بغتةً خارج السيطرة، لا يُمكن التكهن به.

أنا أكتواريٌّ[1]. وبصفة عامة، لا أدير متنزهات المغامرات، وبالتأكيد لا أنهال على الناس ضربًا حتى الموت بآذان أرانب بلاستيكية عملاقة. لكن كما قلت، إن حياتي لا تتبعُ حساب الاحتمالات منذ بعض الوقت حتى الآن.

(1) الأكتواريُّ: خبير في العلم الأكتواري، أو علم حسابات التأمين، أو علم إحصائيات التأمين، تؤهله خبرته لأن يكون مختصًا في تطبيق النظريات الرياضية، والإحصائية وطرق حساب الاحتمالات، وأدوات القياس الاقتصادية، وغيرها من تطبيقات العلوم، بهدف التعامل مع الأثر الاقتصادي للخطر وحالات عدم اليقين، ويعدُّ أساسيًّا في شركات التأمين وإعادة التأمين سواء بصفة موظف أو مستشار.

قبل ثلاثة أسابيع وخمسة أيام

1

لم أعرف شيئًا أجملَ من كانِّيلماكي في سبتمبر: أوراق الأشجار القرمزية المتوقدة، وأسعار المنازل الأكثر تنافسيةً في هلسنكي.

كان عبق الخريف مُعلقًا في هواء الصباح المبكر الضاحويِّ، الهواء الذي ثبُت علميًّا أنه الأكثر إنعاشًا في المدينة، ومن صفحات الأوراق الضخمة المصطبغة بتدرجات من الأحمر والأصفر، تدلَّت حبَّات ندى جعلتها الشمس الآخذة بالارتفاع تتلألأ مثل مرايا بخفة الريش. وقفتُ على شرفتي في الطابق الرابع وأدركتُ إدراكًا مجددًا أنني في المكان الصحيح تمامًا، ولا شيء يمكنه تغيير رأيي أبدًا.

تُعد المنطقة المحيطة بمحطة قطار كانيلماكي أكفأ مناطق هلسنكي من حيث التخطيط المدني، فمن باب بيتي، أستغرق دقيقتين ونصف الدقيقة من المشي النشِط لأبلغ المحطة، فيحملني القطار إلى مقر عملي في باسيلا في غضون تسع دقائق، ومرة في الشهر، يوصلني إلى السينما في وسط المدينة في ثلاث عشرة دقيقة. وبالنظر إلى قُربها من مركز المدينة، فأسعار الشقق في كانيلماكي ممتازة تستحق ما يُنفق في سبيلها، كما أنها مصممة تصميمًا حسنًا ذا أداء وظيفي متفوِّق من دون أي هدر في مساحة الطابق. لا شيء تزييني فيها، ولا شيء زائد.

بُنيت المنازل في ثمانينيات القرن الماضي، وكان عصرًا من التفكير المنطقي المثالي، وقد وصف بعض الناس هذا الجزء من المدينة بأنه بلا طعم، ومُغمٌّ حتى، لكن ربما مردُّ ذلك إلى أنهم لم يروا سوى الواجهة: التكرار المكعبي والرمادية العامة للحي، وهذه بحد ذاتها مفخرة للنظامية المُدهشة. لكنهم ارتكبوا خطأً يرتكبه الناس غالبًا: لم يُجروا حساباتٍ تفصيلية. فالحسابات، بحسب ما أعرفه بالتجربة، هي ما يكشفُ لنا الجميل من غير الجميل. وحيٌّ كانيلماكي جميل.

أخذتُ نفسًا عميقًا آخر وعدتُ إلى الداخل، ثم مشيتُ إلى الرواق، وانتعلتُ حذائي ولبستُ سترتي، ثم رفعتُ السحَّاب، تاركًا إياه مفتوحًا بعض الشيء في أعلاه، ورأيتُ ربطة عنقي لامعة، وعُقدتها مُعتدلة ومتناسقة. نظرتُ إلى انعكاسي في المرآة وتعرفتُ إلى الرجل الذي يبادلني النظرة. في عمر الثانية والأربعين، لا أملك إلا أمنية عميقة واحدة: أريدُ أن يكون كل شيء معقولًا.



الرياضيات الأكتواريَّة فرعٌ يجمع بين الرياضيات والتحليل الإحصائي لتقدير أرجحية -أو خطورة- أي احتمال، بُغية تحديد قسط تأمين يكون عمليًّا ماليًّا من منظور المؤمِّن. هذا هو التعريف الرسمي، ومثل الكثير غيره من التعريفات ذات الوقع الرسمي، التي يُحتمل بالنتيجة أن تكون مملة، يمر هذا التعريف على معظم الناس بلا فهم. وحتى حين يفهمونه، قلة منهم تولي اهتمامًا للكلمتين الأخيرتين فيه، ناهيك بالسؤال عما تعنيه كلمتا «عمليًّا ماليًّا» في هذا السياق حقًّا.

شركات التأمين موجودة لتحقق أرباحًا، وفي حال التأمين ضد الحوادث، تصل الأرباح إلى ثلاثين بالمئة تقريبًا. لا تبلغ إلا شركات قليلة أرقام عائدات كهذه بمُنتج واحد، لكن شركات التأمين تفعل، لأنها تعلمُ أن الناس لا يملكون خيارًا آخر. يمكنك اختيار ألا تحصل على تأمين -إذ يمكن للجميع اتخاذ قراراتهم الخاصة- لكن على وجه الإجمال، يختار معظم الناس تأمين منازلهم على الأقل. تعرف شركات التأمين أيضًا أن الناس هشُّون، وأن قابلية الإنسان على إيقاع نفسه في المتاعب تفوق بلا منازعٍ قابلية كل الأنواع الحية الأخرى.

وهكذا، فإن شركات التأمين في كل مكان في هذه اللحظة تحسب كم مرة سينزلق الناس ويسقطون في حدائقهم، وكم مرة سيحشرون أجسامًا مختلفة الأشكال والأحجام في مختلِف فتحاتهم، وكم مرة سيقلِبون فحم الشواء المشتعل في سلة القمامة، ويصطدم واحدهم بالآخر على متن زلاجاتهم النفاثة، ويحاولون جلب شيء ما من خلف صف من المزهريات الزجاجية على الرف العلوي، فيتكؤون بثمالة على سكين سوشي، وكم مرة سيطلقون الألعاب النارية مُحلقةً إلى عيونهم وعيون الآخرين... العام القادم.

وبالتالي، فإن شركات التأمين تعرف شيئين: أولهما أن الناس مضطرون جوهريًّا إلى الحصول على بوليصات تأمين، وثانيهما أن عددًا معينًا من الناس، رغم تلقيهم نصائح بألا يفعلوا، سيضرمون النار بأنفسهم حتمًا. وبين هذين العاملين -أو يمكننا القول: بين القلم وعود الثقاب- يعمل الأكتواريُّون. وظيفتهم ضمان أن شركة التأمين، بينما تمنح المُضحِّي بنفسه تعويضًا عن متاعبه، ما زالت تحقق هامش ربحها المُحدد سابقًا عبر تأمينه وتأمين كُثر غيره إلى جانبه.

وهناك، بين قلم الرصاص المبريِّ وألسنة اللهب، كُنت.

كان مقر عملي في ناحية فاليلا. اكتمل المبنى المكتبي في شارع تيوليسوسكاتو في الربيع الماضي، وانتقلت شركتنا إليه قبل أن يجف طلاؤه. والآن، كلما وصلتُ إلى مكتبنا المكشوف في الصباح، شعرتُ بنفس الانزعاج وخيبة الأمل، مثل شطفة من جليد أسود داخلي ترفض أن تذوب، فقد فقدتُ مكتبي، وبدلًا عن مكتب خاص بي، صرتُ أمتلك محطة عمل.

أخبرتني كلمة «محطة» بكل ما احتجتُ إلى معرفته. لم تكُن «محطتي» إلا قسمًا هزيلًا ضيقًا من نهاية طاولة طويلة تواجه النافذة. وأمام طاولتنا الطويلة، ثمة أخرى، طاولة مشتركة مطابقة. قبالتي، كان يجلس ميكا ليهيكوينين، وهو رياضيٌّ شاب، لطالما متَّعني بنادراتِ حفلات شواء لا تنتهي. وعلى يساري جلس كاري هاليكو، محللُ مخاطرَ، شابٌّ عنده عادة الضحِك وحده من دون سبب واضح. على ما يبدو، كانا يمثلان جيلًا جديدًا من المحترفين الأكتواريين.

لم يروقا لي، ولم يرُق لي مكتبنا المكشوف. كان صاخبًا، يعج بالتلهيات والمقاطعات والتوافه، لكن أسوأ ما في الأمر أنه كان يعجُّ بالناس. لم أحب الأشياء التي بدا أن كثرًا غيري يحبونها: المحادثات العفوية، ودوام طلب النصيحة وإسداؤها، والمعابثة المبتذلة المستمرة. لم أفهم ما علاقتها بحسابات الاحتمال المرهقة. قبل أن ننتقل إلى بنايتنا الجديدة، حاولت إيضاح أننا في قسم سيطرةٍ على الخطر، لا في ديزني لاند، لكن لم يبدُ أن كلامي حملَ أي تأثير في صُنَّاع القرار.

انخفض مستوى إنتاجيتي. ظللتُ لا أخطئ أبدًا، بخلاف الجميع تقريبًا، لكن أُعيق عملي إعاقة ملحوظة بالسيل المتواصل للثرثرة الفارغة المتركزة حول محطة عمل هاليكو.

كان هاليكو يضحك على كل شيء، وبدا أنه يقضي معظم وقته في مشاهدة مقاطع فيديو لرياضيي الوثب العالي، أو لمسابقات غناء سخيفة، أو أناس يربون حيوانات أليفة غريبة. كان الكل يضحك، فيجر مقطع فيديو آخر، وهاليكو يقرقر ويقهقه في سلوك أراه لا يليق بمحلل مخاطر.

أما مصدر الإزعاج الآخر فكان ليهيكوينين، الذي لا يتوقف عن الكلام. كان يخبرنا في أيام الاثنين عما حدث في عطلة نهاية الأسبوع، وفي الخريف يحكي لنا عن عطلته الصيفية، وفي يناير عرفتُ كل ما جرى في عيد الميلاد عنده. بدا أن الأشياء تحدث لليهيكوينين. وفوق هذا، كان قد تزوج وتطلق مرتين بالفعل، ما أظهر في رأيي فهمًا ضعيفًا وغير واعٍ لنظرية السبب والنتيجة. ينبغي لرياضيٍّ شاب أن يكون أكثر تعقلًا.

في هذا الصباح تحديدًا، كان كلاهما جالسًا إلى محطة عمله قبلي، هاليكو يهرش شعر رأسه القصير المحلوق، وليهيكوينين زامٌّ شفتيه ويحدق إلى شيء على الشاشة جعله ينقر بأنامله على ذراع كرسيه. بدا كأن كليهما مركزٌ منفردًا على عمله، ما كان بحد ذاته مفاجئًا. نظرتُ إلى الساعة على الطاولة، ووجدتها التاسعة تمامًا، نهاية وقت بدئنا المرِن.

منذ انتقالنا إلى البناية الجديدة، كنتُ أؤخر مغادرتي المنزل ثلاثين ثانية تقريبًا كل صباح لأتحاشى التبادل اليومي للغو التافه قبل العمل، فكانت النتيجة أنني بالكاد أصل في الوقت المحدد، وهذا أمر متناقض مع

شخصيتي. وضعتُ حقيبتي بجوار كرسيَّ وجذبتُ الكرسي من تحت الطاولة. كانت أول مرة أسمع فيها صوت دواليبها البلاستيكية الصلبة تتدحرج فوق السجادة، وجعلني شيء ما في ذلك الصوت أرتعش، مثل أصابع باردة تمشي على عمودي الفقري.

أقلعتُ حاسوبي وحرصتُ أن طاولتي تحمل كل ما سيحتاجه عمل اليوم. كنتُ أُجري بحثي الخاص حول تأثير التحولات في تردُّد الفائدة على تحسين الدفع في عالم اقتصادي دائم التغيُّر، وأتطلعُ إلى اختتام استقصائي الذي طال أسبوعين اليوم.

كان الصمتُ مثل ماء في كأس زجاجية، شفافًا لكنه ما يزال صلدًا، محسوسًا.

أدخلتُ اسم المستخدم وكلمة المرور الخاصَين بي لأسجل دخولي إلى الشبكة، فارتجفَت الخانات على الشاشة، وأخبرني نصٌّ أحمر تحت الخانة السفلى أن اسم المستخدم وكلمة المرور خاصتي غير صالحَين، فأدخلتهما ثانيةً، بأناة هذه المرة، حارصًا أن تكون الحروف الكبيرة كبيرة، والصغيرة صغيرة، وأن كل حرفٍ كما ينبغي له أن يكون، فارتجفَت الخانات ثانية، وظهر تحت الخانة سطران من الكتابة الحمراء هذه المرة. اسم مستخدمي وكلمة مروري غير صالحَين، وإضافةً إلى ذلك -وهذا مكتوب بأحرف كبيرة- لم يبقَ لي إلا محاولة واحدة (1) لإدخالها بصورة صحيحة. نظرتُ من فوق شاشتي إلى ليهيكوينين. كان ما يزال ينقرُ ذراع كرسيه، مُرسلًا نظره من النافذة إلى محل ماكدونالدز على الرصيف المقابل. رحتُ أحدقُ إليه بينما أفكر في اسمي وكلمة مروري مرة أخرى. كنتُ أعرفُ كليهما، بطبيعة الحال، وأعرفُ أنني أدخلتهما صحيحًا في كلتا المحاولتين.

أدار ليهيكوينين رأسه فجأةً، فالتقت أعيننا، ثم عاد وخفض بصره بنفس السرعة إلى شاشته، ثم توقف النقر، وأخذ فضاء المكتب يطنُّ. عرفتُ أنه صوتُ المكيِّف وأنني قادرٌ على سماعه لأن لا أحد يتكلم، لكن شيئًا ذا صلةٍ بالطنين بدأ يتلاعب برأسي فجأةً، وربما هذا ما منعني من الاستدارة وسؤال هاليكو عما إن كان قد عانى مشكلة في تسجيل الدخول إلى الشبكة هذا الصباح.

لو أن مشكلاتٍ قد وقعت في وقتٍ أسبق، فلا بد أنها زالت منذ زمن بعيد، ذلك أن هاليكو يضرب فأرته كما لو أنه يعطيها ألف نقرة ضئيلة الواحدة تلو الأخرى. موضعتُ يديَّ فوق لوحة المفاتيح، وبدأت الأظافر الباردة تخدش ظهري ثانيةً، ثم رحت أحرك أصابعي بحذر، مركزًا على كل حرفٍ أضغطه، وأخيرًا، ضغطتُ مفتاح «دخول»، متأكدًا أنني لم أضغطه إلا مرة واحدة وأنني ضغطته بمقدار ملائم من الخفَّة والحزم.

لم أرمش حتى، ناهيك بإغماض عينيَّ، لكنني شعرتُ أن ضغط المفتاح فعلٌ مهم، كما لو أنني في لحظة كنتُ أنظر إلى يومٍ من صنف ما، وفي اللحظة التالية غطتُ في النوم أو فقدتُ الوعي، وعندما استيقظتُ كان المشهدُ أمامي قد تغير تغيرًا لا يُعرف بعده، ففقد اليوم إشراقه ولونه، وتبدَّلت نقطة ارتكاز العالم بأسره. ارتجفت الخانة في منصف الشاشة مرة ثالثة، وفي غمضة عين، اختفت برمتها.

ثم سمعتُ صوتًا مألوفًا: «كوسكينين، أتتفضَّل إلى مكتبي لحظةً؟».

2

قال مدير قسمي، تومو بيرتيلا: «فلنحظَ بدردشة صغيرة، ونناقش بعض الأفكار».

كنا جالسين في مكتب بيرتيلا، وهو مكعب زجاجي الجدران تضم سماته البشعة، إلى جانب افتقاره إلى الخصوصية، حقيقة أنه لا توجد طاولة بين الذين يجلسون فيه، وهذا غير سويٍّ في نظري. جلسنا متقابلين كأننا في غرفة انتظار طبيب، ولم أُرد التفكير في أيٍّ منا سيُعتبر المريض وأيٍّ المداوي. كان للكراسي هياكل معدنية صلبة مزعجة لا مكان فيها لأضع يديَّ، فوضعتهما في حجري.

وأردَف: «أريدُ أن أنصت، أريد أن أسمعك».

كان الانزعاج البدني حاضرًا، لكنني وجدتُ دور بيرتيلا الجديد أعسرَ هضمًا بكثير. كنتُ قد تقدمتُ لمنصب مدير القسم، وكنتُ أكثر المرشحين خبرةً وجدارة، ولستُ أدري كيف أو بمَ أقنع بيرتيلا -وهو رئيس مبيعات سابق- مجلس الإدارة.

تابع كلامه: «بهذه الطريقة، أظن أن واحدنا سيفهم الآخر فهمًا أفضل. أؤمن أننا سنجد شيئًا ما نتشاركه إذا ما فتحنا قلبينا، وسنصل إلى قرار. والقرار المشترك هو القرار الصحيح. لن يحدث ذلك إلا عندما ندرك أننا مجرد شخصين يتناقشان، شخصين مجردين من كل الإضافات، بلا تدرُّجٍ هرميٍّ، ولا جدول أعمال إجباري. شخصين يجلسان حول نار تخييم؛ يلتقيان، ويفتحان قلبيهما، على مستوى عاطفي، ويسيران قُدمًا».

كنتُ أعرفُ أن الكلام بهذه الشاكلة عصريٌّ، وأن بيرتيلا قد حضر دورات لا حصر لها عن الموضوع. وبطبيعة الحال، عجزتُ عن تصوُّر كلينا عاريًا في وسط الغابة. لكن ثمة مشكلة أكبر وأكثر جوهرية في مذهب كلامه، ذلك أنه لم يُفصح عن أي معلومة، ولم يحل شيئًا. فقلت: «لستُ أفهمك، ولستُ أفهم لمَ رفضَت الشبكة...».

أرسل بيرتيلا ضحكة ودية خافتة. كان رأسه ووجهه متشابهَين تمامًا، ذلك أنه حلق مجمل شعره فصار أصلعَ كليًّا، وعندما يبتسم، يمكن رؤية الابتسامة على قفاه. وقال بصوتٍ لم يكُن يمتلكه حتى منذ عام: «هيه، أعتذر، إن الحماسة تسوقني في بعض الأوقات، فأنا معتاد أيما اعتياد على الانفتاح، وأنسى إعطاء الناس مساحةً».

قبل عامٍ واحدٍ كان يتكلم مثل كل الناس، لكن بعد أن حضر كل تلك الدورات صارت لهجته في مكان ما بين قراءة قصة ما قبل النوم والمفاوضة في حالة احتجاز رهائن، ولم تُلائم ما أعرفه عنه. ثم تابع: «لا تفهمني خطأً، فأنا أريدُ منحك المساحة. تتكلم أنت، فأنصت أنا. لكن قبل أن نبدأ، ثمة شيء أود أن أسألك إياه».

انتظرتُ، فأراح بيرتيلا مرفقيه على ركبتيه، وانحنى إلى الأمام: «كيف وجدتَ نظامنا الجديد هنا؟ العمل الجماعي، والانفتاح، وفعل الأشياء معًا، والمشاركة المباشرة للمعرفة، وانطباع الجماعة ككل؟».

- كما قلتُ قبلًا، أجده يبطئ عملنا ويصعِّب من...
- أتعرف أن بانخراط جميعنا في هذا معًا، يتسنى لنا معرفة بعضنا بعضًا، ويمكن لواحدنا الشعور بحضور الآخر، والتعلم منه، ودَب الحياة في إمكاناتنا النائمة؟
- حسنًا...
- يقول الناس إنهم وجدوا ذواتهم الحقيقية. يخبرونني أنهم بلغوا مستوًى جديدًا من الوعي، لا بصفتهم رياضيين ومحللين وحسب، بل بصفتهم بشرًا. وكل ذلك سببه أننا حرصنا على كسر الحواجز، كل الحواجز، الداخلية منها والخارجية. لقد ارتقينا إلى سوية جديدة.

كانت عينا بيرتيلا غائرتين، والحاجبان القاتمان فوقهما يجعلان قراءة تعابيره أمرًا صعبًا، لكن كان بمقدوري تخيُّل نارٍ وهَّاجة تهدر عميقًا خلف عينيه، وأنشبت الحيرة أظافرها في ظهري ثانية.

قلت: «لستُ واثقًا بذلك، أرى هذه... المستويات صعبة التقييم».

ردد بيرتيلا وتراخى في كرسيه: «صعبة التقييم... حسنًا، أي صنف من المهمات تشعرُ أنك مستعدٌّ لتوليه؟».

باغتني السؤال، وشقَّ عليَّ إبقاء يدي في حجري.

- المهمات التي أتولاها بالفعل. أنا رياضيٌّ و...

فقاطعني بيرتيلا: «كيف ترى انسجامك مع الفريق؟ ما الذي تضيفه إلى الفريق؟ إلى الجماعة، العائلة؟ ما عطيَّتك لنا؟».

أكان سؤالًا مخادعًا؟ آثرتُ الصراحة المطلقة.

- الرياضيـ...

قال: «دعنا ننسى الرياضيات للحظة»، ورفع يمناه كما لو أنه يبتغي إيقاف تيار خفي يعبر الغرفة.

فسألته مبهوتًا: «ننسى الرياضيات؟ هذه الوظيفة قائمة على مبادئ الـ...».

فأومأ برأسه: «أعرفُ علامَ هي قائمة، لكننا في حاجة إلى طريق مشتركة نمشيها كلنا معًا، سواء أكنا حاملين الرياضيات أم شيئًا آخر على أذرعنا».

- أذرعنا؟ أخشى أنك ذكرت العضو الخاطئ من الجسم. يتمحور الأمر حول المنطق. نحتاج إلى ذهنٍ صافٍ.

مرة أخرى، تقدَّم بيرتيلا بأناةٍ إلى الأمام، فوضع مرفقيه على ركبتيه، وتوكأ أولًا على جانبه، ثم اتخذ جلسةً سكتَ بعدها سكتة طويلة، ثم نطقَ أخيرًا: «كان هذا القسم عالقًا في الطين عندما تسلَّمتُ دفة القيادة. أنت تتذكر، كيف كان الكل حبيس غرفته الصغيرة، يعمل على أي شيء، ولا أحد يعرفُ ما يفعله الآخرون. لم يكُن ذلك مُنتِجًا، ولم يكُن فيه شعور الجماعة. أردتُ حمل هذه المجموعة من موظفي المكاتب والفيزيائيين الفلكيين إلى القرن الحادي والعشرين. والآن حدث ذلك. إننا نحلق، نحلق عاليًا باتجاه الشمس».

- هذا غير مستحسن، تحت أي ظروف. وأيضًا، حتى إذا ما تكلمنا مجازيًّا، إنه...

- أترى؟ هذا ما أعنيه بالضبط. ثمة رجل واحد يجابه دائمًا كل ما نفعله. رجل واحد ما يزال يجلس في ركنه الضئيل الخاص غارقًا في الحسابات وكأنه ابن العم الضائع لآينشتاين اللعين. احزر من هو؟

- لا أريد إلا أن تكون الأمور منطقية، معقولة، وهذا ما تمنحنا إياه الرياضيات. إنها متماسكة، إنها المعرفة. لا أعرفُ ما حاجتنا إلى كل هؤلاء الأطفال الداخليين، و... تقييمات المزاج هذه. بحسب ما أراه، لسنا في حاجة إليها، بل نحن في حاجة إلى العقل والمنطق، وهذا ما أضيفه.

- أضفتَه.

آلمتني تلك الكلمة اليتيمة أكثر مما فعلت ألف الكلمة السابقة. كنت أعرف كفاءتي المهنية، وأمكنني الشعور بتزايد نبضي، وتسارع قلبي. كان ذلك بكليَّته غير ملائم، ومرت الحيرة، وحل محلها السخط والاستياء.

مهاراتي المهنية لا يُشَق لها غبار، وقد تحسَّنت بفعل الخبرة...

- ليس كلها، على ما يبدو.

- ما نحتاجه في أيامنا هذه...

فقال بيرتيلا، وقد صار منفعلًا: «ما نحتاجه في أيامنا هذه شيء مختلف عما كان الناس يحتاجونه في السبعينيات، وأعني سبعينيات القرن التاسع عشر. أم يجدر الرجوع أكثر؟».

أدركتُ أن ارتجاف خانة كلمة السر لم يكُن إلا البداية، وكنتُ أعرف هذا الجانب من بيرتيلا، إذ بات ينطق بصوته الحقيقي الآن. وتابع كلامه: «والآن أنصت. باعتبارك أكتواريًّا مخضرمًا، يمكنك أن تحظى بما تريده تمامًا. لستَ مضطرًا إلى أن تكون متعاونًا مع الفريق. لستَ مضطرًا إلى استخدام الإنترنت. يمكنك أن تجلس وتحسب الأشياء بمفردك، ويمكنكَ أن تحظى بغرفتك الخاصة أيضًا»، ثم انتصبَ بيرتيلا في جلسته، وكان يجلس على حافة كرسيه، «لقد رُتب كل شيء. مكتبكَ في الطابق الأرضي، الغرفة

الصغيرة خلف طاولة البوَّاب، ويمكنك أن توصد الباب حتى. ثمة مفكرة وآلة حاسبة. لستَ في حاجة إلى الإنترنت. مهمتكَ تقييم آثار التضخم الحاصل عام 2011 على أقساط التأمين في 2012. المادة كلها على طاولتك، وإن أسعفتني الذاكرة، فثمة نحو ستين مجلدًا».

- هذا ليس معقولًا على الإطلاق، فنحن في العام 2020، وأيضًا، فقد حُسب ذلك بالفعل وقتما حددنا أقساط التأمين لذاك العام...

- احسبه ثانيةً إذن، تأكد أن كل شيء كان كما يجب أن يكون. أنت تحب هذا الصنف من الأمور. تحب الرياضيات.

- بالطبع أحب الرياضيات...

- لكنك لا تحب فريقنا، وانفتاحنا، وحوارنا، والطريقة التي نتواصل بها ونفتح قلوبنا، ونستكشف عواطفنا. أنت لا ترغب بإطلاق العنان لنفسك، لا تثقُ باللحظة، لا تثق بنا، ولا يروق لك ما أعرضه.

- لست...

- تمامًا. لستَ. لذا... (مدَّ بيرتيلا يده إلى طاولته) ثمة خيار آخر.

ناولني جذاذة ورق. قرأتها بسرعة، ولم أعُد مستاءً أو منزعجًا، بل صرتُ مشدوهًا، حانقًا، ورفعتُ بصري إليه: «أتريدني أن أسلِّم إشعارَ استقالتي؟».

ابتسم ثانيةً، وكادت الابتسامة تكون مثيلة قرينتها من بداية محادثتنا، إلا أنني لم أعُد أشعر حتى بالدفء الباهت السحيق الذي ربما رصدتُه منذ لحظات فقط.

قال: «إن المسألة هي ما تريده أنت، أنا أريدُ المساعدة في اقتراح طرق مختلفة».

- إذن، فإما أُجري حسابات عقيمة وإما أشترك في جلسات العلاج الرديئة التي تهدد اهتمامنا بالتفكير الرياضيِّ الجاد من أعلى المستويات؟ الخيار الأول عديم الجدوى، والثاني لا يودي إلا إلى الاضطراب والفوضى والهلاك.

فقال: «ثمة دائمًا خيار ثالث»، وأشار برأسه ناحية الورقة.

قلتُ، وكان بوسعي سماعُ صوتي يتهدَّج، ودمي يغلي في عروقي: «الإتقانُ يتطلبُ إتقانًا. لا يمكنكَ تحقيق دِقةٍ مستغلقة في مصفوفات الارتباط مستخدمًا طريقة كونماري. لا يمكنني أن أكون جزءًا من فريق أقصى طموحاته الخروج في عطلة لتحضير السوشي».

- ثمة غرفة صغيرة لكَ في الطابق السفلي...

هززتُ رأسي: «الأمر غير معقولٍ وحسب. أريدُ للأشياء أن تكون معقولة. أريدُ أن أتصرف بعقلانية. إن هذه الاتفاقية... الأهم من ذلك، إنها تقول إن عليَّ التنازل عن تعويض إنهاء خدمتي لستة أشهر الذي أستحقه، وإن استقالتي ستكون ساريةً من فورها».

قال بيرتيلا: «هذا لأنه سيكون قرارًا طوعيًّا»، وقد عاد لذاك الصوت الخفيض ثانيةً، وكأنه يستمتع بوقعه استمتاعًا كثيرًا، «إذا ما أردتَ البقاء معنا في هذا الطابق، فثمة في صباح الغد ندوة إجبارية مدتها ثلاث ساعات حول التأمل التجاوزي، والتي سيديرها أبرعُ الـ...».

- هل لي بقلمٍ، لو سمحت؟



بالنظر إلى وجوه البقية، عرفتُ أنهم كانوا يعلمون بالفعل. لم يكُن لي ممتلكات في محطة عملي إلا واحدة: صورة لقطي، شوبنهاور، فأفرغتُ حقيبة ملفاتي من كل الأوراق المتعلقة بالعمل، وأسقطتُ صورة شوبنهاور في الحقيبة التي صارت فارغة، ثم استقللتُ المصعد إلى الطابق الأرضي، ولم أُلقِ نظرةً حتى ناحية البوابين أو الباب القابع خلفهم. خرجتُ بعد ذلك إلى الشارع وتوقفتُ كما لو أنني اصطدمتُ بشيء ما، كما لو علِقت قدماي بالأرض.

صرتُ عاطلًا عن العمل. بدَت الفكرة مستحيلة، مستحيلة لي على الأقل. لم أتصوَّر قط أن أكون في حالة جهل لوجهتي في الصباح الباكر، وشعرتُ أن آلية عظيمة تحافظ على نظام العالم قد تعطلت فجأةً. ألقيتُ نظرة إلى الساعة

على رسغي، وكان ذلك بلا جدوى كما تخيلتُ أنه سيكون، فقد أخبرتني بالوقت، لكن الوقتَ قد فقد أي معنى له على حين غرة. كانت 10:18 صباحًا.

بدا لي أنني منذ لحظة فقط كنتُ أتفكر في الفرق بين الاحتمال الشرطي والاحتمال المبدئي، وأحاول إيجاد طريقة لتعريف الاستقلال الرياضي في الأحداث المتكاملة.

والآن أقفُ على رصيف شارع مزدحم، عاطلًا عن العمل، ولا أحملُ إلا صورة قطي في حقيبتي.

أجبرتُ نفسي على الحركة، فدفَّأت أشعة الشمس ظهري، وبدأت أشعرُ بتحسُّن طفيف. عندما لاحت محطة قطار باسيلا، صار بإمكاني رؤية حالتي بصورة أكثرَ عملية، صار بوسعي إعمال العقل والمنطق. إنني رياضي متمرس، وأعرف عن صناعة التأمين أكثر من فريق بيرتيلا الثرثار الجاهل بعلم الحساب مجتمعًا. بدأتُ بالاسترخاء. سرعان ما سأصير أُجري الحسابات لمنافسيه.

ما مدى مشقة إيجاد شركة تأمين تأخذ كلًّا من نفسها والرياضيات بجدية؟

قلتُ في خلدي: «لا يمكن أن يكون ذلك صعبًا، وسرعان ما سيبدو كل شيء أكثر وضوحًا».

ببساطة بالغة، سيكون كل شيء أفضل.

3

- لقد تُوفيَ أخوك.

لم يفعل القميص السماوي والسترة الزرقاء الداكنة إلا تعزيز الدرجة الثالثة من الأزرق في عينَي الرجل. بدا شعره الأشقر الحنطي الآخذُ بالتساقط والمُسرَّح إلى اليسار متعبًا أيضًا، وذابلًا بطريقةٍ ما. كان وجهه شاحبًا، فيما خلا الاحمرار القاني لوجنتيه، وكان قد قدم نفسه وأخبرني بكونه محاميًا، لكن يظهر أن اسمه ضاع في لجة الأنباء.

قلتُ بكل صدق: «لست أفهم».

كان مذاق أول فنجان قهوة صباحي لم يزل متلبثًا في فمي، وقد اكتسب الآن شيئًا جديدًا، مذاقًا بَعديًّا معدنيًّا، يكّاد يكون صدِئًا.

كرر المحامي: «لقد توفيَ أخوك».

محاولًا إيجاد وضعية جلوس أريحَ على كنبتي، أو هذا ما بدا أن تحركاته تشي به على الأقل. كان الصباح الخريفي خارج النوافذ باردًا ومشمسًا. عرفتُ ذلك لأنني سمحتُ لشوبنهاور بالخروج ليجلس في بقعة مراقبته الفضلى بعد الفطور، ومشيتُ مباشرةً ناحية الباب حالما رن الجرس. انحنى المحامي انحناءةً طفيفة إلى الأمام في نهاية الأمر، وأوكأ مرفقيه على ركبتيه، فضاقَت سترته حول كتفيه، ولمعَ قماشها.

- لقد تركَ لكَ متنزه تسلية.

فنطقتُ من دون تفكير: «متنزه مغامرات». صوَّبتُ ما قال.

- عفوًا؟

- متنزه التسلية هو ما يشبه ليناناماكي، أو آلتون تاورز. أفعوانيات ودوامات خيل، آلات تجلس فيها وتتركها تقذفكَ ذات اليمين وذات الشمال. أما متنزه المغامرات، فهو مكان حيث على الناس التحرك بأنفسهم. يتسلقون ويركضون ويقفزون ويتزحلقون. ثمة جدران تسلق، وحبال، وزلاقات، ومتاهات، وذاك الصنف من الأمور.

- أظن أنني فهمت، تمتلك متنزهات التسلية ذاك المنجنيق ذا الأضواء الساطعة الومَّاضة الذي يقذف الناس في الجو، أما متنزهات المغامرات ففيها... لا يمكنني التفكيرُ في شيء...

فتذكرتُ: «قلعة وثب».

أومأ المحامي برأسه ثانيةً: «صحيح، قلعة وثب»، كان موشكًا على المواصلة لكنه بدا فجأةً مستغرقًا في التفكير، «حسنًا، أفترضُ أن بإمكان متنزه التسلية أن يمتلك قلعة وثب أيضًا، مثل فيكولا القديمة في ليناناماكي. كان على المرء التسلق لدخولها والمحافظة على توازنه، ويخرجُ من طرفها الآخر منتقعًا بعرقه. لكن يصعبُ تصوُّر منجنيق واحد في متنزه مغامرات، فكل ما تفعله هو الجلوس واختبار التبدُّل اللحظي في الجاذبية... أظن أنني فهمتُ الفرق، لكن يشق إيجادُ خطٍّ فاصل واضح...».

فقلتُ: «أخي مَيت».

خفض المحامي بصره إلى يديه، وشبك إحداهما بالثانية سريعًا. وقال: «بلى، تعازيَّ».

- كيف مات؟

- في سيارته، فولفو من طراز V70.

- أقصد، ما سبب الوفاة؟

تلعثم المحامي: «صحيح، بلى، نوبة قلبية».

- نوبة قلبية في سيارته؟

- عند إشارة المرور على جادة مونكينيمي. كان السير متوقفًا، فنقر أحدهم على نافذة السائق. كان يضبط المذياع.

- ميتًا؟

هز المحامي رأسه: «لا، بالطبع لا. توفيَ بينما كان يضبطه. أعتقد أنها كانت قناةً كلاسيكية».

- وكان قد كتبَ وصيةً؟

لأصف الأمر بلطف، كان يوهاني شخصًا عفويًّا مندفعًا، يعيش اللحظة، ولم يبدُ التخطيط المستقبلي الذي يتطلبه صوغ وصية من شيمه البتة. اعتاد المزاح بقوله إني سأموت تيبُّسًا، وكنت أخبره أني أضجُّ حيويةً ولستُ متيبسًا البتة، إنما أريدُ للأمور أن تحدث بترتيب جيدٍ منطقي فقط، وإني أبني كل أفعالي على التفكير العقلاني. وكان يجدُ هذا مسليًا لسبب ما. ومع ذلك، ينبغي القول إننا ورغم كوننا طرفَي قُطرٍ، فقد كنا أخوين كذلك، ولَم أعرف كيف أتقبل نبأ رحيله.

مد المحامي يده إلى حقيبته الجلدية السمراء الفاتحة، وسحب إضبارة سوداء رفيعة ثم نقر الرباطين على الركنين بإصبعه فاتحًا إياها، ولم يبدُ أن ثمة أوراقًا كثيرة هناك. تفحص الوثيقة العليا بعد ذلك برهةً طويلةً قبل أن ينطق ثانيةً: «لقد صيغت هذه الوصية منذ ستة أشهر، وكان آنذاك أن صارَ أخوكَ موكلي. كانت رغبته النهائية واضحةً كل الوضوح: أن تحصل أنتَ على كل شيء. الشخص الوحيد المذكور اسميًّا غيركَ هو زوجة أخيك السابقة، التي يحرمها من الميراث صراحةً. لا يوجد أقرباء آخرون، أو على الأقل، هو لم يذكر أحدًا».

- لا يوجد آخرون.

- إذن كل شيء لك.

سألته: «كل شيء؟».

استشار المحامي معاملاته الورقية ثانيةً، وأعلن مرة أخرى: «متنزه التسلية».

فصوبتُه: «متنزه المغامرات».

- ما زلتُ أعاني صعوبةً في إدراك الفرق.

- إذن لا شيء فيها إلا متنزه المغامرات؟

- لا تذكر هذه الوصية أي شيء آخر، وبعدَ تحرٍّ وجيز، يظهر أن أخاكَ لم يمتلك شيئًا آخر.

اضطررتُ إلى ترديد تصريحه الأخير في نفسي لأفهم فحواءه فهمًا تامًا. وقلت: «بحسب علمي، فقد كان رياديَّ أعمالٍ ثريًّا وناجحًا».

- وفقًا للمعلومات الواردة هنا: كان يعيش في شقة مستأجرة ويقود سيارة مملوكة جزئيًّا، ومتخلفٌ عدة أشهرٍ عن الدفع لكلتيهما. وكان يدير هذا الـــ... متنزه.

أول فكرة راودتني، بالطبع، هي أن لا شيء من هذا معقول، لأنه ببساطة لا يُعقل. يوهاني ميتٌ ومُعدمٌ جوهريًّا. بدت كلتا العبارتين أشبه بسوء فهمٍ من أعلى المستويات، وأيضًا...

- لمَ لم أعرف بموته حتى الآن؟

- لأنه أراد للأمر أن يجري على هذا النحو. أرادَ أن يجري إعلامي إذا ما حدث شيء، ثم لا أخبر أقرب أنسبائه إلا بعد أن يُسوَّى كل شيء. وهذا ينطبق على الوصية أيضًا، حالما يكتمل تقييم عقاره وجرده.

- أكان مريضًا؟ أعني، أكان يوهاني يعلم أنه يـــ...

انحنى المحامي مقتربًا إنشًا أو اثنين، ولم يعُد يبدو متعبًا، بل كادت تظهرُ عليه مسحة حماسة.

- أتقصد السؤال عن وجود حيثيات تستدعي الاعتقاد أن شخصًا ما قد... قتله؟

ثم نظر إليَّ كأننا نفعل شيئًا شائقًا للغاية معًا، نحل لغزًا أو نتنافس على الفوز بمسابقة.

- أجل، أو بالأحرى...

فقال: «لا»، هازًّا رأسه، واختفَت الحماسة من قسماته تمامًا، «أخشى أنه لا يوجد شيء من هذا القبيل، مشكلات في القلب، شيء عصيٌّ على الجراحة. لقد فسَّر الأمر برمته لي، كان خطر أن يحدث ذلك قائمًا دائمًا، ثم حدث في يوم ما. استسلم قلبه وحسب. إن موت رجلٍ في منتصف عمره حدثٌ هادئ، لا يحملُ مادةً لفيلم يكتسح دور العرض للأسف».

أدرتُ وجهي وأرسلتُ نظري إلى الصباح الخريفي، ومرَّ غرابان مندفعان من أمام النافذة. ثم سمعتُ المحامي يقول: «لكن رَ الأمر من هذه الناحية: إنها فرصة عملٍ رائعة. متنزه... أخيك».

- لا. لستُ من صنفِ الرجال الذين يهوون متنزهات المغامرات. أنا أكتواريٌّ.

- أين تعمل؟

كانت زرقة عينَي المحامي في منتصف التدرج تمامًا بين قميصه وسترته حد وجود تناظرٍ رياضيٍّ تقريبًا بينهما. ربما في ظروفٍ أخرى كنتُ لأشعرَ أنها سمة مثيرة للاهتمام، أما الآن فلا. في الساعة 07:32 من هذا الصباح، بعد أسبوع ونصف فقط من البحث الدؤوب عن عمل، صُفق آخر الأبواب الأكتواريَّة في وجهي. كنتُ قد أرسلتُ، من دون تأخير، سيرةً ذاتية وطلبًا لكل شركات التأمين المحترمة وأكدتُ على أنني آخذ الرياضيات التقليدية بجديةٍ عالية حقيقةً، وقلتُ مُقدمًا إني لا وقتَ لدي أضيعه على التعبيرات الرنَّانة وألعاب حجرات الاستقبال، وعندما لم أسمع خبرًا من هذه الشركات، تواصلتُ معها بنفسي وسمعتُ تفاهاتها في صمتٍ ذاهل. واحدة تريد إنشاء دينامية فريق انسيابية، وأخرى تود الانتقال إلى شكل أحدث من الحسابات القائمة على الخوارزميات، وبذلت كلها قصارى جهدها لإيضاح غياب الشواغر حاليًّا. وأمكنني تصويب ذلك، فأخبرتهم بمعرفتي أن شركاتهم تستقطب موظفين، ومرة بعد أخرى، قاد ذلك إلى طنين صمتٍ على الطرف الآخر من الخط قبل أن تُنهى المكالمة فجأةً بتمنياتهم خريفًا سارًّا لي.

فقلت: «أبحثُ عن عملٍ في الوقت الراهن».

- وكيف سيرُ ذلك؟

سؤال جيد، كيف تسيرُ الأمور؟ كانت موازنة هذا الصباح في خسارةٍ بكل وضوح، إذ لستُ مقبلًا على إيجاد عملٍ في مجالي، وأخي قد مات، ويبدو أنني صرتُ أمتلكُ متنزه مغامرات.

- أنا واثق أن الأمور ستُحل بصورة معقولة.

بدا أن الإجابة أرضَت المحامي، ومرَّ على وجهه تعبيرٌ يشي بتذكُّره شيئًا ضروريًّا للتو، فتصفح ثانيةً الإضبارة، وأخرجَ ظرفًا.

- تركَ لك أخوكَ رسالة، خطابًا، من باب الاحتياط. كانت فكرتي. أخبرته أنه حالما تجهزُ الوصية، وبسبب تشخيصه، ثمة أمران عليه الاعتناء بهما من فوره: فاتورتي وهذه التحية لك.
- تحية؟
- هذا ما سماها به. لا أعرفُ ما بداخلها. فكما ترى، ما يزال الظرف مختومًا.

كان ذلك صحيحًا. اسمي الكامل مكتوب على الظرف من قياس C5: هنري بيكا أولافي كوسكينين، بخط يد يوهاني. ترى متى رأيته آخر مرة؟

كنا قد تناولنا غداءً سريعًا في فاليلا منذ نحو ثلاثة أشهر، ودفعتُ ثمنَ بيتزا البِبروني لأن يوهاني نسي محفظته في السيارة. بالطبع، أتساءل الآن عما إن كانت محفظته تعاني مشكلاتٍ أكبر من نسيانها ببساطة. عمَّ تكلمنا؟ حكى لي عن بعض المقتنيات الجديدة في متنزه المغامرات، وذكرتُ مبادئ كولموغوروف الأساسية في نظرية الاحتمال في شرحٍ لمَ عليه الشروع بالاستثمارات الكبيرة كل على حدة، حتى يسعه رؤية وتقدير كم شخصًا جديدًا جلبَ كل مقتنى إلى المتنزه. لم يبدُ على يوهاني أنه قد يسقط ميتًا في أي لحظة، ولم يبدُ شخصًا كتبَ وصيةً للتو أيضًا. كيف يبدو الناس عادةً بعد كتابة وصية؟ لا توجد سحنة مثالية بالطبع، رغم أن أناسًا كأولاء يقفون على أعتاب المستحيل: محاولة التأثير في الحياة الأخرى.

فتحت الظرف، واستللتُ الورقة المطوية داخله.

«سلام يا هنري..

لستُ ميتًا رغم كل ذلك! هههه، أعرفُ أنك لستَ تضحك، لكنني أريدُ أن أضحك، إذ لا يمكنني التفكير في شيء آخر. لا، بجدية، إن كنتَ تقرأ هذا، فأنا على الأغلب ميت. لقد أخبرني الأطباء أن اعتلال قلبي سيئ حد أن أجلي قد يحين قبل الحين المخطط له بكثير. بأي حال،

أحسبُ أنك بحلول هذا الوقت قد عرفتَ كل ما يجري. أنا ميتٌ ومتنزه المغامرات برمته لك. عندي أمنية يتيمة أخيرة للمكان. لم يحالفني الكثير من الحظ مع الجانب المالي قط، وشؤون المتنزه المالية ليست في خير حال، ناهيكَ بشؤوني المالية الشخصية. لم أتحلَّ قط بالصبر لحساب الأشياء كما يجب، الاهتمام بأدق التفاصيل، وما يشبه ذلك من الأمور. لكنكَ معجزةٌ رياضياتية! أتظن أن بوسعك المحافظة على سير الأمور لأجلي؟ هذه هي أمنيتي الأخيرة، وفي الحقيقة، إنها أمنيتي الوحيدة. لا أظن أنني قلتُ هذا جهارًا من قبل، لكن من كل مشاريعي التجارية -وأنت تعرفُ أنها كانت كثيرة عبر السنين- المتنزه هو الأهم. أريده أن يحقق نجاحًا. أخال أنك تسأل نفسك عن السبب. ثمة أسباب كثيرة كما ثمة دائنون كثر، للأسف. أريدُ أن أكون جيدًا في شيء ما، أن أتركَ شيئًا ورائي. وثمة سبب آخر ستكتشفه حالما تتم مهمتك بنجاح. أتتذكر كيف اعتدنا قضاء فصول الصيف في منزل جدتنا، وكيف كان مسموحًا لنا الابتعاد عن المنزل، حيث كان كل شيء فاسدًا دائمًا؟ أفكر في فصول الصيف تلك الآن. كنتَ تجلسُ في الداخل على الدوام تحسبُ الأشياء، وكنتُ في الخارج ألعب. لكن لطالما ذهبنا إلى الصيد معًا. إن كنتُ ميتًا، فاجلس في الداخل لبعض الوقت، احسب الأشياء وأنقذ المتنزه، ثم اخرج إلى الصيد. سأجلبُ الديدان. (مزحة رغمًا عني، أعتذر، عجزتُ عن المقاومة. أما كل ما خلا ذلك جديٌّ كالموت)».

يوهاني

شعرتُ بانزعاجٍ يزاحم الحنق. كان ذلك من أخلاق يوهاني: افتقار تامٌ ومُطلق إلى المسؤولية. ظهر واضحًا أن الرسالة كُتبت على عجل، وصيغَت على البديهة، ذلك أنها لم تُؤوِ شيئًا من التفكير والحوار العقلانيَين، وكان غياب التحليل التفصيلي والاستنتاجات الواضحة يثير الاهتمام أكثر من حضورها. وللمرة الألف في حياتي، أردتُ أن أقول له إن هذا ببساطة غير عقلاني.

لكن يوهاني ميت. وأنا حزين وغاضب وتاله ومحبط، وبطريقة غير مادية على نحو غريب، مُنهَك. أحرقت هذه المشاعر متعاضدةً رئتي، وأنشبَت مخالبها في صدري. أشار كل شيء بأصابعه إلى حقيقة أنني صرتُ، واقعًا، مالك متنزه مغامرات.

زَفَرتُ: «إذن، أهذا كل شيء؟».

أجاب المحامي: «ليس تمامًا»، وراح ينبشُ بسرعة في حقيبته الجلدية، وبحركة أكثر تمرُّسًا بكثير، أخرج ظرفًا أكبرَ بعض الشيء، «فاتورتي».

وضع الظرف المحتوي فاتورته بجانب ظرف رسالة يوهاني، ولاحظتُ أن كليهما يحمل اسمي. تفحص المحامي الأوراق مرة أخيرة، ثم مرر الإضبارة إلى جانبي من الطاولة، وقال: «تهانيَّ، وتعازيَّ».

4

انبسطَ متنزه يُو مي فَن عبر المشهد الخريفي ببهاءٍ زاهي الألوان يكاد يكون مُعدلًا وراثيًّا. كان صندوق الصفيح والصلب، المطلي بألوان حُمر وبرتقالية وصُفر صارخة، والممتد 200 مترٍ تقريبًا، قذى للعين، مهما تلوَّنت النظارات التي ينظر المرء إليه من خلالها، وعلى ما يبدو، كانت غاية الألوان الزاهية والنقش العملاق نشر البشارة البهيجة بالمرَح والألعاب مُذرِفة العرق المناسبة لجميع أفراد العائلة على كل من يدخل أبوابه. شقَّ عليَّ تخمين ارتفاع صندوق متنزه المغامرات، فقدرته بخمسة عشر قدمًا ربما، وكان يكتنف مساحة تكفي ملعبًا رياضيًّا وحظيرة طائرات وبضع مدرساتٍ ومرأب شاحنات، ويتربَّع خلف تخوم مدينة هلسنكي تمامًا.

مرَّ يومان، وليلتان ملؤهما السُّهاد منذ زيارة المحامي.

هبطتُ من الحافلة في محطة مبكرة عن طريق الخطأ، وراح المشي يزدادُ مشقةً مع ازديادي قربًا. لم يكُن ذلك بسبب الحدَر الطفيف أو الرياح المقابلة الوانية، أو حقيقة أنني أردتُ الاستمتاع بالسماء الزرقاء الكوبالتيَّة وشمس الظهيرة البيضاء تقريبًا، إنما كانت المسألة أقرب إلى مشاعر عدم التصديق والمقت واليأس التي شعرتُ بها تنبجسُ داخلي كلما دنوتُ أكثر من المتنزه، كأن شيئًا ما كان يرغمني على الاستدارة والمشي في الاتجاه المعاكس وعدم النظر خلفي أبدًا. فكرتُ في نفسي: «لا بد أنه صوت العقل»، لكنني في الآن نفسه، سمعتُ صوت يوهاني يقول: «إنها أمنيتي الوحيدة».

لم أعرف إلا القليل عن عمليات متنزه المغامرات. كنتُ أعرفُ أن لا علاقة ليوهاني بإدارته اليومية، فالأبواب تُفتح وتُغلق من دونه، وله مكتبٌ في البناء، لكنه قلما وُجِد فيه، إذ كانوا يقولون بإبهام «خارجٌ في عمل». أما عن من كان يتولى الإدارة اليومية للمتنزه، فلا فكرة لدي البتة. كان مرأب السيارات، وهو ساحة أسمنتية بمساحة ثلاثة ملاعب كرة قدم، نصف ممتلئ، ومعظم السيارات من الحجم العائلي، أغلبها عمره بضعَ سنوات. نظرتُ إلى النقش على سقف البناء: يُو مي فَن.

بدَت الأحرفُ أكبر مما كانت عليه في زيارتي السابقة، التي كانت أيضًا زيارتي الوحيدة إلى الآن. ولدهشتي، تراءت لي مُهدِدةً تقريبًا. وجدتُ نفسي أفكر في أنني سأحتاج إلى التحرز من أن تباغتني الشعَبُ المدببة لحرف الواي أو أعلق في الراية المرفرفة لحرف الإف. من أين خرجَت تلك الفكرة؟ لا يمكنني إلا افتراض أن الأحداث الأخيرة كانت أكثر من كافية لتُنمِّي حبال أفكار لا عقلانية كهذه. مشيتُ ناحية المدخل وألقيتُ نظرة ثانية إلى السقف.

حالما صرتُ في الداخل، اصطففتُ أمام مكتب التذاكر. كان منظرُ البهو يُعطي فكرة عما بداخل المحل: أطفالٌ يتفجرون حيوية، صرخات جامحة وزعقات حادة، والمحادثاتُ الأخفضُ والأقل حماسةً نسبيًّا للآباء والأمهات. كانت طاولة البيع نصفُ الدائرية، البالغ طولها نحو عشرة أمتار، مطلية بنفس ألوان بقية المتنزه، وبحذاء الطاولة الحمراء والبرتقالية والصفراء، ثمة قبة ضخمة تنحني في الجو. وبين الطاولة والقبة، وقف رجلٌ مرتديًا زيَّ متنزه مغامرات رسميًّا كما لو أنه عالقٌ داخل هلوسة خوذة فضاء هائلة.

كان الرجلُ شابًّا، في الخامسة والعشرين ربما، ويحملُ بطاقة تعريف على قميصه. كُتبت بأحرف كبيرة بيضاء كلمة «يُو مي فَن»، وبأحرف سوداء أصغر منها كُتب «كريستيان». كان كريستيان بُني العينين مفتول العضلات، وبالنظر إلى عُلبة العدَّة المتدلية من حزامه، افترضتُ أنه المسؤول عن صيانة المتنزه. وبينما يقف خلف طاولة البيع، بدا من جانبٍ في موطنه ومن جانبٍ آخر في غير مكانه تمامًا.

توقفتُ عندما حان دوري.

لمَ أنا هنا؟ كانت فكرتي المبدئية إعلامَ طاقم العمل بوفاة يوهاني وانتقال ملكية المتنزه إليَّ، لكن بدا ذلك الآن هزيلًا أيما هزالة. لم أكُن قد فكرتُ في كريستيان أو بقية أفراد الطاقم، ولم أفكر في الزبائن على الإطلاق، الذين يظهرُ أن حشودًا منهم تتجمع حتى في هذه الساعة من الصباح. شعرت كما لو أن لا شيء في العالم -حرفيًّا- يمكنه إعدادُ شخصٍ لوراثة متنزه مغامرات.

أخبرتُ كريستيان بهويتي وطلبتُ التكلمَ إلى المسؤول عن عمليات المتنزه. سألني لمَ لم أتكلم إلى أخي وحسب، فأخبرته أنني عجزتُ عن ذلك لأن يوهاني قد توفي بغتةً وصرتُ الآن مالك المتنزه، فاختفت ابتسامة كريستيان، وأخبرني أن امرأةً اسمها لورا هيلانتو هي المسؤولة عن كل شيء، فسألته إن كان بمقدوري لقاء لورا هيلانتو، فوضع كريستيان الهاتف على أذنه واستدار عني قبل أن أتدبَّر قول إني أفضِّل إخبار هيلانتو بالأنباء شخصيًّا. وفي تلك اللحظة، سمعتُ كريستيان يقول في الهاتف: «إن يوهاني قد توفي، وثمة شخص ما هنا يقول إنه أخوه، لا يُشبه يوهاني، أعليَّ التحقق من بطاقة هويته للتأكد أن هذا ليس صنفًا ما من احتيال الورثة النيجيري... بلطيقي إذن... حسنًا... اتفقنا، مع السلامة». أنهى كريستيان المكالمة واستدار ليواجهني ثانيةً. وقفنا صامتَين على الطرفين المتقابلين من طاولة البيع وانتظرنا، ثم نطق أخيرًا: «كان يوهاني رب عملٍ صالحًا بحق. لقد منحنا حرية التصرف، وكان هادئ الأعصاب، لا يجلس فوق رؤوسنا طوال الوقت محصيًا كل قرش عدًّا».

قلتُ في خلدي: *لستَ مخطئًا*. ثم تذكرتُ لمَ كنتُ قد ظننتُ أن ثمة شيئًا غريبًا في منظر كريستيان خلف الطاولة.

فسألتُه: «ما سبب وقوفكَ في مكتب التذاكر بالضبط؟»، وأشرتُ برأسي إلى العدة المدلاة من حزامه، «يبدو أنك تؤدي عملًا مختلفًا بعض الشيء هنا».

- لم تأتِ فينلا اليوم.
- لم تأتِ؟ لمَ؟
- تعجز عن النهوض.
- أهي مريضة؟

سأل كريستيان: «ما قصدُك؟»، ونمَّ صوتُه عن قلقٍ حقيقيٍّ هذه المرة، «هل سمعتَ شيئًا عنها؟».

أوشكتُ أن أفتح فمي، لكنني سمعتُ آنذاك صوتَ امرأة من خلفي. قال الصوت: «مرحبًا»، فالتفــتُّ وتلقفتُ يدها الممدودة.

كانت لورا هيلانتو تضع نظارة سوداء الإطار، ولها شعر بُنيٌّ يتموج وينتشرُ مثل أجمةٍ حتى يلمس كتفيها. عيناها زرقاوان مخضرتان وثمة احتراس فضوليٌّ فيهما، وعمرها نحو الأربعين، ربما تتجاوزه بعام أو اثنين، مثلي تمامًا، وأقصر مني بخمسة وعشرين سنتيمترًا تقريبًا: أي قرابة الطول الوسطي للنساء الفنلنديات. كنتُ ماهرًا في تقدير أطوال الناس لأنني نفسي رجلٌ طويل: مئة واثنان وتسعون سنتيمترًا، لذا اعتدتُ الأسئلة المتوالية الفارغة عن الموضوع.

رمقتني لورا هيلانتو بنظرة سريعة، مرت بها عليَّ حرفيًّا من رأسي حتى أخمص قدميَّ، وعزَّتني. لم أكُن متأكدًا من الرد الذي تقضي به الأعراف، ومن سحنتها، شقَّ عليَّ معرفة ما إن كانت آسفةً بحقٍّ أم أنها مستمرة بالتفرُّس في مظهري وحسب.

ثم حثثنا الخطى مبتعدَين.



قالت لورا هيلانتو: «الكعكة الحلقيَّة»، وأشارَت إلى أنبوب بلاستيكيٍّ شفاف هائلٍ يتصادم فيه بضعة أطفال ويضربون جدرانه المُبطَّنة، «أولُ مقتنياتنا، وما يزال واحدًا من المفضلة في المتنزه. يمكنك الركضُ في دائرة وتحدي قوة الجاذبية. ما عليكَ إلا أن تخبرني إن كنتَ قد سمعتَ كل هذا قبلًا».

قلتُ: «لم أسمع أي شيء البتة»، وكان حقيقةً ما قلتُ.

كان الهواء مثقلًا برائحة حلوةٍ مُبهمة، خليطًا بين شذى المقصف، والمعقم، وشيء ما بشري. وثمة زعقات وصيحات وصرخات حادة من كل حدبٍ وصوب. بقيتُ منتبهًا إلى قدميَّ وأدركتُ أنني قلقٌ من أن أدوس خطأً على واحدٍ من الزبائن الأقصر قامة.

قالت لورا هيلانتو: «ما عليك إلا السؤال عن أي شيء يمر ببالك».

وعندما دخلنا منعطفًا حادًّا إلى اليمين، رمَتني بنظرة. كان ثمة شيء ما في تلك النظرة، فقد حملت ذاك البريق الفضوليَّ السؤول السابق نفسه. وعندما استدار رأسها، راح شعرها الكث يقفز كأنما تحمله الريح، ثم تابعت: «إنه متنزهكَ الآن. تلك هناك هي قلعة الوثب، وهي نطاق تسلُّق هائل. ثمة بضع طرقٍ اختيارية لعبورها، وفي كل بقعة من القلعة، عليك التسلق بطريقة مختلفة بعض الشيء، والعوائق مختلفة أيضًا، ومن حيث الصيانة، فهذا هو المكان الأكثر حساسية في المتنزه، إذ فيه دائمًا شيء مُعطَّل. تُعرف قلعة الوثب بمودةٍ بأنها قلعة قطع الغيار. ففيها الكثير من بلى الاستعمال. قد لا يُخيَّل إليك أن طفلًا وزنه لا يزيدُ على ثلاثين كيلوجرامًا يمكنه أن يكون مدمرًا إلى هذا الحد، لكن هذي هي الحال».

قلت: «صحيح»، وشعورٌ بالرعبِ يتعاظمُ داخلي، «والقائم بأعمال الصيانة هو...؟».

أومأت لورا: «كريستيان، الذي التقيتَه بالفعل. هو فتًى صالحٌ ماهر، لكن...»، بدا عليها أنها تفتش عن الكلمات المناسبة، «في بعض الأحيان، يمكن أن يكون إيصال المعلومة إليه شاقًّا إلى حدٍّ ما، لكنه يقظ الضمير ومُجِدٌّ في عمله، على عكس...».

- فينلا.

ظهرت الدهشة على لورا، وفي تلك اللحظة تباطأ خطونا قليلًا، ما منحني فرصة لأرفع نظري عن قدميَّ.

أكملتُ: «لقد أبلغني كريستيان أن فينلا كانت تعاني مشقة في النهوض من السرير هذا الصباح».

قالت لورا ساخرةً: «هذا الصباح»، ووشَت لهجتها بأنها تقصد شيئًا آخر تمامًا، ثم أزاحَت شعرها عن نظارتها، «حسنًا، هذه نقطة انطلاق شاحنات السلاحف. لدينا ما مجموعه ثلاثون شاحنة. يلفُّ المسارُ الطريق كله حول المبنى تقريبًا، وكما يقترح الاسم، فهذه الجولة لا تشبه سباقات الفورمولا ون، بل هي وسيلة جيدة لتهدئة الأطفال المشاكسين. تجلسهم في العربة

وتتركهم يُساقون حول الردهة بضع مرات، فتسكُن قواهم تدريجيًّا. واثقة أنكَ تفهم ذلك. ألديك أطفال؟ طفل؟ آسفة، ليس من شـ...».

فقاطعتها: «لا أطفال البتة. أعيش بمفردي، وحيدًا. نظرًا إلى كل المتغيرات العشوائية، فهذا هو الخيار الأكثر عقلانية حتى الآن. أتعنين أن فينلا تعاني صعوبة في النهوض من السرير في الصباحات الأخرى أيضًا؟ لمَ تعمل هنا إذن؟ لمَ يُدفعُ لها بالضبط؟».

كنا قد توقفنا، واهتزت واحدة من الشاحنات السلاحف الخضراء القاتمة متحركةً، حاملةً الرقم 13 على غطاء محركها. جلس في الشاحنة سائق يبلغ نحو ثلاث سنوات من العمر، وكان ينظرُ إلينا بدلًا عن النظر إلى الطريق أمامه، وفي الشاحنة وراءها جلس أبو الطفل، الذي بدا كأنه قد يغلبه النوم عند العائق التالي، ولم يكُن ليحدث شيء فظيع، ذلك أن الشاحنات تسافر أبطأ من سرعة المشي الوسطية.

- هل تحدثتَ ويوهاني قط عن... (ترددت لورا) عن الشؤون التجارية لمتنزهنـ... أعني، للمتنزه؟

- ليس تفصيلًا. كان يخبرني أحيانًا عن المقتنيات الجديدة، مدافع الترومبون، وقطار الكومودو، والكعكة الحلقية ربما، وربما بعض الاستثمارات الأخرى. لكن بخلاف ذلك (هززتُ رأسي) لا، لم نفعل.

- حسنًا. أعتذر. افترضتُ أنكَ مُلمٌّ بآخر المستجدات، بإبهام على الأقل. أخال أنه من الأفضل لي البدء بإيضاح هويتي وطبيعة عملي. لقبي الرسمي هو مدير المتنزه، وهذا يعني أنني المسؤولة عن الإدارة اليومية للعمليات في المتنزه، والحرص أن كل شيء يجري على قدمٍ وساق وأن طاقمنا في المكان والزمان المناسبَين. مرَّ على تسلُّمي إدارة المتنزه عامان ونصف العام حتى الآن. سأعترف بصراحة، لم أكُن أخطط لاتخاذ إدارة متنزه مغامراتٍ مهنةً، فأنا أمتهنُ الفن، رسَّامة، لكن... حالت الحياة دون ذلك. تعرفُ كيف تسير الأمور.

جاوبتُ، بأمانة: «لستُ واثقًا البتة أنني أعرف. فبحسب تجربتي، غالبًا ما تقودنا الافتراضات التلقائية فيما يخص تناسبية الأشياء إلى الضلال».

صارَت لورا هيلانتو تحدقُ إليَّ صعودًا ونزولًا جهارًا الآن، وكانت نظرتها درَّاسة، وتعبيرها مهتمًّا إلى حد ما. لعله ليس مهتمًّا بقدر ما هو مرتاب. وقالت أخيرًا: «طلاق مُلخبط... ولي طفلة، اسمها تولي، وتحتاجُ أدويةً باهظة جدًّا لحساسياتها. لكنك سألت عن فينلا، لقد وظفها يوهاني».

بدا أن كلًّا من موضوع الحديث ولهجتها قد تغير في طرفة عين، فافترضتُ أنه قد جرى التعامل مع المفهوم مبهم التعريف لحيلولة الحياة دون ذلك، وناسبني ذلك. فقلت: «بالنظر إلى ما عرفتُه عن سلوكها، فإن توظيفها لا يبدو معقولًا».

أرسلَت لورا نظرها إلى فولاذ الزلاقات اللامع: «لطالما أراد أخوك منح الناس فرصًا».

عبرتنا مجموعة مندفعة من الناس الصغار، وبلغت مستويات الدسيبل معدلات حفل موسيقى روك. وحالما خفَت الصوت بعض الشيء، تجرأتُ على التكلم ثانيةً. قلتُ: «أفهم ذلك»، رغم أنني لم أفهمه تمامًا، «كم يبلغ مجموع أفراد الطاقم؟».

كنا قد واصلنا الحركة، وراحت لورا تقود الطريق، إذ كنتُ أتبعها رغم أننا مشينا جنبًا إلى جنب. كانت تنتعلُ زوجين من أحذية الجري زاهية الألوان ثخينة النعل، ولها مشيةُ شخصٍ معتاد على المشي، وشعرها ينشر عبقًا من أشهى ما يكون، لكن ظل انتباهي منشغلًا بحركة عينيها، ذلك أنها تتمتع بطريقة فريدة في التفرُّس فيَّ بينما تتجنبُ التقاء العيون جملةً وتفصيلًا.

قالت: «لدينا سبعة أفراد طاقم بدوام كامل. سأُعرِّفك على البقية قريبًا. ثم لدينا العمال الموسميون، معظمهم في المقهى، كيرلي كيك. عدد العمال الموسميين في تغيُّر مستمر، وبحسب اليوم أو الأسبوع قد يتراوح من صفر إلى خمسة عشر. العطلات الانتصافية في سبتمبر وفبراير موسم الذروة. لا تبلغ العطلات الصيفية نفس القدر تمامًا من الازدحام، وإن كانت تُبقينا مشغولين بالتأكيد. أجلبُ تولي معي في بعض الأحيان، وسرعان ما تُكوِّن صداقات، مثل معظم الأطفال، أنت تتذكرُ ذلك حتمًا».

تذكرتُ، لكن بطريقة معاكسة، ذلك أنني لطالما استمتعتُ بصحبة نفسي في طفولتي. عززت تجاربي المبكرة الحقيقة المتجذرة القائلة كلما ازداد الناس، ازدادت المشكلات، وازدادت حجمًا كذلك.

- أكان يوهاني يتردد كثيرًا إلى المكان؟

- لا، لأكون صريحة. ففي خلال الوقت الذي عملت فيه هنا، كانت زياراته في تناقص تدريجيٍّ. بدا راضيًا عن أسلوب إدارتي للمتنزه، إن كان لي قول ذلك. قال إن لا جدوى من وجوده هنا ومراقبته إياي بينما أعتني بكل شيء.

- أسبَقَ وكلمكِ فيما يخص الوضع المالي للمتنزه؟

أجابت لورا بسرعة: «أجل. كانت أعداد زوارنا في تزايد مستمر. ظل يوهاني يقول إن الأمور رائعة، رائعة وحسب. ومؤخرًا تحديدًا. كان يصفق بيديه ويصيحُ بكلمات تشجيع مضحكة. منذ بعض الوقت قال إنه سيمنحنا كلنا مكافآت».

- مكافآت؟

قفز شعرها ثانيةً، واستدار رأسها ناحيتي، وظهر شيء ما أكثرُ من محض حذرٍ في تينك العينين الزرقاوين المخضرتين.

- ما إن نحقق هدفنا من الإقبال وترقى نتائج استطلاعات رضا العملاء إلى المستوى المطلوب. تبدو الأمور واعدةً فعلًا. ستُمنح المكافأة في آخر العام لتكون هدية عيد الميلاد.

- عيد الميلاد هذا؟

- لا يفصلنا عن عيد الميلاد إلا سبعة وثمانون يومًا. أعرفُ هذا لأن عندي صديقًا على الفيسبوك ينشُر كل أسبوع كم يومًا تبقى لعيد الميلاد. يعلم الله أنني أحتاجُ إلى تلك المكافأة، وإلا ستكون أيام عيد ميلادٍ قاسية عليَّ وعلى تولي.

بعين عقلي، أمكنني رؤية وسماع جانب يوهاني الذي كان يعيش في واقع مختلفٍ تمامًا، والذي كان يقول ويفعل أي شيء يمرُّ في باله. ثم توقفنا. كانت لورا قد أشارت إلى شتى النشاطات وشرحَت ماهيتها بعجَلةٍ وحماسة،

وأصابني حجم المتنزه وقياساته بمشاعر جسمانية لا تقربُ المستحَب، ثم أشارت إلى الزلاقات: «أتود تجربتها؟».

نظرتُ إليها، فابتسمَت. قالت: «إنني أمزح»، وعادَت جادة: «أعتذر. لستَ في الحالة المزاجية المناسبة. فعندما يموت قريبٌ فجأةً...».

قلتُ قبل أن ألاحظَ أنني فتحتُ فمي حتى: «يبدو أننا لم نكُن على تلك الدرجة من القرب رغم كل ذلك. ثمة الكثير مما لم أعرفه عن يوهاني. حسنًا، كل شيء، كما يظهر. عرفتُ أنه كان يمتلك هذا...»، قُلتها ودوَّرتُ يدي اليمنى في الجو، كأنني أُحرِّك قِدر عصيدة مقلوبًا على عقبه، «لكن لا بد لي من الاعتراف: تبين أنني لم أعرف شيئًا عن المكان. إنه... مفاجأة. بطرق شتى».

نظرَت لورا هيلانتو إليَّ، وقد صارَت متوترة ومترقِّبة قليلًا، أو هذه قراءتي لسحنتها على الأقل، ثم سمعتُ قعقعة الصحون من المقهى، وطفلًا أخذ يصيح لأمه بلا توقف.

- ما شعورك ناحية هذا؟

سألتها: «ما شعوري ناحية ماذا؟»، وكان سؤالًا حقيقيًّا.

فقالت: «يُو مي فَن»، وحملَ صوتها لمحة افتخارٍ تقريبًا.

نظرت حولي سريعًا. ما عسايَ أقول؟ إن كل التفاصيل التي رأيتها وسمعتها هنا ربما كانت فرادى أكثر ما صادفته غروتيسكيةً قط؟ أقزام يندفعون هنا وهناك، ونقصُ تنظيم لا يُحتمل، وفواتير صيانة صاعقة، واستغلال غير منتجٍ لساعات العمل، ورعونة اقتصادية، ووعود لا يمكن لأحد برُّها، وعربات تتحركُ بسرعة السلاحف حرفيًّا؟ رفعتُ إصبعي إلى حلقي، وتفحصتُ حال ربطة عنقي، وكانت خلوًا من العيوب.

فقالت: «حسنًا. لا بد أن هذا يصعبُ استيعابه، إنزال هذا القدر من السعادة على هذا الكم من الناس. فلنذهب ونلتقِ الآخرين، ما رأيك؟».



كان سامبا مدرس روضة أطفال سابقًا، عمره بضعة وثلاثون عامًا، يضعُ أقراطًا في كلتا أذنيه، ويحمل مجموعة من الوشوم الانتقائية على ذراعيه

ووشاحًا أحمر غليظًا حول عنقه. كانت مجموعة من الأطفال تقرع طقمًا من طبول الغابة وقتما أخبرت لورا سامبا مَن أنا وفيمَ مجيئي، فوضع سامبا يدًا على فمه، ربما ليكتم الشهقة التي استخرجتها الأنباء. تكلم فينةً عن الأثر الشافي التكاملي للعب، ثم تركناه وواصلنا المسير إلى المقهى.

يوهانا هي المسؤولة عن مقهى كيرلي كيك، حمراء الشعر، أكبر مني بقليل، ونحيلة نحلًا مفرطًا، فتبدو كأنها تستعد للمشاركة في سباق الرجل الحديدي أو قد أنهَت واحدًا مؤخرًا. كان ثمة شيء فولاذي في وجهها، شيء قادر على الصمود إلى اللانهاية. عرضَت أن تمزج لي عصيرًا من شأنه أن يعزز مستويات الفيريتين لدي، لأنني على ما يظهر بدوتُ مُرهقًا. أخبرتها أنني قد خسرتُ للتو وظيفتي وأخي، وورثت متنزه مغامرات، وبدا أن التفسير لم يُقنعها.

اتجهنا ناحية باب معدني بين مدافع الترومبون ونفق الأشباح يحمل ملصقًا بلاستيكيًّا أصفر عليه عبارة غرفة التحكم. فتحت لورا الباب بمفتاحها الرئيس، وفي آخر رواق قصيرٍ بلغنا غرفة صغيرة لها بابان إضافيان. بدا أن الغرفة الأولى تحوي لوحة المفاتيح الكهربائية، وفي الغرفة الثانية، جلس رجلٌ أكتف في خمسينياته على كرسيٍّ مكتبيٍّ له مسند رأس يمكن تعديله، وأمامه جدارٌ مبطنٌ بشاشات المراقبة، التي كشفَت أن متنزه المغامرات فيه كاميرات أكثر مما انتبهتُ إليه في خلال جولتنا. كان اسم الرجل إيسا، وكان رئيس أمن المتنزه. طُبعت على بلوزته الجامعية عبارة جُندي في البحرية الأمريكية، وأفتخر، وشقَّ عليَّ تصديق أنه جندي مدرب في البحرية الأمريكية حقًّا، لكن إن كنتُ نفسي مالك متنزه مغامرات الآن، فمن يدري ما قد فعله إيسا قبل أن ينتهي به المطاف في غرفة التحكم. أحاط بفمه مربعٌ أسود رفيعٌ من شعر اللحية، مُشذبٌ بدقة مليمترية، وله أنف قصير عريض وعينان زرقاوان حمراوا الحواف. تعرف واحدنا إلى الآخر، وكان ذلك حد محادثتنا.

ترامى مكان آخر شخصٍ عليَّ مقابلته -مرة ثانية- في الطرف الآخر من المُجمَّع. كانت مينتو كيه، وهي مديرة التسويق والمبيعات، أو هكذا قدمت نفسها على الأقل، جالسة في مكتبها مُحكمة إسدال الستائر الفينيسيَّة على النوافذ، وكانت أصغر مني بقليل، ذات شعرٍ أشقر مقصوص، وسمرة

غامقة، وترتدي سترةً رسمية زرقاء قاتمةِ أصغر من قياسها بقياس أو اثنين على الأقل. ابتسمَت لي ابتسامةً بالغة الود وتفاخرَت بأنها قادرة على بيع أي شيء لأي شخص، وبحلول نهاية تعارفنا الذي طال خمس عشرة ثانية، بتُّ أظن ذلك محتملًا جدًّا. كنتُ شبه واثقٍ أنني التقطتُ رائحة باهتة لليمون فردوسي وكحول في الجو. قدمت مينتو كيه اعتذاراتها وقالت إن عليها إجراء مكالمة هاتفية، ثم غمزَتني وأخرجَت سيجارة من علبة البول مول بالنعناع على الطاولة ووضعتها بين أصابعها، وقالت: «مجردُ وغدٍ ضئيل يجب ركلُ مؤخرته»، ثم أردفَت بصوتٍ أنعم: «هيه، يؤسفني أمرُ أخيك».

مشينا عائدين إلى الرواق، وانعطفنا يمينًا فوصلنا إلى مكتب يوهاني. عُلقت على الباب لوحة تحمل اسمه، وأثار مرآه نفس شعور الحيرة الذي اختبرتُه عند زيارة المحامي. كان الاسم مُدلًّى في الهواء، كأنه ينتظر شخصًا ما ليظهر ويبعث فيه الحياة.

بدا أن المكتب لرجلٍ في رأسه أعباء أكبر من مجرد إدارة متنزه مغامرات، فطاولة المكتب غارقة تحت أكوام من الأوراق، وطاولة القهوة مغطاة بمناشير مُصوَّرة ونموذج مصغَّر مُلوَّن يُظهِر نوعًا ما من قلاع اللعب كاملة مع أبراجها، ومن أحد الأبراج يمتد لوح قفز في الجو. قلت في نفسي إنه من دون بركة سباحةٍ تحته، قد يواجه التصميم مشكلاتٍ عاجلًا.

- لقد أدركتُ للتو أنني لم أسألك عن عملك.

أعادتني كلمات لورا إلى المكتب.

- إنني أكتواريٌّ. حسنًا، سلمتُ إشعارَ استقالتي منذ أسبوعين.

- بسبب يُو مي فَن؟

هززتُ رأسي: «لم أكُن على علمٍ بهذا المتنزه حينذاك. استقلتُ لأنني لم أُطِق مشاهدة مكان عملي يستحيل ملعب أطفال. ثم ورثتُ واحدًا».

أكانت لورا هيلانتو تبتسم؟ لم أعتقد أنني قلتُ شيئًا مسليًا. رفعَت يدًا أمام فمها، وعندما خفضتها، كانت سحنتها محايدة.

- أُرجح أنك تود استكشاف كل شيء على مهلك.

لم أود ذلك بتاتًا، لكنني سمعتُ كلمات يوهاني في أذني ثانيةً: «أمنيتي الوحيدة». نظرتُ إلى الطاولة، وأكداس الأوراق المتراكمة.

وفي تلك اللحظة، أخذ الهاتف في يد لورا بالرنين، ولاحظتُ أنها كانت رنة هاتف طبيعية، لا جلجلة سخيفة أو صوت رحض مرحاض يُفترض به دغدغة كل من حولها. قلتُ لنفسي إنه خيار عقلانيٌّ بتفوق.

نظرَت إلى الهاتف، وقالت قبل أن تجيب: «إيسا».

ثم استدارت، وبعد أن نطقَت باسمها في الهاتف اختَفَت وراء الزاوية، وتلبَّث عبيرها في الجو، أعشابًا وأزهار حقول.

5

ناقص ثلاثة وستين ألفًا، وخمسمئة وواحد وأربعين يورو، وثمانين سنتًا.

غربَت الشمس ولم أجتَز إلا النزر اليسير من الأوراق، لكن تربَّعت أمامي بالفعل كدسة بثخانة سبابتي من الفواتير غير المدفوعة والطلبات النهائية. كان مبلغًا كبيرًا من المال.

شغلتُ حاسوب يوهاني في مرحلةٍ ما، لكنني لم أبلغ أي مبلغٍ من دون كلمة السر، فلم تكُن الآلة سوى صندوق يهمهمُ بلطفٍ من مكونات معدنية خفيفة وقشرة بلاستيكية، لذا أطفأتُه وتابعتُ تسوية طاولة المكتب.

كنتُ جالسًا على كرسي المكتب الذي تركه لي يوهاني، محاولًا اتخاذ قرارٍ بين إضرام النار في كل شيء أو الغرق مع المتنزه مثل القبطان على متن التايتانيك.

فكرتُ في البداية أن هذه آخر مرةٍ أدخل فيها هذه الغرفة وأجلس على هذا الكرسي أبدًا. فقد أديتُ واجبي: قدَّرتُ الوضع، وقبلتُ بالحقائق، واضطُررتُ إلى اتخاذ قرار أليمٍ لكنه حتميٌّ. أو هذا ما حاولتُ التفكير فيه على الأقل، لكنني عجزتُ عن ضبط أفكاري، وظلت تثبُ بلا كللٍ من مكان وزمان إلى غيرهما.

رحتُ أنخرط تارةً في نقاش مُجددٍ مع بيرتيلا بخصوص استقالتي، وتارةً في محاولة التكلم بعقلانية مع يوهاني. الأول كان أحمق، والثاني ميتًا.

يوهاني، أكنتَ تعرفُ حقًّا ما الذي تفعله وقتما قررتَ ضبط مذياع السيارة؟ أكان الطريقُ الذي سلكته، أو بعضه على الأقل، خيارك الشخصي؟

الاخضرار الفاقع لجادة المتنزه في أغسطس، وربما بعض موسيقى برامز المُرسلة من مكبرات الصوت؟ لا شك أنها كانت اقتراحًا أكثر جاذبيةً من محاولة عَقْلِ طلبات الجملة لمقهى كيرلي كيك أو التزوُّد ببديل جديد وأكثر ليونة حتى للمرآة الموزة المكسورة.

الموت. عرفتُ الكثير عن الموت. لا من خبرتي الشخصية، بل من عملي بصفة أكتواريٍّ. إعلانات شركات التأمين الباعثة على الارتياح لا تخبركم بهذا أبدًا، لكنها تعرفُ أن بعض الذين يؤمِّنونهم سيوقفون أقساطهم الشهرية في رمشة عين، إذا صح التعبير، وينطلقون في رحلة بلا عودة إلى مكان لن تبلغهم تعويضات تأمينهم فيه أبدًا. كان بوسعي أن أفعل المثل: أركض خارجًا من المكتب، وألقي بنفسي تحت قطار الكومودو.

لكن لا. لستُ من صنف الرجال هذا، بل من صنف الذين يؤمنون بأننا لسنا مضطرين إلى بذل جهدٍ إضافيٍّ للعثور على المتاعب في هذه الحياة، فسرعان ما ستعثر علينا بنفسها.

امتدت يدي لتُرخي ربطة عنقي، لكنني كنتُ قد أرخيتها بالفعل منذ ساعات. كان شعور رهاب الاحتجاز ينبع من مكان آخر. بينما أنظر إلى الأرقام، اتضح لي أن المتنزه جاء مصحوبًا بكل الأشياء الموجودة في هذا البناء حتى آخرها، وكانت فكرة مرعبة، جارفة. الكرسي من تحتي، والقلم على الطاولة، والأرجوحات البهلوانية، وعربات السباق الأبطأ في الكون المعلوم، والسترة ذات شعار لوح الشوكولا الراعي المعلقة في المدخل. كل شيء.

مات يوهاني، لذا ما كان ملكه صار ملكي. لم يكُن الموت مجردًا، فارغًا وصامتًا، بل كان ألف غرضٍ وغرض من مختلِف الأشكال والأحجام، وكلٌّ منها يشغل حيزًا من الفراغ ويُصدر صوتًا إذا ما أُلقي في سلة المهملات، أو وُضع في صناديق تخزين مؤقتة على ما يبدو.

لم أخطط لإضرام النار في كل شيء، فمرة ثانية، لستُ من ذاك الصنف من الرجال. كنتُ أعرف أن ثمة رجالًا يشعلون المباني ثم يستمتعون في الغابة القريبة بينما يتمتَّعون بمنظر ألسنة اللهب، لكنني لم أتصور أن فِعالًا كهذه قد تحقق النتائج التي أحتاج إليها.

والأهم من ذلك، ثمة كومة أخرى من الأوراق أيضًا، وهذه سماكتها سنتيمتر واحد تقريبًا، وقد أربكتني أكثر من كومة الفواتير والمطالبات النهائية بكثير. كانت الأنشطة التجارية للمتنزه في حالة ديمومة، وتكاد تكون مُربحة. لكن رغم ذلك، فقد أهمل يوهاني دفع كل الفواتير تقريبًا واقترض قرضًا إضافيًّا باسم المتنزه.

لم أفهم المعادلة. كنتُ قد تعلمتُ في خلال دراستي أُسس المحاسبة، وحتى الآن، لم أحتَج إلى هذه المهارات في عملي الخاص، لكن المحاسبة توظف المبادئ نفسها التي أعشقها في الرياضيات: السعي وراء الوضوح التام، والدقة، والتوازن المعصوم، والطرح المُحكم، والكمال. راق لي ذلك، وبالطبع، كانت المادة أمامي هزيلة بكلِّيتها وتعجُّ بالأخطاء، لكنها خلَّفت لدي انطباع متنزه أعماله التجارية مقبولة بل أقرب إلى الجيدة حتى. وجدتُ البيان المالي الذي أعدَّه محاسب المتنزه، لكنني وجدتُ في الكومة الثانية إشعار إنهاء عقد المحاسب نفسه وفاتورة يرجع تاريخها إلى بداية هذا العام، والتي أُرسلت بالفعل إلى وكالة تحصيل ديون. عجزتُ عن إيجاد أي شيء يشير إلى تعيين شركة محاسبة جديدة. ربما لم تُعيَّن شركة محاسبة جديدة.

إن كانت عمليات المتنزه مربحة واقعًا، فلمَ اقترض يوهاني قرضًا آخرَ للمحافظة على سيرها؟ فيمَ الحاجة إلى المال الإضافي؟ لا يمكن أن يكون من أجل مقتنى المتنزه الجديد، لولب الجنون، وهو زلاقة متلوِّية ملتفَّة تشبه البرَّامة، موصولة بالدب الأكبر، ذلك أن يوهاني لم يدفع مقابل هذا إلا العربون -نقدًا- والقسط الأول. وبالنظر إلى التسلسل الزمني، فقد بدأت الفواتير بالتراكم في محيط الفترة التي فسخت فيها شركة المحاسبة عقدها. وبعد ذلك، كان كل شيء تقريبًا متأخرًا عن السداد. شيء ما قد حدث. وثمة استثناء واحد، فقد سُحبَت كل القروض المصرفية بعد هذه الفترة الزمنية. وبإضافة القروض والفواتير غير المدفوعة إلى الطاولة، يبدو أن ما يقرب من مئتَي ألف يورو قد اختفَت كأنها شبحٌ أو سراب.

مئتا ألف يورو. في أقل من عامٍ فقط. يتوقع المرء رؤية دليل على وجود مبلغ كهذا من المال، لكن أين هو؟

كان يوهاني يقود سيارة فولفو قديمة بملكية جزئية منذ عامين تقريبًا، ويعيش في نفس الشقة ذات غرفة النوم الواحدة، المزودة بأثاث من الخشب المضغوط، حيث عاش منذ طلاقه. كان يلبسُ من متاجر دريسمان ويأكل في مقصف صيني محلي رخيص. يوهاني الذي أعرفه -معرفة رديئة، أعترف بذلك- بالكاد يعرف معنى فيرزاتشي وسافوي، ولم أستطع تصوُّر تبديده المال على علاجات للبشرة أو تقليم أظافر أو رحلات باهظة خارج البلاد. كان يوهاني قد زار تالين، وبات ليلة في فندق فيرو، ثم عاد إلى فنلندا. في ظاهره، بدا كأي رجل فنلندي عادي في منتصف العمر لا يفرط في حب أي شيء، ولا هوايات مخصصة لديه، وقطعًا لا يوجد شيء يمكن القول إنه كان شغوفًا به. رجال مثل هؤلاء يعيشون بمال أقل من معظم العصافير. لكن لا بد أن كل هذا المال قد سلك مسلكًا ما.

كنتُ موشكًا على سؤال نفسي: «أي مسلك؟» مرة ثانية، وقتما طُرق الباب.

6

لم أغلق الباب في أي مرحلة. ثم تذكرتُ الخطوات التي سمعتها بدايةً تقترب، ثم تبتعد ثانيةً. شخص ما قد أغلق الباب. لمَ؟ سمعتُ طرقة ثانية، وتعيَّن عليَّ قول شيء ما، فقلتُ: «أنا هنا، ادخل».

استدار المقبض، وانزلقَ الباب منفتحًا بحذر. هل أغلق المتنزه أبوابه اليوم بالفعل؟ نظرتُ إلى ساعتي، بلى، منذ نصف ساعة. ربما كنتُ وحدي في المبنى، حسنًا، بالطبع لم أكُن وحدي لأن أحدهم طرق الباب. ومع ذلك، لم يُقدِم أحد على دخول المكتب، ثم لمحتُ كتفًا، ثم قميصًا، ثم نصف وجه.

سأل كريستيان: «ماذا؟».

- أجل، أنا... هنا. حاولتُ قول ذلك.

فقال، وما يزال في المدخل: «لم أسمعك»، ولم يتحرك.

قلت: «ادخل»، وكادت تكون صرخة هذه المرة.

قال كريستيان: «حسنًا»، ودخل الغرفة.

وقفَ قبالة طاولة المكتب، فأشرتُ له إلى الكرسي فجلس، وراحَت العدة المعلقة بحزامه تصلصل على الكرسي البلاستيكي. كانت عيناه البُنيتان مثل لوزتين، وعضلات صدره تختبرُ غرزات قميص يُو مي فَن خاصته.

سألته: «أكنتَ قائمًا على مكتب التذاكر طيلة النهار؟».

أومأ برأسه وقال: «كانت المبيعات رائعة اليوم. بعتُ أكوامًا من أساور نيوت».

- أفهم من ذلك أن فينلا لم تأتِ إلى العمل.

خفض عينيه: «لا، غالبًا ما تزال مريضةً».

فكرتُ في مئتَي ألف اليورو المفقودة وفي ما قالته لورا لي: «وظَّف يوهاني فينلا لأسباب -جزئيًّا على الأقل- لا علاقة لها بقدرتها على بيع أساور نيوت». أكان ثمة صلة بين الاثنين؟ عليَّ التكلم إلى فينلا هذه، على فرض أنها قد تظهر يومًا ما لأداء وظيفتها ذات الدوام الكامل التي ندفع لها لقاءها رواتب.

- هل اتصلَت بك؟ أتكلمها كثيرًا؟

بدا كريستيان يزداد ارتباكًا، ثم رأيتُ الدمَ يتدفقُ إلى خديه.

- أجل، أعني، لا. (صوَّب كلامه) ليس حقًّا، (وصار أحمر قانيًا) حسنًا، على الإطلاق.

- إذن أنتما لا تتكلمان؟

- لا.

- لكنك تغطي غيابها.

- بلى.

- وأنت رجل الصيانة.

- بلى.

- ألا يجدر بفينلا الاعتناء بوظيفتها الخاصة؟

صار منظرُ كريستيان كمن ابتلع شيئًا علِقَ في حلقه لكنه إما عاجز وإما عازف عن إظهار ذلك.

- ليست مشكلة.

- لمَ لا تؤدي وظائف الآخرين كذلك؟

- لمَ؟

- إن لم تكُن مشكلة.

- وظائف البقية كلهم؟ إلى أين سيذهبون؟

- لا أعرف. ربما حيث ذهبت فينلا.

أظهرت تعابير كريستيان أن الفكرة كانت -إلى حد ما على الأقل- موجعة.

- هل اقترح شخص ما ذلك؟

تنهدتُ: «لا، ليس على حد علمي. كان السؤال الأولي بلاغيًّا. نويتُ إيضاح أن نهج عملك الذي اخترتَه غير منطقي في أساسه».

بدا كريستيان كأنه يتسلق تلةً منحدرة جدًّا.

قلتُ أخيرًا: «كنت تفكر في شيء ما. وقتما طرقتَ الباب».

قال: «صحيح، بلى»، وكان ارتياحه ظاهرًا للعيان إزاء تغيير الموضوع، «أعرفُ أن هذا يومك الأول وكل شيء، لكننا كنا نتكلم في الخارج، أعني، البقية كانوا يتكلمون وأنا كنتُ أنصت. بأي حال، بما أن ثمة مالكًا جديدًا هنا الآن، أنت المالك الجديد وأنت المسؤول عن...».

أومأتُ برأسي: «هذا بلا شك ما يبدو الأمر عليه».

- الأمر أنني، ومنذ شهر تقريبًا، كنتُ أتكلم ويوهاني. لقد أبرمنا اتفاقًا، ويوهاني... حسنًا، ليس جالسًا على ذلك الكرسي، الأمر الذي يؤسفني حقًّا، لكن بالنظر إلى أننا أبرمنا اتفاقًا وكل شيء، كنتُ أتساءَل عن أي جدول زمنيٍّ نحن بصدده...

انتظرتُ فينةً: «أي اتفاق؟».

- حسنًا، لقد تكلمنا عن... (جابَت عينا كريستيان الغرفة لتجدا شيئًا تركزان عليه، ويظهر أنهما لم تنجحا) كما ترى، كان يُفترض بي أن أصير... أو أُسلَّم... أصير... أيًّا كانت الطريقة التي تنظر بها إلى الأمر...

حاولتُ حثه: «كان يُفترضُ بكَ أن تصيرَ شيئًا ما...».

قال أخيرًا دون تفكير: «المدير العام».

ظننتُ أنني سمعتُ خطأً: «عفوًا؟».

- رب العمل. المدير التنفيذي. المسؤول الكبير.

فهمتُ أخيرًا. بالطبع. كان يوهاني يخطط لجعل كريستيان المدير العام، مديرًا عامًّا من النوع الذي... قد لا ينتبه لكل تفصيل، لكل توقيع. شخص ما يكون مديرًا عامًّا على الورق فقط. بالطبع، كان من الممكن دائمًا أن لكرستيان مجموعة عريضة من المواهب الإدارية المخبأة. نظرتُ إليه وفكرتُ

فيما سمعته للتو، ولم يسعني إلا التفكير في أنه لو كان يحوز مواهب إدارية مخبأة فعلًا، فهي مخبأة بدقة طائرة شبح.

قلت: «كريستيان، هذا لن... يحدث».

توقفت عينا كريستيان البُنيتان فجأةً عن الجَوب، ونظر إلى الأمام مباشرةً.

- بلى، سيحدث.
- لا. أنت...
- بلى. أنا. مدير.
- كما تعلم يا كريستيان...

قال بصورة قاطعة: «لا أريد أن أعلم شيئًا، أريد أن أصبح المدير العام».

جلسنا صامتَين لوهلة. ثم قال: «بيننا اتفاق»، وقد انخفض صوته طبقة.

ألقيتُ نظرةً إلى أكوام الأوراق على الطاولة، تلك التي أنهيتُ دراستها. بات الأمر يبدو كما لو أن يوهاني قد تورط في شيءٍ ما، إضافةً إلى كارثة اقتصادية. إن كان ما يقوله كريستيان صحيحًا -ولا سبب عندي للشك فيه، ذلك أن الصدق ظهر عليه حقًّا- فمنذ شهر فقط، وجد يوهاني نفسه في موقف يحتاج فيه إلى محو نفسه من مجلس إدارة الشركة.

قلت بحذر: «فلنتكلم عن هذا لاحقًا يا كريستيان».

انتصبَ كريستيان واقفًا من كرسيه ومدَّ لي يدًا صلبةً عبر الطاولة. وقفتُ وتلقفتُها، فهزَّ كريستيان يدي، هزَّها حرفيًّا، وتمكنتُ من الشعور بقوة قبضته. بدت القوة تتدفق عبر كل جسده، كما لو أن حتى عضلاته الحركية المتموجة فوق صدره قد لعبت دورها في اختتام محادثتنا، وقال: «بيننا اتفاق».

أوشكتُ على فتح فمي، لكنني منعتُ نفسي في اللحظة الأخيرة، ثم كررتُ ما قلته: «سنتكلم عن ذلك لاحقًا».

بدا أن كلامي أرضى كريستيان، فترك يدي، واستدار متجهًا ناحية الباب المفتوح، وقبل أن يبلغ المدخل توقف، واستدار ثانيةً، ومد ذراعه رافعًا إبهامه وسبابته مثل مسدس يُطلق النار، ثم حاول أن يغمزني، لكنه لم ينجح إلا بالرمش بكلتا عينيه، وقال: «رائع».

7

كان الرجل يلوِّح بحفنة من المستندات في وجهي، ويستهزئ بي مرنمًا: «لالا لالا لا». ثم راح يمشي عكسيًّا، ورحتُ أطارده. حاولتُ انتزاع الباقة، لكنني شعرتُ أن يديَّ ثقيلتان وحركتي بطيئة بطئًا موئسًا. واصل الرجل تعذيبي، ولم أتمكن من تبيُّن ملامحه. ظلت كل أعضاء وجهه -فمه وأنفه وخداه وجبهته- تُبدِّل أماكنها، ولا تستقر في موضع واحد أبدًا. كانت تلك المستندات تحتوي المعلومات التي أحتاجها، توضح أين ذهبت الأموال. وأخيرًا، نترتُ نفسي متحركًا، وانقضيتُ واختطفتُ الـ...

استيقظتُ قبل أن أرتطم بالأرض بقليل، لكنني خبطتُها رغم ذلك مُحدثًا صوت هَدَّة، فقد سقطتُ على جنبي الأيسر، ولكمتُ بقبضتي اليمنى البساط بجانب السرير في محاولتي القبض على الأوراق. وصل ألم السقطة متأخرًا بعض التأخر، ذلك أنني كنتُ أترنح واقفًا بالفعل وقتما أدركتُ أنني خبطتُ رأسي أيضًا، إذ طرق بالأرضية المصفحة بجوار البساط، وبدأ الشق الأيسر من جبهتي بالخفقان. ثم تدبرتُ الوقوف وتقييم الوضع.

عرضَت الساعة الرقمية على الطاولة الجانبية الوقت بأرقام حمراء قانية على أنه: 03:58 صباحًا.

أيقظت الضجة شوبنهاور، وأخذ يراقب تحركاتي من أسفل السرير. لم أقُل شيئًا، ذلك أنني لم أُرِد الجدال بخصوص مقرمشاته الليلية. ألقيتُ عليَّ رداء نومي ولبستُ زوجين من الجوارب الصوفية، ومشيتُ إلى المطبخ، ثم

شربتُ كأسًا من الماء وفتحت باب الشرفة. شعرتُ ببرودة الأرضية الخرسانية تحت قدميَّ، لكن الهواء كان عليلًا خفيفًا، والصمتُ مطبقًا.

كنتُ قد وصلتُ إلى المنزل متهالكًا، فأكلتُ سريعًا -بضع مقانق باردة وفطيرة تفاح- وخلدتُ إلى النوم مباشرةً. خلَّف يومي الأول في متنزه المغامرات فيَّ نفس الأثر الذي خلَّفه في كل زوارنا، أو هذا ما قالته لورا هيلانتو على الأقل، فعندما يمضي المرء طيلة النهار يجوب المتنزه، يغفو في الليل حالما يلمس رأسه الوسادة، ولا جدال في ذلك.

لم تعُد البرودة سيئة. كانت جبهتي ما تزال تخفق، والشعور السمج قد بدأ ينحسر. ظلت أشياء كثيرة قالتها لورا هيلانتو تخطر في بالي، كمن يرمي حجارةً في أوقات منتظمة على بركة ليلية ساكنة، فقد أعربَت عن دهشتها إزاء سرعة زيارتي المتنزه بعد وفاة أخي، ولم أفهم السؤال. قالت إنني في حاجة إلى الوقت لأقضي حزني كما يجب. ألم أكن أخطط لتخصيص بعض الوقت لنفسي؟ كنا قد وصلنا في هذه المرحلة من الحديث إلى المرآة الموزة وقتما طرأ طارئ، لذا لم تتسنَّ لي مجاوبتها. لكن الآن، كما في ساعات الصباح الباكر من كل يوم، كنت أخوض محادثة مع أشخاص غير موجودين.

أجبتُها في ذهني، قائلًا إنني لستُ أرى كيف لجلوسي على الكنبة لبعض الوقت أتفكر في خطط المستقبل وطبيعة الموت أن يغير الحال أو يحسِّنه، فتأملاتي بخصوص الموضوع لا في العير ولا في النفير.

وقد جرى الاهتمام بالجنازة أيضًا، إذ قال المحامي إنه سيرتب كل شيء وفق توجيهات يوهاني التي تقتضي أن أختار النعش ثم يُحرق بحسب الأصول، وبعد ذلك يجري إبلاغي بميعاد دفن الجرة. ولا يُقام حفل تأبين، فلا يوجد أحد ليُدعى، ولا أحد يرغب في تناول كرات اللحم الجافة وسلطة البطاطا الدافئة وكعكات القرفة البائتة من شركة خدمات طعام ما. لا أحد يريد سماع قسٍّ يرثي المتوفى بخطاب ملؤه المعلومات اللاحقة لكن من دون أي إثباتات سابقة. افترضتُ أنني سأُعلم بالمكان الذي ينبغي لي دفن الجرة فيه، وافترضتُ أنني سأتمكن من استعارة حبلٍ أيضًا، لدفن الجرة، لا للحاق بيوهاني إلى صدر الأرض. والأهم من ذلك، ما الفترة المناسبة للحزن على خسارة كهذه؟

كان يوهاني أخي، وكانت طفولتنا مضطربة. تبادل والدانا الأدوار في فقدان السيطرة على مختلِف نواحي الحياة اليومية. كان تعبير: «كالمستجير من الرمضاء بالنار» ينطبق عليهما بتمامه. وقتما سيطرا على مشكلات شُربهما البوهيمية، مؤقتًا على الأقل، بدآ قبل انقضاء الأسبوع بشراء أشياء لا نحتاج إليها ولا يحتملان دفع ثمنها، وعندما بلغ الحال مستويات تكاد تكون كارثية، تدبَّرا كبح اكتنازهما القهري عبر الانتقال من المنزل والبدء من جديد في كومونة محليَّة نتنة الرائحة يديرها رجل ملتحٍ يلبس بلوزةً صوفيةً قذرة أقصر من مقاسه بكثير، والذي حتى الأطفال كانوا قادرين على رؤيته يقفز إلى السرير ومنه مع كل نساء المنزل. عندما كشف أبونا المتهور الحقيقة أخيرًا، كنا ننتقل ثانيةً، متجهين -انتقامًا من السيد الطوباوي على ما يبدو- مباشرةً إلى عالم من الرأسمالية، فصار والداي من عملاء تبروير لبعض الوقت، حتى فاضت شقتنا المستأجرة باهظة الثمن بالصحون والصناديق البلاستيكية من كل الأحجام والأشكال، التي قرر والداي دفع ثمنها عبر إنشاء مسرح دمى. ما أدركتُ، حتى في الثالثة عشرة، أنه لن يودي بنا إلا إلى كارثة أخرى ذات سحناء مختلفة بعض الشيء. وهكذا دواليك. لم يحمل أي شيء أي مغزًى قط.

عندما كنتُ صغيرًا، أقسمتُ أن تكون حياتي مبنية على تبيُّن الحقائق، على العقل، والتخطيط المستقبلي، والضبط، وتقدير المُجدي من غير المُجدي. حتى في طفولتي رأيتُ الرياضيات الحل. يخوننا الناس، أما الأرقام لا تخون. كنتُ مُطَوَّقًا بالفوضى، لكن الأرقام مثَّلت النظام، ورحتُ أمضي الوقت بعد إنهائي واجبي المنزلي في حساب كل ضروب الأشياء للمتعة. في الرياضيات، كنتُ سابقًا كل زملاء صفي بعامين.

توفيَ والدانا عندما كنتُ ويوهاني في مطلع العشرينيات. لم يكُن موتهما دراميًّا على الإطلاق، وبطريقة ما، توفيا إثر التقدم في السن، رغم أنهما كانا صغيرَين نسبيًّا، قرابة الستين فقط. افترضتُ أن أسلوب الحياة الطائش قد فرض ضريبته عليهما في آخر المطاف، فأهرمهما، وأن عبثهما متعذر الفهم قد هراهما ببساطة شديدة. عند وفاتهما كانت آخر مخططاتهما خفيفة العقل، مهرجان زبادي بلغاري أجرياه، ومرة ثانية، نظما الأمر بالعكس تمامًا، إذ

استوردا كميات هائلة من الزبادي أولًا ثم خزناها في المنزل بينما انتظرا بدء المهرجان.

لكن ما علاقة هذا بيوهاني والحزن على وفاته؟

تراءى لي، وأنا أتكئ على الدرابزين المعدني لشرفتي، أنني بطريقة ما قد حزنتُ عليه منذ زمن بعيد، عندما حزنتُ على والديَّ. كان يوهاني ووالداي متشابهين كل التشابه، ولم يبدُ أن هذا يضايقه. كان بصورة مشابهة ينزلق من وضع ميؤوس منه إلى آخر، تاركًا لا محالة خلفه خرائب يتصاعد منها الدخان، فارًّا المرة تلو المرة من مشاهد الدمار التي خلَّفها، ويمضي ضاحكًا. أظن أن هذا هو سبب غضبي الشديد منه، وبالطبع، حقيقة أنه ترك لي متنزه مغامرات ذا ديون غامضة تبلغ قيمتها مئات آلاف اليوروهات.

أدركتُ الآن أخيرًا، بينما أقبض على الدرابزين المربع البارد بيديَّ وأملأ رئتي بهواء الليل الصَّقِع، أن هذه هي قصة حياة عائلتي. كان يُو مي فَن يوهاني. كان أمي وأبي. كان عائلتنا. وهذا بالتحديد ما جعل الأمر كله بهذه الصعوبة.

لم أنسَ كل تلك المحادثات مع أفراد عائلتي. كنتُ أحاول فتح عينَي كلٍّ منهم على تناقض مسار عملٍ معين وإيضاح عواثير مبدأ عدم التدخل الوردي الذي نقَعَ كل فعالهم. وفي كل مرة كنت أشرح الحقائق والتكلفة المُتوقَّعة لكل شيء -على عكس ما ظنوا أنها ستكون- وكيف يؤثر كل قرار بتاليه، وأوضح ما قد تكون النتيجة الأكثر رجحانًا، ودائمًا ما كانت تنتهي هذه المحادثات النهاية نفسها: جدالات، وشتائم، وإهانات، وقطيعة، وتوتر.. وجدالات جديدة.

حتى ماتوا كلهم. شعَّت الأرضية الخرسانية بردًا، وبدأ أخمصا قدميَّ يؤلمانني، وبانت النجوم أشبه برؤوس دبابيس مضاءة بلمباتٍ ساطعة.

كانت الفكرة مثل موجةٍ خُلقت منذ زمنٍ بعيد، مثل قطار يتسارع، وأعرف أنهما يتجهان ناحيتي، وعرفتُ فحواها قبلَ أن أقدر على صياغتها كلامًا بوقت طويل، عرفتُ أي قرار سأتخذه في آخر المطاف، وإن أردتُ لجزء من الثانية تلافي الأمر برمته: الفكرة، والنتائج المستخلصة، والمقتضيات، والمسؤولية التي سأضطر إلى حملها.

8

كانت لورا هيلانتو جالسة بمفردها، تتناول غداءها في منطقة التسليم في الباحة خلف متنزه المغامرات، حيث أُعدَّت مجموعة من أثاث الحدائق للموظفين، فهبطتُ الدرجات المعدنية المُصلصلة من رصيف التحميل واتجهتُ ناحيتها، ناحية الطاولة والكرسي. بالنظر إلى الوقت من العام، كان النهار هادئًا ودافئًا، والسماء الصافية زرقاء داكنة، فظهر العالم مشرقًا ومُطلقًا وساكنًا أتمَّ السكون. أخذتُ نفسًا عميقًا.

كنتُ قد أمضيتُ الليلة الماضية والساعات الأولى من هذا الصباح رفقة معاملات يوهاني الورقية، وإن أصاب شعوري باليأسة شيءٌ فهو ازدياده. ومع ذلك، خُيِّل إليَّ أنني ربما وجدتُ بارقةَ أملٍ ماليةً ضئيلةً في خضم البلبلة.

كانت لورا تُمسك شوكةً بيمناها وتنقرُ في هاتفها باليسرى، ولم ترفع رأسها حتى صار بيني وبين الطاولة ثلاث خطوات. عكسَت نظارتها أشعة الشمس، لكنني التقطتُ نظرة ارتباك مُختلَسة في عينيها قبل أن تفترِش ابتسامة وجهها.

قالت: «أوه، أهلًا».

- أرى أن المحاسبة في سجل المصروفات النثرية تعيشُ حياةً خاصةً بها، (وجلستُ إلى الطاولة قبالتها) مسؤولية مَن هذه؟

لم تقُل لورا شيئًا في البداية، وراحَت بدلًا عن ذلك تُسفِّد مكعبات الخيار من علبة بلاستيكية في شوكتها، وغابت ابتسامتها.

- لقد جعلها يوهاني مسؤوليتي.

- لمَ؟

- أثمة مشكلة في المحاسبة؟ لطالما سلمتُه كل صباح تقرير مبيعات اليوم المنصرم كما اتفقنا تمامًا، وتقريرًا أسبوعيًّا كل اثنين، وتقريرًا شهريًّا عند نهاية الشهر. نسخٌ ورقية مطبوعة. على مكتبه. كما طلب بالضبط.

- صحيح. يبدو مُحكمًا، أعني سجل المصروفات النثرية. وجدتُ التقرير الأحدث على طاولة المكتب، وبضع دزينات من التقارير السابقة كذلك. لكن لمَ...؟ أقال يوهاني...؟ أم أن الأمور كانت تجري بطريقة مختلفة في الماضي؟

ظلت مكعبات الخيار معلقة في الجو، والشوكة تكاد تكون في منتصف القطر الواصل بين فمها والعلبة.

- إن كان فهمي صحيحًا، فقد جرت العادة على أن يُحال كل شيء إلى المحاسب رأسًا في مُلحقٍ واحد، من الحاسوب مباشرةً، لكن يوهاني أخبرني بأنه فصَل المحاسب وأنه يبحث عن واحد جديد، لذا طلب مني تولِّي سجل النقد وتسليم التقارير إليه مباشرة في الوقت الراهن.

وفي تلك اللحظة، ارتسمَت لمحة تردد، لمحةُ تشكُّكٍ على وجهها، وخفضَت الشوكة إلى العلبة، وسألتْ: «أثمة مشكلة؟».

كانت الإجابة الموجزة: أجل. فالحقيقةُ هي أن مبالغ ضخمة من المال كانت تدخل الحسابات، لكن مبالغ أضخم بكثير تتسربُ منها ثانيةً. وكلما أمعنتُ في تركيبِ أجزاء كل شيء -المحامي الذي زار شقتي، وكريستيان وأحلامه بالصيرورة مديرًا عامًا، وتقريرا المحاسبة، اللذان أُعِدَّ أحدهما على يد رسَّامة، وقروض يوهاني الأخيرة، وديون المتنزه الأخرى- أخذ كل شيء يزداد غرابة. لم أكُن قد أجبتُ بعد عندما تكلمَت ثانيةً: «كل ما أعرفه هو أن عمل المتنزه جيد جدًا، وأنني اعتنيتُ بكل شيء، كما اتفقنا».

بدت لورا هيلانتو صادقة، وكانت هذه مشكلة أيضًا. فكريستيان بدا صادقًا، وكذا المحامي، بطريقته الخاصة. الكل كان صادقًا، لكن ظل هذا لا يفسِّر لمَ ثمة مبلغ كبير من المال مختفٍ بلا أثر.

سألتها: «ألديك أي خبرة سابقة بهذه المسائل؟».

- أي نوع من المسائل؟

كان جوابها سريعًا، وخرج مصحوبًا بومضة، انعكاس آخر من نظارتها.

- خبرة بالشؤون المالية للشركات. يُو مي فَن أقرب إلى شركة متوسطة الحجم من مشروع ناشئ صغير، لذا...

- ألديك أنتَ؟ ألديك هذا النوع من الخبرة؟

باغتني السؤال، رغم أنه كان سؤالًا عقلانيًّا تمامًا، وربما لاحظت لورا ذلك. فأجبت بصدق: «لا. ولا أي نتفة».

نظر واحدنا إلى الآخر، ولم تقُل لورا هيلانتو شيئًا. لم يكُن عندي ما أضيفه كذلك، ولم أُرِد الإدلاء بأي استخلاصات ناقصة غير مدروسة عن الموضوع، فهذا لا يليق بي ولا بالوضع القائم.

فقلتُ أخيرًا: «إنني أحاول فهم كيفية سير الأمور هنا وحسب. كل هذا جديد عليَّ. ثمة الكثير من الزبائن، وهذا إيجابي. كما قلتِ، عمل المتنزه جيد...».

ومرة أخرى، خبأتُ ختام الفكرة في فمي: *عمل المتنزه جيد إذا وضعنا كل الأمور في الاعتبار*. نظرت لورا إليَّ لوهلة، وظهر عليها الاسترخاء، ثم رفعَت شوكتها ثانيةً، وكانت على وشك حشرها في فمها عندما سألتني: «أتغديتَ؟».

قلتُ: «لا»، وأدركتُ أنني لم أخطط للغداء أو لأي وجبة، وكنتُ بحلول هذا الوقت قد جعتُ، «ولَم... ربما سأتناول شيئًا من كيرلي كيك...».

قالت: «هاكَ بعض الفلافل والحمُّص»، وراحت تنقلُ علبًا بلاستيكية صغيرة عبر الطاولة، واحدة واحدة، «لقد أكلتُ بالفعل. سآكل المزيد من الخيار، جلبتُ كثيرًا منه».

نظرتُ إلى العلب. كان بها طعام، لكن بدَت كأن شخصًا آخر قد أكل منها، ورغم جوعي، لم أرغَب بأكلِ بقايا طعام شخص قد أخلُص لاحقًا إلى الاشتباه به بتهمة الاختلاس. فقلتُ: «لا، أشكرك».

تابعَت لورا تناول خيارها، ثم رنَّ هاتفها، فألقَت نظرة إليه ونقرته فاتحةً إياه. ظهرت صورة نابضة بالألوان على الشاشة، ورغم الانعكاس أدركتُ أنها

لوحة. تنهدت لورا ورفعت نظرها إليَّ. قالت: «أعتذر. يريد هذا الشاب شراء لوحة، لكنه يعرضُ مبلغًا أقل مما أنفقتُه على المواد. هذه هي الحال في هذه الأيام: يُريد الناس كل شيء بالمجان، لا أحد يرغب بدفع ثمن عمل فنان. الكل يظن أنهم لو حظوا بالوقت والنزعة، كانوا ليرسموا شيئًا مشابهًا، وليس مشابهًا حتى، بل أفضل».

سألتها قبل أن أدرس المسألة: «أيمكنني رؤية اللوحة؟».

كانت المرة الثانية التي يحدث فيها ذلك، ففي اليوم السابق، بدأتُ -ولدهشتي- بإخبار لورا عن علاقتي بأخي. لم أعرف ما الذي كان يجري بالضبط.

قالت: «بالطبع»، وأمالت الهاتف ناحيتي.

كانت الشاشة ملأى بألوان حمر وبيض قوية. لا بد أن اللوحة ضخمة حقًّا. لم يبدُ أنها تمثِّل شيئًا ما بعينه، لكنني سرعان ما بدأت أتبيَّن الأشكال والحركة في التموجات. وبعد برهة، أدركتُ أنني صرتُ شبه مشلول، واضطررتُ تقريبًا إلى حَرفِ عينيَّ بالقوة.

قلتُ عفويًّا: «بديع»، وشعرتُ من فوري أنني دخلتُ أرضًا خطرة، ولم أفهَم لمَ واصلتُ الكلام، «قوية. يحبها المرء تدريجيًّا. يمكن رؤية الحركة، إنها مفعمة بالحياة، ويستمر الرائي في اكتشاف أشياء جديدة فيها».

قالت لورا: «أشكرك»، وأخذت الهاتف وأطفأت الشاشة، «سرني سماع ذلك».

أردتُ اجتثاث نفسي من الموقف، لكنني ظللتُ جالسًا هناك. بدأتُ المحادثة بشؤون محاسبيَّة صِرفة، وانتهيتُ بأن أنطقَ استعاراتٍ فنية عفوية غامضة. لم يكُن ذلك من شيمي البتة، فوقفتُ، محاولًا تفادي التواصل البصري مع لورا هيلانتو.

قالت: «إذن لديكَ جانبٌ فنِّيٌّ فعلًا».

- لدي ماذا؟

اندفع السؤال خارجًا بمشيئته الخاصة.

- ما قُلتَه عن لوحتي، كان لطفًا بالغًا منك.

ما الذي يُفترض بي قوله؟ إنني لا أعرفُ من أين خرجَت الكلمات؟

- سرني سماعه، بالنظر إلى أنني أعاني مشقةً في الرسم مؤخرًا. أشكركَ على التشجيع.

- على الرحب والسعة.

ربما سمعتُ صوتَ طنين آخر، شيئًا على تردد مختلِف عن هدير حركة السير على الطريق السريع المجاور. اتكأت لورا على الطاولة، وراحت كتفاها ترتفعان مثل موجتين.

- لكنك عندما وصلتَ، دخلتَ في صلب الموضوع مباشرةً، دون دردشة بسيطة. لم تسلِّم، لم تسألني عن حالي.

قلتُ: «أنا لا أطرح أسئلة كهذه أبدًا»، وشعرتُ بنفسي تسترخي على الفور، فهذا موضوع حديث أسهل، ذلك أنني أعرفُ ما الذي أتكلم عنه.

أومأت لورا برأسها: «حسنًا».

- لستُ في حاجة إلى معرفة أحوال الآخرين. لا أريدُ معرفة ما يفكرون فيه، أو ما فعلوه، أو كيف يختبرون الأمور. لا أريد معرفة ما يخططون له، ولا آمالهم وطموحاتهم. لذا لا أسأل.

- حسنًا.

- إلا في الظروف الشديدة.

- حسنًا.

وجدتُ نفسي في موقفٍ مُحرج. أكانت لورا تبتسم؟ بدَت استجابتها مفاجئة كاستجابتي، إذ لم أخطط لقول ما كنتُ أفكر فيه، إنما حدث ذلك وحسب، وساورني شعور متنامٍ بالضيق. كانت التضاربات المحاسبيَّة والمالية صاحبة الأولوية في ذهني، وكان سبر أغوارها أولى أولوياتي. لا هذا الصنف من... من ماذا بالضبط؟ لم أعرف، لا بصورة محددة ولا عامة ولا مبهمة حتى. ولمَ ما زلتُ واقفًا هناك؟ وما زلتُ أنظرُ في عينَي لورا؟ أوشكتُ ثانيةً على قول شيءٍ لم أنتوِ قوله جهارًا وقتما بوَّق الخلاصُ من خلفي.

صاح كريستيان من رصيف التحميل ملوحًا بيده: «هيه، هاري، ثمة شابان هنا يقولان إنهما جاءا لرؤيتك. هما في مكتبك. قالا إنهما يعرفانك ويعرفان أين تجلس».

فمشيتُ خطوة ناحية كريستيان ثم استدرتُ لأنظر إلى لورا.

- لا أحد يناديني بهاري، لا أحب ذلك.

قالت لورا هيلانتو: «حسنًا»، ثم أردفَت: «إنه هنري إذن».

وبلى، كانت تبتسم.

9

كان الانطباع الأول أن هذين الرجلين زوجان غريبان حد أنهما لا بد يمثلان جماعتين مستقلتين منفردتين.

أكبرُهما في عمري تقريبًا، يلبس قميصًا أزرق وسترة سوداء وسروالًا جينزيًّا فاتحًا، وينتعلُ زوجين بُنيَين من أحذية البحارة. بدا أنه يعرف هويتي حالما دخلتُ الغرفة، أو -بدرجة أعلى من الدقة- بدا كأنه يعرفني من قبل أن أصل بكثير.

قال: «إنني آسفٌ على أخيك. لقد كان رجلًا شائقًا».

كان وجهه مُدوَّرًا وبشرته مُجدَّرة، وله عينان زرقاوان وصغيرتان. وشعره القصير الخفيف المقصوص بعناية مُسرَّحٌ في قِسمة يسارية الجانب. وذو بنيةٍ مُعتدلة، بصرف النظر عن نصف كرة القدم الناتئ من معدته. تصافحنا مصافحةً وجيزة وروتينية، وصرحتُ عن اسمي، رغم أنه يعرفه سابقًا، وتوقعتُ أن أسمع اسمه. لكنه بدلًا عن ذلك قال: «فلنُجرِ محادثة صغيرة»، ولَم يزِد.

ألقيتُ نظرةً ناحية الرجل الثاني، المتكئ على الحائط في الطرف الآخر من الغرفة: شاب أصلع أكتَف، يطحنُ ما بين فكيه علكة، ويرتدي بذلة رياضية سوداء من طراز أديداس ذات مقاس كبير جدًّا، ويحمل هاتفًا ذكيًّا ضخمًا في يده اليمنى، وزوجين من سماعات الأذن البيضاء متعلقَين فوق أذنيه. خلَّف عندي انطباع مراهقة حمقاء عملاقة متحوِّرة.

- ما الأمر؟

أغلق الرجلُ الأكبر باب المكتب كما لو أنه في بيته، ثم أشار لي بالقعود في كرسيَّ الخاص خلف طاولتي الخاصة وسحب كرسيًّا من طاولة المؤتمرات لنفسه. التففتُ حول الطاولة إلى مكاني وقعدت. وقف المتحوِّر في الزاوية كتمثال، وسماعتا الأذن مثبتتان بإحكام فوق أذنيه.

قال الرجلُ حالما قعَد: «سمعتُ أنك عالم بالرياضيات».

- أنا أكتواريٌّ. وما شُغلك هنا اليوم؟

رمقني الرجلُ لوهلةٍ قبل أن يجيب: «إنه شغل أخيك في الحقيقة، الذي، بطبيعة الحال، صار شغلك الآن».

قلتُ في نفسي: *بالطبع*. انحنيتُ إلى الأمام، وأمسكتُ كومة الفواتير غير المدفوعة ووضعتها على المكتب أمامي. سألته: «أي شركةٍ تمثل؟».

انفتحَت عينا الرجل الصغيرتان الزرقاوان ببطء وانغلقتا. لم أُرِد التفكير في عظاءة، لكنني فعلت. زاحف. إغوانة.

وقال: «عندما تُوفي يوهاني، كان دينُه مئتَي ألف يورو، والآن صار مئتين وعشرين ألفًا. أتعرفُ لمَ؟».

- عن أي دين تتحدث؟

فكرر سؤاله: «أتعرفُ لمَ؟».

- عليَّ أولًا أن أعرف عن أي...

- لأن ثمة فائدة ينبغي دفعها الآن، ومعدل الفائدة عشرة بالمئة.

- عن كم من الوقت؟

- عن الوقتِ الذي مضى منذ ارتحلَ عن عالمنا، أي أخوك.

- أسبوعين وأربعة أيام؟ فائدة قدرها عشرة بالمئة؟ أين وافق على ذلك؟

قال الرجل، باسطًا ذراعيه كأنه يورثني المكتب الذي أمتلكه بالفعل: «هنا، تمامًا في هذه الغرفة. تصافحنا اتفاقًا على ذلك».

- تصافحتما اتفاقًا على ذلك؟ على مئتَي ألف؟

شبك الرجل آنذاك يديه أمامه، وأظهرهما لي وأومأ برأسه بأناة. لقد طال أداؤه الغريب هذا بما فيه الكفاية. فقلت: «هذا سخيف. سأضطر إلى أن أطلب

منك المغادرة. لستُ أعرف من أنت، وتأبى إخباري، ولا تحمل اتفاقيةً أو عقدًا رسميَين. لا عقلانيةِ في ذلك. غادِر لو سمحت».

لم يتحرك الرجل، ولم يكُن المتحوِّر قد تحرك في خلال المحادثة بطولها، ثم أُغمضت عينا الرجل الأكبر الصغيرتان الثاقبتان، وفُتحتا ببطء ثانيةً، وقال: «يمكنني زيادة معدل الفائدة، إذا لزم الأمر».

هززتُ رأسي: «تأتي إلى هنا وتطالبني بمئتَي ألف يورو...».

فصوَّب كلامي: «مئتين وعشرين ألفًا».

- وبالنسبة لمعدل الفائدة ذاك؛ عشرة بالمئة في أسبوعين وأربعة أيام. يقترب ذلك من ستمئة بالمئة في العام.

- أأجريتَ تلك العملية الحسابية في ذهنك للتو؟

- بالطبع. إنها حسبة سهلة بالحد الكافي:

$$\boxed{\left(\frac{220000}{200000}\right)^{365/18} \times 100\% - 100\% = 590.799\%}$$

قال الرجل: «رائع».

- ما هو؟

- لقد أجريتَ تلك الحسبة بسرعة فائقة. لم أكُن لأتمكن من إخبارك بأي شيء عن معدل الفائدة السنوي.

- حسبتُها كي ترى أي هراء تقولُه. عندما تحاول الاحتيال على شخص ما في المرة القادمة، حاول على الأقل جعل الأرقام تبدو مُقنعة.

- مقنعة؟

- مثلما كاد فيرتيمير يخدع آينشتاين نفسه، على سبيل المثال، إذ طرح عليه فيرتيمير اللغز التالي: تسير سيارة قديمة كيلومترين، في الأول تصعد تلةً وفي الثاني تهبطها. ولأن السيارة قديمة، لا يمكنها اجتياز الكيلومتر الأول بسرعة يتجاوز معدلها خمسة عشر كيلومترًا في الساعة. السؤال هو: ما هي السرعة التي ينبغي لتلك الخردة العتيقة

بلوغها في الكيلومتر الثاني -وهو نزول حيث يمكنها السيرُ أسرع- كي تكون السرعة الوسطية للرحلة كاملةً ثلاثين كيلومترًا في الساعة؟

زمَّ الرجل شفتيه بضع مرات، ثم خلص إلى استنتاج: «سهلة. كيلومتران، أولهما بسرعة خمسة عشر كم/س، فيجب أن يكون الثاني خمسة وأربعين. لأن خمسة وأربعين مضافة إلى خمسة عشر تساوي ستينًا، وستون مقسومة على اثنين تساوي ثلاثين. إذن خمسة وأربعون في النزول، وها قد فعلتُها».

- هذا ما قد يظنه المرء، لكنه سؤال مخادع، فالإجابة الصحيحة هي: مُحال، حتى لو انطلقت السيارة نزولًا مثل مكوك فضائي.

لم يقُل الرجل شيئًا.

- بسرعة خمسة عشر كيلومترًا في الساعة، تحتاج السيارة القديمة إلى أربع دقائق لتبلغ أعلى التلة، وهي رحلة من كيلومترٍ واحد. لكن كم من الوقت تستغرق لتصعد التلة وتهبط بسرعة متوسطها ثلاثون كيلومترًا في الساعة؟ المسافة الكلية للرحلة صعودًا ونزولًا كيلومترين، وبالتالي، لا تحتاج السيارة إلا إلى أربع دقائق لتقطع الرحلة بأكملها بالسرعة القصوى، لكن هذه الدقائق قد استُهلكت بالفعل في صعودها التلة.

ومرة أخرى، عينا الإغوانة تانك. انخفض الجفن، ثم ارتفع ثانيةً.

- لم يدرك آينشتاين ذلك إلا حالما بدأ ينظر إلى المسألة بتفصيل أكبر. لكن ليس الكل آينشتاين، ولا حتى أنت، بلا إساءة. كل ما أقوله هو أن عليك النظرُ من مسافة أقرب بعض الشيء إلى الأمور، مثل فيرتيمير.

- وماذا عنك؟

- ماذا عني؟

- هل انطلَت عليك؟

أجبتُ بأمانة: «في بادئ الأمر، لكن لأنني أحسبُ كل شيء برويَّة وأفكر بمنهجيَّة بكل ما أفعله، لاحظتُ على الفور تقريبًا ما كان يجري. لا يمكنك خداعي. لا أتركُ للصدفة ما لا ينبغي تركه لها. إنني أؤمن بحساب الاحتمالات».

- يبدو ذلك واعدًا.

سألته: «من أي منحى؟»، من دون أن أعرف حقًّا لمَ، إذ كنتُ أريدُ أن يغادر الرجلان وحسب.

قال وأدار رأسه: «تمهيدًا لفهم وضعنا هنا، فلنُضِف مستوًى آخر من الفهم، ما رأيك؟ أيه كيه».

كانت الكلمة المربكة الأخيرة على ما يبدو موجهة إلى المتحوِّر، لكنه لم يتحرك البتة، ربما كانت سماعته تبث شيئًا أكثر إمتاعًا.

- أيه كيه!

أجفل المتحوِّر وأخرج السماعة من أذنه اليمنى، وأمكنني سماعُ صوت خبطٍ منخفض النَّغَم، ثم نظر، وقد أدركتُ أنه استجاب لأحرف اسمه الأولى: (أ. ك) إلى الرجل الأكبر سنًا باهتمام متجدد.

وقال الرجل الأكبر: «لو تكرَّمتَ يا أيه كيه».

حدث كل شيء بعد هذا الإيعاز الوجيز بسرعة فائقة: أعاد أيه كيه السماعتين إلى أذنيه، وأزلق هاتفه في جيب بذلته الرياضية، وخطا بضع خطوات خفيفة أوصلته، بسرعة ورشاقة مفاجئتين، إلى جواري خلف مكتبي، وفي سلسلة الحركات نفسها، قبض على يدي اليمنى كأنها جزء من جسده.

انتُزعتُ من كرسيَّ وصرتُ تحت ذراع أيه كيه. التقطَ أنفي الرائحة الغليظة للكولونيا ومزيل العرق، وشعرتُ بالألم كأنه انفجارٌ تموجُ موجاتُ ضغطه عبر جسدي. ثنى أيه كيه خنصري إلى الأعلى، فأمسكتُ يديه بيدي الحرة محاولًا انتزاعهما عن الأسيرة، وكان ذلك كمحاولة وقف سدٍّ منفجرٍ بيدين عزلاوين. ثنى أيه كيه ثانية، فشلَّني الألم وعجزتُ عن التنفس.

- حسنًا يا آينشتاين، أو أيًّا كان رفيقه اللعين. أيه كيه هذا قادر على اقتلاع إصبعكَ من مكانها. لقد رأيته يفعلها، ينترُها منتزعًا إياها وحسب، بحركة واحدة. إنه لأمر مدهش، وأحب الصوت الذي يحدثه، كصوتِ تمزيق فخذٍ من دجاجة مشوية. صوتٌ لَحِيمٌ طريٌّ، إلا أنه أعلى بكثيرٍ كثير. لستُ أعرفُ ما إن كان هذا ما سيحدث الآن، إذ لا يمكنه سماعي. أيمكنك أنت يا هنري؟

أومأت برأسي مرتين: «جيد».

ثنى أيه كيه مرة أخرى.

- يبدو أن كل هذا قد باغتَك بعض الشيء. كما ترى، كان أخوك يوهاني محبًّا للبوكر. أحبها كثيرًا، فديَّنَّاه المال ليستمر باللعب، وكان كل شيء يجري على خير ما يرام. استمر باللعب، فديَّنَّاه المزيد من المال، ثم دفع ديونه، ثم استدان المزيد، وما المشكلة؟ كنا جميعًا سعداء وراضين. ثم توقف فجأةً عن الدفع، لكنه واصل اللعب، فلم نعُد سعداء وراضين، أتفهمني؟

أومأتُ مرتين، وهذه المرة بتعاقبٍ أسرع بكثير. لوَّح الرجل الأكبر بيده كحكمِ كرة قدمٍ يُلغي هدفًا، فتركني أيه كيه، وكانت النار تضطرمُ في يدي، ثم رجع إلى مكانه بجوار الحائط، كما لو أنه لم يغادره قط. تحسستُ يمناي بيسراي، ولم أتبيَّن ما إن كان ثمة كسر.

قال الرجل: «يبدو أن إصبعك ما تزال متصلة»، ثم وقف قليلًا، «مئتان وعشرون ألف يورو».

- لا أملك...

- بلى تملك، وأعرفُ أنك تملك. سجل المصروفات النثرية في حالة جيدة.

سمعت تلك الكلمات الأخيرة مرتين، أولًا عندما نطقها، ثم عندما رددتها في قرارتي. كان يعرف.

تابع كلامه: «في حال كنتَ تفكر في الاتصال بالشرطة، فكِّر مليًّا. ففي أسوأ الاحتمالات، سيُغلق متنزه التسلية وستبقى مدينًا لنا بالمال. كيف ستدفع ديونك آنذاك؟».

سكت الرجل قليلًا، لبضع ثوان، ثم ظهرت العظاءة ثانية، وواصل حديثه: «لكن ثمة جانب إيجابي في لجة كل هذا، إذ إننا مستعدون لتمديد جدول السداد. سيستحق الدين فائدة أكبر بطبيعة الحال، لكن الأهم هو دفع عجلة الأمور، إذا صح التعبير. متنزه التسلية يعمل بكياسة و...».

كان الألم يخفق على طول إصبعي، وتوصلتُ إلى قرار. فقلت: «لا»، ثم أردفتُ: «هذا متنزه مغامرات».

- ماذا؟

- هذا متنزه مغامرات، لا متنزه تسلية.

شرحتُ له الفرق كما شرحتُه للمحامي: متنزه التسلية يقذف الناس في الأجواء، لكن في متنزه المغامرات يقذف الناس أنفسهم في الأجواء، إلى آخره. وأضفتُ أنه رغم أن كلا المتنزهين قد يقدم أماكن مثل قلعة الوثب، ما يزال الفرق مهمًّا وتجب الإشارة إليه على الوجه الصحيح، فصمت الرجل لوهلة.

- لا؟

أومأتُ برأسي: «هذا صحيح. لستُ مسؤولًا عن ديون أخي، ولستُ أفهم كيف يمكن أن أكون كذلك. لن أدفع».

وللمرة الأولى، أظهر الرجل بارقة انزعاج. وقال: «كان ممكنًا لأيه كيه أن يمزق إصبعك عن أصلها، لكنني منعتُه. لقد أسديتُك خدمة».

رفعتُ نظري إلى أيه كيه، ولم يكن ينصت إلينا.

- غادِر الآن من فضلك.

عادَت العظاءة إلى الظهور، وظلت هذه المرة في عينَي الرجل، ثم أدار رأسه على مهل ناحية أيه كيه وكان موشكًا على قول شيء ما وقتما سُمع طرقٌ على الباب، فقلتُ: «ادخل» قبل أن يتسنى لأيهما فتح فمه، وبعد ثانية صارت لورا في الغرفة.

- نحتاج إلى الحديث عن صيانة الشاحنات السلاحف...

توقفت لورا، وتحركت عيناها عني إلى الرجل الأكبر سنًا، ثم إلى أيه كيه، ثم عادتا إليَّ. وراحت تقول: «أعتذر، لم أدرك...»، لكنها لم تُكمل، وبان لي من سحنائها أنها قد دخلت على شيء غير متوقعٍ أبدًا. انتقلَت تحديقتها من الرجلين إليَّ، ثم إلى وسط الغرفة.

قال الرجل الأكبر: «وأنا لم أدرك كذلك»، وقد صار أقرب إلى الزواحف من البشر، «لكن إن كان لأيه كيه هناك أن يوسِّع نشاطاته، إذا جاز القول، فلربما ندرك جميعنا شيئًا ما، صحيح؟».

نقل الرجلُ الأكبر نظرته العظائيَّة مني إلى لورا، ففكرتُ في نفسي فوريًّا وعفويًّا أنْ لا. لا لا لا. أوشكتُ على قول: يمكنكَ أن تكسر كل عظمة في جسمي وسأبقى آبيًا الدفع، لكن المَس لورا و...

سمعتُ في تلك اللحظة صوت طقطقة كعبٍ عالٍ على الأرضية المصفحة، ثم قالت مينتو كيه وهي تدخل المكتب بخطًى واسعة: «أيمكننا التحدث سريعًا فيما يخص ميزانية التسويق عزيزي؟».

ثم توقفت أيضًا، وصرنا خمسة في الغرفة الصغيرة.

ولبرهة، ربما تبلغ عشر ثوانٍ واجفة، كان المكتبُ مثل متحف الشمع حيث تقف دُمًى واقعية لأناس أحياءٍ جامدة في مكانها. ثم أدَّت الأرقام والحقائق عملها. كنا ثلاثة هناك، حتى أيه كيه لن يقدر على قصم أصابعنا الثلاثين كلها قبل أن ينحدر الوضع إلى الفوضى.

ودبَّت الحياة في دُمى الشمع. قام الرجل الأكبر سنًّا عن كرسيه، واقتربَت لورا أكثر من طاولتي، ونظرَت مينتو كيه بفضول إلى الرجلين، ولا سيما أيه كيه، ثم عدَّلت وقفتها وشدَّت حاشية سترتها القصيرة أكثر مما يجب إلى الأسفل. تحرك أيه كيه لاحقًا بالرجل الأكبر سنًّا ناحية الباب، وحالما بلغاه، توقف الرجل الأكبر، وتوقف أيه كيه كذلك.

خطَت لورا نصف خطوة مقتربة إلى طاولتي، ولم أعرف لمَ بدا أن ملاحظتي ذلك أدفأت قلبي كثيرًا في خضم كل الاضطراب. ثم استدار الرجل الأكبر، ولاحظ أيه كيه أمامه، فتجاوزه وتكلم بأكثر ما استخدمه وديَّةً من الأصوات حتى الآن.

قالت الإغوانة: «شكرًا ثانيةً يا هنري. إننا نحب متنزهات التسلية. وسنرجعُ مرة أخرى بكل تأكيد».

ولم يقل أيه كيه شيئًا.

10

قضيتُ الأيام الثلاثة التالية -الخميس والجمعة والسبت- برمتها تقريبًا في متنزه المغامرات. كنتُ أستيقظ في الصباحات على الوكزة الرقيقة لكفَّي شوبنهاور، إذ يجثم مُخرخرًا بجوار وجهي وينخسني تحت أنفي، فأفيقُ وأطعمه بعض الطعام. يحدث هذا دائمًا بين الخامسة إلى الخامسة والربع صباحًا، ثم أحلق ذقني، وأفطر، وأربطُ ربطة عنقي وأتجه إلى المتنزه.

كنتُ في البداية أستقل القطار المكوكي، ثم تحولتُ إلى الحافلة. كانت الرحلة تستغرق سبعًا وأربعين دقيقة وسطيًّا، أحتاج فيها إلى تذكرة لمنطقتين، وكنتُ أستغل الرحلة لأحسب كل شيء. حسنًا، ليس كل شيء تمامًا، ذلك أنني لم آخذ ديون قمار يوهاني المزعومة في الحسبان، إذ أخذت المسألة، زيارة الرجلين وادعاءاتهما ومطالبهما، تزداد سخفًا مع كل يوم ينقضي. كان خنصري متورمًا وما يزال يؤلمني عند لمسه، ما ذكَّرني بأن كل هذا قد حدث فعلًا، لكن فيما عدا ذلك...

ما قلتُه كان ما أفكر فيه بالضبط. حتى إن لعب يوهاني البوكر أكثر مما يمكنه تحمُّل كلفته، فذلك ليس من شأني، باستثناء حقيقة أنه قد ترك متنزه المغامرات في مأزق مالي نوعًا ما. كان جائزًا كل الجواز أن يوهاني أمعنَ في المقامرة، وفي الواقع، فإن للأمر أرجحية عالية، بالنظر إلى كل ما تكشَّف من معلومات. ذلك أن المقاربة التصورية وغير الواقعية لقوانين الاحتمالات تحمل الناس على تجريب حظهم في مواقف لا علاقة لها بالحظ، سواء أكانت علاقاتٍ شخصية أو كسب مال سريع. لهذا السبب، لم أقامر بأي طريقة أو شكل أو

صيغة. الأمر في نظري يشبه السباحة في مسبحٍ نصفه أسماك القرش، فرغم أن الأسماك لا تحتل إلا نصف المسبح، يظل مسبحها.



حالما غادر الرجل ذو العينين الزاحفيَّتين ومساعده الضخم بعض الشيء الذي لم يستجِب إلا لاسم أيه كيه المكتبَ، طلبتُ من لورا هيلانتو أن تُريني كيف يعمل كل شيء، وسألتني: «كل شيء؟»، فأجبتها بنعم، أريدُ أن أعرف كيف يدور متنزهي، ما الذي يجري وأين يجري، أريدُ إتقان كل جوانب الأمر. لم أخبرها أني لا خيار أمامي في المسألة، ولم أقدم أي تفسيراتٍ لهذا أو لما حدث للتو، ولم أخبرها بالحالة المالية الكارثية للمتنزه أو بمشكلات قمار يوهاني المزعومة.

كانت بضعة الأيام التالية مكتظة. تعلمتُ كيف أفعل كل شيء في المتنزه. بمفك براغي في يدي، أحكمتُ شدَّ الهياكل أسفل الزلاقات. ألفتُ أكثر نواحي عملية تنظيف المتنزه حرجًا، وجلستُ مع مينتو كيه -وكانت رائحة الكحول، ولا سيما جِن لونكيرو، في أوقات الظهيرة طاغية- واستعرضنا ميزانية التسويق، وفاوضتُ يوهانا صاحبة الوجه المتحجر حول خفض ميزانية الاقتناء خاصة المقهى (كانت الإجابة لا)، وحاولتُ مخالبة إيسا لأُبعده عن شاشاته وأوسِّع توصيفه الوظيفي ليتضمن تفاعلًا مباشرًا مع الزبائن (وعلى ما يبدو لم يكُن ذلك ممكنًا إذا ما أردنا ضمان الأمان الأقصى للزبائن في كل الأوقات)، وتساءَلت متى قد تأتي فينلا إلى العمل (ما زلتُ لم أقابلها حقيقةً)، وبالطبع، كنت في أثناء كل ذلك أحاول تفادي كريستيان، الذي استغل كل فرصة تسنح ليهمس بمختلِف الأفكار حول الإدارة العامة واستراتيجية نقلها، بالإضافة إلى السؤال متى يمكنه إفشاء الخبر للآخرين.

وفي صباح الأحد، استقللتُ القطار مرة أخرى. كانت الشمس آخذة بالطلوع، والشوارع والحقول والمتنزهات ومسارات الدراجات خالية، كأنها تستريح أيضًا. مع تدرُّج الخريف، بدا أن ذهبيَّ الأشجار وقرمزيها قد فقدا جزءًا من رونقهما السابق، لكن عند كل محطة، ومع ارتفاع الشمس المتمهل،

كان وهجهما يزداد كثافة، وعندما وصلتُ إلى فينتا خرجتُ من الحافلة إلى محيطٍ من الألوان.

وفقًا للورا هيلانتو، كانت أيام الأحد بجودة أيام السبت من ناحية عدد الزوار. قلتُ لنفسي إن يوم الأحد ذاك سيكون آخر أيامي بصفتي متدربًا في متنزه المغامرات وإن بضعة الأيام الأخيرة يمكن اعتبارها أسبوع تقليدي المنصب. وعندما يبدأ الأسبوع الجديد الحافل، سأكون مستعدًّا. مستعدًّا لتعريف الطاقم على لائحة تغييراتي، على أساليب عملنا الجديدة، ولا سيما على الميزانيات الجديدة لكل قسم.

لاحظتُ أنني كنتُ أبتسم. سألتني لورا هيلانتو عندما التقينا في الظهيرة: «أأنتَ بخير؟».

- ما قصدك؟

- يبدو عليكَ بعض الـ... لا أقصد الإساءة، لكنك تبدو متوعكًا بعض الشيء. أنت مختلِف بطريقة ما.

أدركتُ أن سوء الفهم هذا سببه على الأرجح مُحيَّاي، فكففتُ عن الابتسام ولم تطرح لورا أي سؤال ثانٍ. أوضحَت لي أن الأرنب العملاق، الذي يقفُ مستقبِلًا كل الواصلين يعاني أُذنًا متقلقلةً مُرفرفة، وفي تلك اللحظة، استدارت وأشارت إلى الأرنب.

أردفَتْ، وقد صارَت تبتسم أيضًا: «لا يُفترضُ بأذنيه أن تضربا جيئةً وذهابًا»، ولم أكُن واثقًا إن كانت الابتسامة موجهةً لي أم للأرنب.

- سأصلحها بنفسي. (قلتُ ذلك لأني أعرفُ أن كريستيان حاليًّا على طاولة البيع عند المدخل، يغطي غياب فينلا، ثانيةً. ثم تذكرتُ الأمور المُلحَّة الأخرى في جدول أعمال اليوم وأضفتُ) حالما نغلق أبوابنا اليوم.

نظرَت لورا إليَّ مرة أخرى، وكنتُ قد لاحظتُ أنني أحببتُ عينيها. ثمة شيء ما في بريقهما، في فضوليتهما، شيء جعلني حتى أنا أفهم أنه من الممكن النظر إلى أشياء معينة والشعور بالبهجة والإثارة. ذلك مُحتمل. ولاحظتُ أنني أحببتُ شعرها الطائش أيضًا. كانت كثاثته ظريفة وجذابة في آنٍ معًا، لكنني

لم أرغب بإطالة لقائنا، فقد أمضَت لورا الأسبوع تسأل أسئلة محرجة حول زيارة الرجلين وسبب رغبتي بإيلاء اهتمام أكبر لسجل المصروفات النثرية وكل المعاملات المالية الأخرى.

سألتني: «أيمكنني المغادرة مبكرًا قليلًا اليوم؟».

أخذني السؤال على حين غرة، ثم أدركتُ أنني، وبطبيعة الحال، قد صرتُ الشخص المسؤول عن اتخاذ قرارات كهذه.

- إن كان كل شيء منظمًا.

ألقَت لورا نظرة سريعة إلى جانبها.

- أظن أن كل شيء منظم.

هل تغيرَت نغمة صوتها؟ تابعَت: «وبالطبع، سأجوبُ المتنزه مرة إضافية، وأخبر الآخرين بأني مغادِرة، وسأذكِّر الناس بألا يبقوا ساعاتٍ إضافية عن غير قصد».

قلتُ في نفسي: *ممتاز*. ذلك أن أجور الساعات الإضافية ليوم الأحد قضية سامَّةٌ لشؤون المتنزه المالية وربما تخلُّ بتوازننا المالي الوليد. إن أمكننا نسيانُ أمر ساعات الأحد الإضافية سيكون أفضل بكثير. وإن لم تتم بعض المهام، فيمكن إتمامها يوم الاثنين، أهدأ أيام الأسبوع.

- لا بأس في ذلك، يمكنني إغلاق الأبواب.

نظرة أخرى سريعة إلى الجانب.

- إذن أيمكنني إخبار الجميع أن بمقدورهم المغادرة حالما ينتهون؟

- لا بأس في ذلك أيضًا. يمكنني إلصاق أذن الأرنب وحدي.

نظرَت لورا هيلانتو إليَّ أولًا، ثم إلى الأرنب: «قد يكون أرنبًا مُتقلِّبًا للغاية، حذارِ».

الآن

1

بدَت أذن الأرنب الألماني الضخمة كأنها تنمو من جبهة الرجل الميت مباشرةً.

تدبرتُ رفعَ عينيَّ والالتفاف في مكاني. ساقاي ترتعشان، وقلبي يقصفُ كأنه كاسحة جليد تشق طريقها في البحر المتجمد. كنتُ واقفًا في وسط متنزه المغامرات، في المنطقة الواقعة بين قطار الكومودو ومدافع الترومبون، الأرنب العملاق خلفي، ورجلٌ ميتٌ تحتي، وأنزف. تارةً يمكنني استيعاب كل هذا، وتارةً يهدد بأن يندفع خارجًا عن سيطرتي، ويستحيل هلعًا ورعبًا. غريزيًّا، أعرفُ أن أكثر ما يمكنني فعله حصافةً هو الثبات، محاولة الوقوف في مكاني والانتظار.

ويمرُّ الوقتُ بطيئًا. أمكنني الشعور بالثواني تتكُّ داخلي، كشخصٍ يكتم أنفاسي أكثر فأكثر، ثم بدأتُ بالتدريج أشعرُ بالأشياء خارج جسدي ثانيةً. روائح متنزه المغامرات، والحلاوة النفَّاذة المنسَّمة من المقهى، ومواد المبنى من حولي: القشرة الخشبية والمعدن والبلاستيك، ثم اللمبات الصغيرة ساطعة الألوان، والجمود المحض، والصمت. أخذ تنفُّسي يستقر بأناة، وأخذت أشعر بملابسي المنتقعة عرقًا تبرُد وتلتصق بجسدي. كتفي اليسرى تنبض، والدماء تسيلُ في قميص المتنزه خاصتي وتقطر عبر قماشته. حمض اللاكتيك يتلاشى تدريجيًّا من أطرافي، ويمكنني الشعور بعودة الإحساس والحركية

إلى فخذيَّ وربلتيَّ. أدركتُ أنني لا بد في حالة صدمة، في حالة ما بعد اندفاع الأدرينالين، وربما لستُ أنا تمامًا. لكن إلى حد ما، أنا أنا.

لذا، رحتُ أحسب. منذ ثلاثة أيام، زارني رجلان، واحد منهما ثنى أصابعي، والثاني طالب بمال. رفضتُ الدفع، وقالا إنهما سيرجعان. ليست معادلة معقدة جدًّا، بصرف النظر عن الحقيقة التي لا يمكن دحضها القائلة إن الرجل المُمدد على الأرض ليس أيًّا من الرجلين اللذين زاراني. ومع ذلك، لستُ في حاجة إلى معرفة هويته لأعرف أنه يمثل المنظمة نفسها. لا يبدو أن هذه المنظمة تعمل بالطريقة التي تعمل بها البنوك عادةً، ورغم أنه من عادة البنوك جعل خدمة زبائنهم أسوأ بصورة مستمرة ومنتظمة، لم يبلغوا بعد حد إرسال رُماةِ سكاكين يطاردون مَدينيهم في جُنح الليل. ما يزال بإمكاني سماع صرخات الرجل كأن الردهة ما تزال تُرجِّع صداها.

«هذا تحذيرُكَ الأخير».

إن كانت السكين التي أُنشِبَت في كتفي تحذيري الأخير، فما ستكون الخطوة التالية؟ مرة ثانية، إنها حسبة بسيطة، وتخبرني أيضًا بهوية -أو بالأحرى ماهية- ما أتعامل معه.

كان يوهاني مدينًا لزمرة من المجرمين. إما يحصلون على مالهم وإما... بدأتُ أعي كلًّا من الحجم والطبيعة الحقيقية لمشكلتي.

لبضع ثوانٍ فقط، لبضع رَمشات عَين، أوشكتُ على الاتصال بالشرطة، بسيارة إسعاف. لكن إن فعلتُ ذلك، فما سيحدث تاليًا؟ سلسلة الأحداث واضحة: سيُغلق المتنزه إلى أجلٍ غير مسمى، وتضيعُ سمعته، وينهار ماليًّا إلى الأبد، وسأظل مدينًا للمحتالين من دون متنزه يعينني في إيفاء ذلك الدين، الذي يكدِّس فوائد مع كل يوم ينقضي. إن بعتُ شقتي ذات غرفة النوم الواحدة، فقد أتمكن من النجاة لفترة وجيزة، لكن سأصير آنذاك في حالٍ أسوأ بعد: بلا بيتٍ ولا متنزه ولا فِلس، وما سيفعله أولئك الرجال بشخص كهذا؟

لا، قطعًا لا. لا بد أن الحل في مكان آخر. وما الذي كنتُ أفكر فيه منذ وهلةٍ فقط؟ كيف أني سئمتُ أشدَّ السأم من إلقائي مرارًا -وظلمًا- في مواقف لستُ مسؤولًا عنها بأي شكل، سئمتُ من زجِّي في مزيج من الخداع والتآمر والكذب، والآن الجريمة.

لكن الأهم فالمهم... أحتاجُ إلى بعض المساحة، وإلى بعض الوقت للتفكير. أحتاج إلى بعض الوقت لأخطَّ خطة وأُجري الحسابات اللازمة وأرى الأشياء بوضوح أكثر، لأعرف أفضل طريقة للمواصلة. أحتاج إلى... هذا صحيح.

دُرتُ في مكاني ثانيةً بخطوات بدئية مترددة وساقين ما تزالان متخشبتين إجهادًا، ثم عادتا إلى العمل من جديد بينما مشيتُ ناحية الأبواب وأرسلتُ نظري خارجًا. رأيت مرأب السيارات أشبه بسطح القمر، باردًا وجامدًا وخلوًا من الناس. ربما لم أنجُ إلا من الاختبار الأول. عدتُ إلى الردهة، ومشيتُ ناحية الرجل وركعتُ أمامه. نظرتُ إلى مكان آخر، إذ لا يروق لي فعلها مثقال ذرة، لكنني ربَّتُّ جيبيه، وانتابني شعور من أبغض ما يكون. ما يزال الرجل فاترًا، يبرد تدريجيًّا، وجسده أعرضُ على نحو غريب مما قد يتوقعه المرء، والجيبان ذوا السحَّابتين في معطفه بعيدان عن بعضهما بعضًا، مثل كيسين صغيرين من أغراض متجانسة مرميين في جانبين مختلفين من المتنزه. وجدتُ أخيرًا ما أبحث عنه. مفاتيح سيارة.

هذا هو القسم الآخر من الأنباء الجيدة: إن كان ثمة مجموعة مفاتيح سيارة في جيبه، فأغلبُ الظن أنه لا بد قد جاء منفردًا. يجب أن أعترف أن هذا الاستنتاج ليس مبنيًّا على الاحتمال المنطقي الصارم، بل على ما يسمى بالشعور الغريزي، وهو شيء -باعتباري رياضيًّا يأخذ التحليل الإحصائي بجدية- لا يمكنني القول إنه يراودني كثيرًا. لكن هذا ظرف استثنائي، ولا يوجد من الأدلة المرئية ما يقترب من الكفاية لبلوغ استنتاج أكثر تعمقًا. لستُ واثقًا بأيٍّ من الأمرين أحاول إقناع نفسي أكثر: ما عليَّ فعله تاليًا أم حقيقة أنني قدرتُ ببالغ السهولة على نبذ معادلات الاحتمالات الجادة للمرة الألف في الأسبوع نفسه.

وقفتُ، والمفاتيح في يدي، فحشرتُها في جيبي، وأنصتُّ لوهلة إضافية من باب الاحتياط فقط -لا شيء حولي إلا متنزه المغامرات الفاغر الخاوي وقطار الكومودو المركون في الليل أمامي- وبدأتُ المشي ناحية ما يسميه طاقم المتنزه بالورشة.

عندما وجدتُ ما أبحث عنه، عدتُ إلى الأرنب، ثم وضعتُ العدة على الأرض وحاولتُ تحضير نفسي لشيء لم أكن لأتخيل فعله قط، إذ لا يمكن إلا لقلة قليلة من الناس تصوره، وليس المرء في حاجة إلى مُحللٍ ليخبره ذلك.

وأعني: أن قول إزالة الأذن من رأس الرجل أسهل من فعلها. كانت الأجزاء المعدنية داخل الأذن قد تحركت، والشبكة الفولاذية قد بدأت بالتكشُّف، وانقصمَت خيوط منفردة ونتأت من الأذن مثل شعراتٍ حرون عازمة. رحتُ أجذب الشعرات المعدنية المنفردة بلطفٍ من رأسه حتى تحررت الأذن في آخر المطاف وصرتُ ممسكًا إياها بيدي ثانيةً. وضعتها على الأرض والتقطتُ بكرة الأغلفة البلاستيكية، ثم وضعتُ البكرة على أحد جانبَي الرجل وخطوتُ متراجعًا، باسطًا البكرة بينما أتحرك. حالما سحبتها بضعة أمتار رجوعًا، عدتُ إلى الرجل ودحرجته فوق البلاستيك، ثم قبضتُ على البلاستيك بشدة ولففتُ الرجل مرة وثانية وثالثة. لففته بالبلاستيك حتى أجبرني ألم كتفي على التوقف، وقد صار ملفوفًا بالقدر الكافي، فأوثقتُ البلاستيك بدبَّاسة. بات الطرد مُحكمًا -وكما كانت نيتي الأصلية- قابلًا للنقل.

كانت العجلة اليدوية مسنودة إلى جوار باب رصيف التحميل. تدبرتُ رفع الطردِ قُطريًّا عليها وبدأتُ أجرُّ الحمولة ناحية مقهى كيرلي كيك. لا يمكنني سحب العربة إلا بيدٍ واحدة، ما يعني انحنائي إلى الأمام وإجهادي نفسي مع كل خطوة، ولا حاجة للقول إن هذه ليست خطة مُرضيةً تمامًا، ناهيك بالقول مثالية، لكن الأهم هو أنني إذا ما نجحت، أفوز.

البارحة تمامًا، حاولتُ أن أقترح على يوهانا إبقاء كمية أقل من فائض المخزون في المقهى، والآن، أفكر في قرارتي: *الحمد لله أنها رفضت رفضًا قاطعًا.*

رحت أجر العربة وحمولتها عبر المقهى. كانت يوهانا قد تركَت الإضاءة الاحتياطية مضاءة، وتدلت فوق طاولة البيع لائحة الأسعار وصور أطباق المقهى المختلفة مشعةً في الضوء الشاحب: كرات اللحم الجبارة، والمعكرونة المُضحكة، وكعكات القهقهة بالقرفة، والفطور الصاخب، والأسعار أكثر من معقولة.

وصلتُ إلى المطبخ ودفعتُ نفسي عبر الأبواب المتأرجحة، ثم أخذتُ أترنح عابرًا إياها حتى بلغتُ وجهتي أخيرًا.

ثمة ثلاجتان هائلتان إجمالًا، اخترتُ يسراهما، ثم رفعتُ الغطاء وشرعت بالعمل: أفرغتُ كل محتويات الثلاجة على الأرض وعلى طاولة مجاورة، حريصًا أن أتذكر ترتيبَ توضيب كل شيء، ورغم انجرار فكري أحيانًا إلى قدر الإسراف وانعدام الدقة في أساليب الشراء لدى يوهانا، لم أهدِر وقتًا في التفكير في هذا الآن، ذلك أنني لا أريد للمنتجات أن تذوب، لأن ذوبانها سيكون مشكلًا على عدة مستويات: سيفسد الطعام، ما يسبب هدرًا ويؤدي إلى سؤال أحدهم عن سبب حدوث ذلك. حاولتُ أخذ كلٍّ من الأبعاد البيئية والمتعلقة بعلم الجريمة لما أفعله في الحسبان عبر ترتيب المنتجات في كومات متقنة لأحرص أن يكون ذوبانها في حده الأقل. ووجه الساعة الضخم الأسود والأبيض المعلَّق على الجدار يخبرني بأن الوقت يسير قدُمًا برشاقةٍ تفوق أي وقتٍ في حياتي حتى الآن.

حالما فرغت الثلاجة تمامًا -وقد استغرقت هذه العملية وقتًا أطول مما توقعته لأن كتفي اليسرى تزداد ألمًا في كل دقيقة، ولأن ثمة منتجات في الثلاجة أكثر مما قد يتصور المرء أنها يمكن أن تتسع له أبدًا- بدأتُ الرفع. ثبتُّ مقبضَي العربة في أقصى ارتفاع يمكنني بلوغه، ما رفع رامي السكاكين المغلف بالبلاستيك تقريبًا إلى نصف المسافة تمامًا بين فم الثلاجة والأرضية الخرسانية، وهذا كافٍ. ثنيتُ ركبتيَّ، واتخذتُ وضعية قرفصاء متينة، ووضعتُ يديَّ أسفل الرجل ودفعت.

لم يكُن الأداء خلوًا من العيوب، لكن بعد بعض الطقطقة والأنين، وحركة رفعٍ واحدة جسيمة مُعقَّدة، بات الرجل راقدًا في الثلاجة، واتسعَت له اتساعًا مثاليًّا. حملتُ ألواح البوليستِرين التي وجدتها في الورشة وقصصتها إلى شققٍ بحجمٍ يكفي لتغطية الجثة المُقمَّطة في القاع، ونقد أدى هذا القاع المزدوج عملًا أفضل مما كنتُ أتصور، إذ تناسَبَت ألواح البوليستِرين بإحكام وبدَت مثل قاع الثلاجة تقريبًا، ولا سيما بعد أن رصفتُ طبقة من العجين وأجنحة الدجاج النيئة فوقها.

نظفتُ المطبخ وغادرت. توقفتُ عند الباب المتأرجح، وعدتُ إلى الثلاجة، وفتحتُ قنينةً سعتها نصفُ لترٍ من الجافا الصفراء وابتلعتُ البرتقال الفوَّار بجرعةٍ واحدة. ومن الصندوق الكرتوني على طاولة البيع، أخذتُ لوحَي شوكولاتة مارس وأكلتُ كليهما. ثم نظرتُ إلى الوقت ثانيةً.

كان مسحُ أرضية الردهة عملية سريعة نسبيًّا. أعدتُ عربة اليد إلى المستودع وأخذتُ الأذن معي إلى الورشة. اضطررتُ إلى تفكيكها كلها تقريبًا، ثم إعادة بنائها من الصفر. كان الطلاء ما يزال لزجًا وقتما أعدتُ السلم أخيرًا إلى الردهة وصعدتُ الدرجات وأعدتُ تثبيتها على رأس الأرنب بالغراء وبضعة براغي. هبطتُ السلم بعد ذلك، ورجعتُ بضع خطواتٍ إلى الخلف ونظرت إلى الأرنب. لو لم تكُن كتفي تخفق ألمًا، لو لم تكن أفكاري ترشق هنا وهناك وفي كل مكانٍ، وتعرضُ صورًا مريعةً على دماغي، لو لم أكُن مُنهكًا بكل معنى الكلمة، لربما نظرتُ إلى الحيوان الهائل بأذنيه المستدقتين وفكرت: «لا بأس عليك، وأنت واقفٌ هناك بأسنانك البارزة ذات الخمسة وعشرين سنتيمترًا، كل شيء على ما يرام، كما جرَت العادة تمامًا»، بينما يرد الأرنب الألماني الفنلندي العملاق لي الابتسامة ويهمز بأذنيه الودودتين.

شددتُ قبضتي على مفاتيح السيارة وذكرتُ نفسي بسبب بدئي بفعل هذا في المقام الأول: *بطريقة أو بأخرى، سأنقذ متنزه المغامرات هذا.*

كان الليل في الخارج حالكًا وباردًا، فرفعتُ سحَّاب معطفي، وأحكمتُ قبعة البيبسبول على رأسي، وانتظرتُ وأنصتُّ، ثم انطلقت. بعد نقري زر فتح الأبواب وإغلاقها على حلقة المفاتيح عدة مرات، حددتُ بسهولة السيارة المطلوبة، إذ راحت أضواء هيونداي تومض على الحائط الشرقي للمبنى، وبالإضافة إلى كل سلوكياته غير الاحترافية الأخرى، كان الرجل قد ركَن سيارته في الأماكن المخصصة للموظفين فقط. تحمل هذه الأماكن علامات واضحة، وأرقام القيود الملائمة معلقة على الحائط المقابل. لا أعرف كل أرقام قيود الموظفين عن ظهر قلب، لكنني لا أظن أن ذلك يشكل فرقًا الآن، وأشكُّ في أن أحدًا ما قد قال للرجل: «اركُن في مكاني وحسب عندما تأتي لترمي الرئيس الجديد بسكين».

كانت السيارة ملخبطة وتفوح منها رائحة ماكدونالدز، ومصدر الرائحة كيس ورقي من الأطعمة السريعة في المساحة المخصصة للأقدام في كرسي الراكب تبرزُ من فمه بضع حبات بطاطا مقلية. شغلتُ السيارة ثم فتحتُ النافذة بعض الشيء ومشيت، ورحتُ أقود متمهلًا وحذرًا، أنظر بهدوء حولي وأتفقد مرآة الرؤية الخلفية بانتظام. لكن هذا كله غير ضروري، فلا أحد يتبعني، ناهيك بالاهتمام بي. لا توجد حركة سير. نظرتُ إلى الساعة فوق عداد السرعة، ووجدتُ أنني ضمن الوقت المحدد.

عند وصولي إلى ميرماكي، ركنتُ السيارة بجوار ممرٍّ بين مجمعَي شقق، مكان حيث لا يُرجح وجود كاميرات مراقبة، ويقع عند تقاطع عدة طرق مشاة محتملة، ثم تركتُ قفل باب السيارة مفتوحًا، والمفاتيح على التابلوه، ومشيتُ نصف كيلومتر إلى محطة القطار واستقللتُ قطار الصباح الأول المتجه ناحية المطار. حالما صرتُ في القطار، جلستُ بجوار النافذة ورحتُ، لبضع محطات، أراقب المشهد الذي يعبرني، والشوارع الليلية، والنوافذ القليلة المضاءة.

مشيتُ بعد ذلك من المحطة إلى المنزل، وكما تنبأتُ، لم يكُن شوبنهاور مبتهجًا، إذ لم يطعمه أحد، ويشعر بالجوع، والآن أوقِظَ بغتةً، فاعتذرتُ له، وفتحت علبة من أطايب القطط وسكبتُ قطرة كريمة في كأسه للتحلية. راح يأكل طعامه، وكما يجري دائمًا، رحتُ أسردُ عليه أحداث نهاري، أو أحداث مسائي وليلي أيضًا في هذه الحالة، ورفع رأسه عن طبقه مرتين. ثم خلعتُ قميصي ونظرتُ إلى كتفي، وكان النزيف قد توقف، واعتدتُ الألمَ بالفعل. ينبغي أن أنهض وأستحم، لكنني قررت فعل ذلك في غضون دقيقة، وجلستُ في المطبخ مع شوبنهاور مرسلًا نظري من النافذة، كأنني أنظرُ إلى هذا المشهد للمرة الأولى.

2

- ميت.

لم أنَم إلا ساعة ونصف الساعة ولستُ مستعدًّا البتة لما تخبرني مينتو كيه به. كان صوتها أصحَل، وجلبت معها إلى الغرفة نفحة من أريج الصباح العليل وشيئًا ليليًّا ما، نكهةً أثقل تحملني على التفكير بالملاهي الليلية وفرقعة قناني البروسيكُّو. كانت الساعة التاسعة ودقيقة واحدة، وقد وصلتُ إلى متنزه المغامرات وجلستُ إلى طاولتي.

واصلَت كلامها: «مدمَّر تمامًا»، وبدت تحتَ كل تلك السُّمرة كأنها تحمرُّ شيئًا يسيرًا، «مُنتهٍ. ما الذي تحاول فعله بي؟».

لم أفهم تمامًا ما قصدها، فحيرتي، بطبيعة الحال، مضاعفة لأنني أخلط بين أمرين. في البداية، تصورتُ أن أحدًا ما لا بد قد عثر على شيء في الردهة أو في ثلاجة المقهى لا ينتمي بالضبط إلى هناك وجاءت مينتو كيه تسألني عنه، ثم رأيتُ في يدها قصاصة الورق التي تركتها على طاولتها البارحة، فأدركت أنها تقصد حال قسمها وفسرت لها: «ينبغي لنا كلنا شد أحزمتنا».

- أنت تقتلني بهذا.

قلت: «لستِ أنت فقط»، ثم أدركتُ أن وقع ذلك على الأغلب أقرب إلى الفظاظة، لذا أكملت: «لستِ أنتِ شخصيًّا، أعني لا أنتِ ولا قسم التسويق، ولا أي شخص آخر أو أي قسم بعينه. إنني أحاول توفير المال حيث يُمكن توفيره فقط».

قعدَت مينتو كيه ووضعت ساقها اليسرى فوق اليمنى، وكان سروالها ضيقًا ضِيقًا مفرطًا.

- اسمع، أفهم أن كل هذا جديد ويشق عليك. ما يخص أخاك و... كل ذلك. لا بد أن الأمر باغتك بعض الشيء.

- يمكنك قول هذا.

- لكنني أؤكد لك أنني مررتُ بظروف أضيق من هذه. سأحكي لك عنها يومًا ما. لن تُصدق...

- على الأرجح.

بدا أنها توقفَت فجأةً، ورمقتني بنظرة أطول بعض الشيء.

- تبدو... مختلفًا نوعًا ما.

- لم أحظَ بالكثير من النوم.

فأومأت برأسها: «لم أنم منذ التسعينيات يا عزيزي. أنصِت، مغزى كلامي هو أنك تبيع الأشياء بسمعتِك، وكيف تبني سمعتك؟ بفعل الفِعال وإخبار الناس عنها».

كانت مينتو كيه تتكلم بيديها بقدر تكلُّمها بشفتيها المطليتين بالأحمر تقريبًا، وتلتمعُ خواتمها الفضية في الجو.

ثم قالت: «عليك أن تسترجِل»، وقبضَت على منفرجها، فأزحتُ نظري سريعًا، «وجذاذة الورق هذه لا شجاعة فيها».

- إنه مشروع ميزانية.

فقالت: «بالضبط»، وقد صارَت متوثِّبةً تقريبًا، «أحتاج إلى المال، النقود، الفلوس».

بدا أن الجملة الأخيرة قد غادرَت فمها لا طوعيًّا، وحملَت الكلمات طبيعة مختلفة عن كل ما قالته سواها، ولا سيما كلمة «عزيزي» العذبة الثابتة خاصتها. صار صوتها أكثر تعاطفًا الآن، وكاد يحمل شذرة هلعٍ صادق.

فسألتها: «أنتِ؟».

أشاحت مينتو كيه بعينيها، إلى الأرض أولًا، ثم عادَت إليَّ. وقالت بسرعة: «التسويق يحتاج إلى المال، وأنا... التسويق».

أخذت أفكر في كل المال المفقود. من يحقق في النهاية في طريقة استغلال مينتو كيه لميزانية التسويق؟ ما الذي كنتُ أفكر فيه بخصوص الملاهي الليلية وقناني البروسيكُّو منذ لحظة؟ وليست هذه أسئلتي الوحيدة، ذلك أنني طوال الليل والصباح كنتُ أسأل -أسأل نفسي حتى الآن- عن كيفية دخول رامي السكاكين إلى المبنى في المقام الأول. أنَّى له معرفة أني كنتُ أعمل ساعات إضافية، وحدي؟ وقبل أن أتدبر صوغ سؤال، جُذب انتباهي إلى الباب، ورأيتُ لورا هيلانتو قبل أن ترانا. كانت تمشي عابرةً الباب المفتوح، لكن حالما لحظتنا بدا أنها أجفلَت بعض الإجفال وتوقفت كأنها ارتطمت بشيءٍ طريٍّ.

قالت في آخر الأمر: «صباح الخير».

ألقَت مينتو كيه نظرة إلى الباب ثم أدارت رأسها من دون أن ترد التصبيح للورا، وذكَّرني ذلك بتغير الجو في خلال جولتي التقديميَّة وقتما دخلنا مكتب مينتو كيه. لم تتبادل لورا ومينتو كيه التحية آنذاك أيضًا. وإن أسعفتني الذاكرة، فلم أسمعهما تتكلمان منذ وصولي.

قلت: «صباح الخير»، وانتظرت.

قالت لورا: «إنني في طريقي إلى غرفة تجهيزات المكتب»، ولوَّحَت بيدها إلى آخر الرواق، «لم أكن مدركة أنك هنا بالفعل يا هنري».

ومرة ثانية، وجهت لورا كلماتها إليَّ فقط. لم ترَ إلا شخصًا واحدًا في الغرفة، وليس ذلك خارجًا عن المألوف كل الخروج، إذ لا يمكن للمرء أن ينسجم مع الجميع، كما أعرف بالتجربة. كان بيرتيلا من دون شك ليرسل لورا ومينتو كيه إلى دورة علاج بالمواجهة بإشراف مرشدٍ يرشدهما إلى الطريق الصحيح، وقد يحدث ذلك في غرفة يوغا، وربما على ضوء الشموع. لكن في الوقت الراهن، لا يشغل هذا قمة قائمة أولوياتي.

فسألتُ لورا: «لمَ عساي لا أكون هنا؟».

فكرَت في سؤالي لثانيتين.

- لقد بقيتَ بعد الإغلاق ليلة البارحة، فظننتُ أنك قد ترغب بالاستراحة هذا الصباح. الاثنين أهدأ أيام الأسبوع، ولا سيما قبل الغداء.

- هل رأيتِ الأرنب؟

«يمكن أن يكون أرنبًا متقلِّبًا»، هذا ما قالته لورا هيلانتو منذ بضع ساعات فقط. نظرَت خلفها. الأرنب ليس خلفها. وقالت: «ليس بعد، ذلك أنني لمَّا أدخل الردهة، فقد فكرتُ في أن... أرتِّب... أمرًا... صغيرًا فقط...».

ثم رنَّ هاتفها، فخرجَت من مدخل الباب، وأمكنني سماعها تجيب. بدَّلت مينتو كيه قعدتها في كرسيها، ووضعَت ساقها اليمنى فوق اليسرى. وقالت، بصوتٍ عاد مفرط الحلاوة: «عزيزي، دعنا لا نخفِّض ميزانية التسويق، اتفقنا؟».

ما يزال فكري حائمًا حول الأرنب، وكنت أحاول إعادته إلى مينتو كيه وقتما ظهرت لورا في الباب ثانيةً وقالت: «أخشى أننا نواجه مشكلة صغيرة».



المشكلة، كما وصَفَتها، في الباحة الأمامية خارجًا، حيث أسقط أحدهم سارية عَلمنا إما صدمًا بسيارةٍ وإما دفعًا باليد. كان صباحًا مشرقًا جميلًا، رياحه خريفيَّة منعشة وسماؤه الزرقاء الفاتحة رائقة وصافية. التقينا أسفل سارية العلم، وكانت راية يُو مي فَن الصفراء والخضراء والحمراء راقدة على الأسمنت الجاف الرمادي على بُعد نحو عشرين مترًا. ولأكون أكثر دقة، فقد التقينا عند جذع السارية. نظرتُ إلى كريستيان، الذي نادى لورا، وبدا كأنه مُوشك على البكاء، ثم أدركتُ أن ذلك لأنه متميزٌ غضبًا. قال وهو يرغي ويزبد: «الهواة الملاعين، متعلمو القيادة الملاعين».

فسألتُه: «من؟».

فاستدار لينظر إليَّ، مُهتاجًا وعيناه تلمعان: «الذين اصطدموا بالسارية».

أجلتُ النظر حولي، التفتُّ 360 درجة كاملة. ثمة ما لا يقل عن ثلاثين مترًا من المساحة من كل الجوانب، ولا أحد يصطدم بسارية عَلم عن طريق الخطأ. على المرء التصويب نحوها من مسافة بعيدة، وفي الحقيقة عليه البدء

بالاتجاه ناحيتها من المنعطف الذي يقود إلى مرأب السيارات، وذلك يبعد 150 مترًا. أيًّا كان مَن أسقط السارية فقد حاول جاهدًا فعل ذلك.

قلتُ أخيرًا: «أشكُّ في أن المشكلة بمُعلِّم القيادة. كريستيان، اعتنِ بهذا لو سمحت».

- لكن من سيَشْغل طاولة خدمة الزبائن؟

- أليست فينلا هناك؟

راح يحدق إلى الأرض أمامه.

- مريضة.

- ثانيةً؟

- أجل.

أخذ منظر سارية العَلم المستلقية أمامي يزداد بؤسًا بمرور كل دقيقة. ثمة شيء مجازي في الأمر، شيء لا حاجة لتذكيري به. كنتُ وكريستيان وحيدَين في الباحة الأمامية، والريحُ تخترق قميصي، وتجلدُ كتفي بربطة عنقي. وفي الداخل، لورا هيلانتو تُعطي الأطفال دورةً بدت مزيجًا بين الفن والتمارين الرياضية.

- اعتنِ بالعَلم والسارية، وافعل ذلك اليوم. سأذهب أنا إلى طاولة خدمة الزبائن.

كنتُ قد استدرتُ بالفعل وأوشكتُ على اتخاذ أولى خطواتي ناحية البوابات الأمامية وقتما سمعتُ كريستيان من خلفي يشتم ثانيةً: «يظنون أن بوسعهم المجيء إلى متنزهي في جولة تمتُّعٍ لعينة. هذا متنزهي. خاصتي».

لم أتوقف، ولم أنظر خلفي بينما مشيتُ موسِّعًا خطاي ناحية المدخل. كان ذهني يضطرمُ بأسئلة تستعرُ مثل مِحراكٍ حديديٍّ على جلدي، وكتفي تؤلمني كأن شخصًا ما يحشر مئة إبرة فيها دفعة واحدة، وأشعر أن متنزه المغامرات الملعون بأسره ينهارُ على ظهري، كأن ثقله يثبتني أرضًا، يُلوِّيني، يقصفُ طاقتي. أمكنني رؤية الناس يتدفقون عبر البوابات. معظمهم أمهات وأطفال صغار، وبينهم بضعة آباء كذلك. لم أعمل على الطاولة الأمامية قبلًا،

لكنني أعرف المتنزه وطريقة عمله معرفة تامة. وأيضًا، أي حد من الصعوبة يمكن لخدمة الزبائن بلوغه؟



تبيَّن أن خدمة الزبائن صعبة للغاية، وهذا بسبب الزبائن. لم يخطر لي قط أن كل هؤلاء الناس قد يسألون عن أشياء من الواضح أنها ليست معروضة، أو يطلبون تبديل ما اشتروه بالفعل، أو أنهم قد يرغبون بطرح أسئلة لا نهاية لها حول الخيارات المختلفة لا لشيء إلا ليستقروا على الخيار الوحيد المعروض بالفعل، أو ينخرطون، والطابور يزداد طولًا من خلفهم، بمفاوضات مديدة مع الشخص البالغ طوله ثلاثة أقدام الواقف بجوارهم، الذي ببساطة لا يمكنه أن يتمتع بكل الحقائق أو المدارك الجوهرية الضرورية لاتخاذ قرار عقلاني. سمعت أحدهم يقول إن الطقس على ما يبدو جميل جدًّا في الخارج وإنه سيكون من المؤسف قضاء الوقت في الداخل، فأجبتُ أن زيارة منشأتنا ليست إجبارية بتاتًا وأن الطقس في الواقع قد بدأ بالبرود مع اشتداد الريح الجنوبية حد أنه في غضون ساعة ستعصف الرياح بسرعة ثمانية أمتار بالثانية ويُتوقَّع أن تجلب منطقة غائمة منخفضة الضغط زخَّات مطرٍ محليةً غزيرة، لذا فكرة الجمال، إلى حد ما على الأقل، مسألة تفسير.

تدبرتُ تصفية طوابير الصباح، وفرغَت ردهة الدخول لوهلة، ثم خرجتُ من خلف الطاولة ونظرتُ إلى الخارج. رأيتُ كريستيان يذرع طول السارية الساقطة بينما يتكلم في الهاتف، وأملتُ أنه إما يطلب من أحدهم أن يأخذ السارية القديمة وإما يطلبُ واحدة جديدة. لستُ أفهم أي رسالة يفترض بحالة التخريب الواضحة هذه أن تُبلغني. لا يسعني التفكير بأي أثر يُزعم أنها تحمله، فكل ما أعرفه هو أنها إزعاج صغير آخر. وكأنه لا يوجد ما يكفي من الإزعاجات الأكبر.

لا يوجد مال، وقد فكرتُ في خياراتٍ عدة، كل شيء من زيادة أجرة الدخول إلى خفض ميزانية التوظيف، لكننا استنفدنا هذه الخيارات أقصى الاستنفاد الممكن. وبصورة حاسمة، فإن أجرة الدخول لدينا أرخص بيورو كامل من أقرب منافسينا، وهي أضخم سلسلة متنزهات مغامرة في البلاد.

ونحن بالفعل نعمل بأقل تكاليف التوظيف في الجوار، (لسنا نبذل مجهودًا لإذاعة هذه الحقيقة، ذلك أننا لا نريد للأهالي أن يفكروا في أن تطور صغارهم سيتأثر سلبًا فقط لأننا لا نحوز راقص باليه على رأس عمله أو صفوف معالجة بالدمى).

وبعد زيارتهما الأخيرة، لستُ ساذجًا حد تصورِ أنني قد أتمكن من ترهيب الرجل العظاءة وصديقه منتزع الأصابع ذي السماعات. سيرجعان عاجلًا، فزميلهما في ثلاجتي.

كانت فِعالي البارحة مثالية بالنظر إلى الظروف المُخيِّمة. أعرف ذلك. ومما قرأته، أعرف أنه في مئة بالمئة تقريبًا من حالات الوفيات المشبوهة، تؤدي الجثة نفسها معظم عمل التحرِّي، أي باعتبارها وسيطًا. من توفي؟ كيف، وأين، ومتى توفي؟ تخبر الجثة التحري بكل شيء. لكن إن لم توجد جثة، فسيكون سبر أغوار الأمور أصعب قليلًا. لستُ فخورًا أو سعيدًا على وجه الخصوص بما فعلتُه، لكنني فعلته لأنقذ حياتي وأحمي متنزه مغامراتي، عقار أخي وذكرى والديَّ. لم يكُن أمامي خيارات أخرى. لقد فعلتُ ما تحتم عليَّ فعله. لكن بعد كل هذا، لا بد لي من الاعتراف أن كل ما فعلته بأحسن الأحوال تأجيلٌ للمحتوم، وعندما يعود الرجلان، سأحتاج إلى الحصول على الإجابات. أحتاج إلى المال. يُو مي فَن يحتاج إلى المال. الكثير، وبسرعة، من مكانٍ ما وبطريقةٍ ما.

رأيتُ كريستيان راكعًا على ركبتيه في مرأب السيارات بجوار الراية الساقطة، ثم بدأ يطويها ببطء واحترام، وبنفَسٍ شعائريٍّ. من الواضح أن اللحظة مهمةٌ في نظره، لكن الريح لا توافقه الرأي، إذ راحَت زوايا الراية ترفرف في الجو حيثما لم تثبتها يداه. حاول سُدًى تثبيت كل الزوايا المرفرفة دفعة واحدة، لكن ثمة أربع زوايا، وليس لديه إلا يدان، وسرعان ما أخذ يفشل هنا وهناك، وبعد لحظة، بدا كأنه انخرط في مصارعة ضارية مع خصمٍ خفيٍّ، وراية متنزه المغامرات حلَبَتُه. لا أعرفُ كيف أخبره أنه لن يصير مديرًا عامًّا أبدًا.

رُكنت سيارة عتيقة فيروزية اللون من طراز أوبِل فِكترا بجوار الباب، ثم فُتح باب السائق، وخرج رجلٌ في ثلاثينياته من السيارة. كان يلبسُ كنزةً

سوداء ذات قلنسوة، وسروالًا من الجينز الفاتح، وحذاءً رياضيًّا أبيض بثلاثة خطوط على جانبيه. مشى حول السيارة بينما أخذ باب الراكب ينفتح، شيئًا فشيئًا، مع بعض الدفع، كما يفتح الأطفال الصغار أبواب السيارات. ساعد الأب الطفل على الخروج من السيارة، وبدا على البنتِ أنها في محيط السادسة من عمرها. كانت ترتدي كنزة صفراء فاقعة على مقدمتها صورة أحادي قرن بنفسجي، وظهرَت حماستها للعيان عندما أدركَت أين هي، فاستدرتُ عن الأبواب وعُدتُ إلى طاولة البيع وانتظرت. دخل الأب وابنته، وراحت البنتُ تثرثرُ كما يثرثر الأطفال بكلامٍ لا علاقة له بما يجري حولها، ثم قال الأب أخيرًا: «انتظري دقيقةً عزيزتي».

كان للأبِ شعرٌ بُنيٌّ فاتح من دون مَفرِقٍ أو أي موضة أخرى يمكن تمييزها، ووجه ناحل جديٌّ، وعينان زرقاوان. أخبرني بأنه يريد تذكرةً لبالغٍ وواحدةً لطفل، فأدخلتُ السعر إلى سجل النقد وناولتُه قارئة البطاقات. أدخل الرجل رقم تعريفه الشخصي، ففكرت القارئة في ذلك لدقيقة قبل أن تخبرنا بأن العملية قد رُفضت. حاولنا ثانية وثالثة، ولم تعمل البطاقة. اعتذرتُ للرجل وأوضحتُ له أننا نقبل بالنقد أيضًا، وأنه إن كان لا يحمل النقد فأقرب صرَّافٍ آليٍّ يقع في متنزه الأعمال في الطرف الآخر من حزام أشجار التنوب وأنه...

- بابا، أصار بوسعي اللعب؟

كانت البنتُ قد تجاوزت حواجز المتنزه وصاحَت بنا تتذمر، فألقى الأب نظرةً إلى البنت، ثم نظر إليَّ: «ما قولك في أن تدخل هي وأنتظرها أنا في السيارة؟».

أوضحتُ له أنه لا بد من مرافقٍ بالغٍ للأطفال طيلة الوقت، وأن هذا نظام لا يمكننا مراوغته. صاحت البنت بالأب ثانيةً، متلهفةً للعدو واللعب، فراح الأب يحدق خارجًا، وتبعَت تحديقتي تحديقته. ربما كان كلانا ينظر إلى سيارته، الأوبِل القديمة التي ثقَّبها الصدأ، ولا أغطية على إطاراتها، ثم قال: «أترغبُ بشراء سيارة؟».

- إن امتلاك سيارة ليس منطقيًّا ماليًّا بالنسبة إليَّ في الوقت الراهن، لقد حسبتُ ذلك مراتٍ كثيرة.

صاحت البنتُ ناحيتنا مرة ثانية، وجاءَت من الردهة جعجعة زعقات الأطفال الآخرين الحماسية المُجلجلة. بدا لي أن آخر قطرة حياة قد تسرَّبت من وجه الرجل، وما كان أمرًا حَرِجًا صار قتَّالًا، ثم ظهرَت عليه علائم خيبة أملٍ شديدة، حد أنه سرعان ما سيمسي غير صالح للقيادة، وهذا سبب آخر ليكون غير محتاج إلى سيارته.

إجمالًا: ظهر الوضعُ واضحًا تمامًا، لقد وعد ابنته بيوم في متنزه المغامرات، لكن لا يمكنه احتمال تكلفته. وها هو ذا، يواجه الحنث بوعده.

لا أعرف من أين جاءتني الفكرة، لكنها ظهرت في طرفة عين، مرسلةً من فورها سلسلة من الأفكار الإضافية، وكلها متصلة ببعضها بعضًا، تنمو و... تكدِّس فوائد. بالمعنى الحرفي للكلمة. لقد وجدتُ حلًّا. إنه واقفٌ قبالتي تمامًا، والبارحة كان يحاول قتلي. توليفة بين الاثنين. يبدو الأمر مجنونًا، لكنه ليس كذلك، بل هو منطقيٌّ، عقلانيٌّ، أكثر الخطوط استقامة بين النقطتين أ وب.

- هل لي أن أسألك سؤالًا؟

استدار الرجل لينظر إليَّ، ولم يقُل شيئًا. صاحَت البنتُ فيه للمرة الألف، وجاء صوتها من نقطة أبعد هذه المرة. سرعان ما سيبتلعها المتنزه برمتها.

- ما قولُك في قرض متنزه مغامرات؟

- ما هذا؟

- إنه قرض يمكنك أخذه حالما تخطو داخل متنزه مغامرات.

- حقًّا؟

قلت: «ليسَ بعد»، محاولًا احتواء سيل الأفكار المندفعة في دماغي، «لكن دعنا نفترض أن متنزه المغامرات عرض عليكَ قرضًا كهذا بالفعل، ولنفترض أن فوائد هذا القرض أرخص بعدة نقاطٍ مئوية من أرخص قرضٍ يليه من نوعه. أستقترضُه؟».

اختفى صوت البنت، فقد غاصت في أعماق المتنزه بالفعل. لاحظتُ والرجلُ ذلك في نفس الوقت ونظر كلانا إلى الردهة. ثم سألني: «أي خيارات لدي؟».

سألته عدة أسئلة متابعة، وأجابني، ثم عرضتُ عليه وعلى ابنته تذكرتين مجانيتين للمتنزه. وقف الرجل أمامي، والتذكرتان بيده.

قلت له: «شكرًا لك»، ومزقتُ تذكرتين من رزمة أخرى، «هذه لمقهى كيرلي كيك. ثمة عرض خاص على فطائر الببغاء المحلاة مع القشدة ومربى الفراولة اليوم».

سلمتُ الرجل التذكرتين، وبدا أنه يدرس الأمور.

- متى يمكنني أخذ القرض؟

- في القريب العاجل، كما أظن. سألتقي المستثمرين ثانيةً في أي يوم.

3

كان مرأب السيارات ساحة خاوية، وفوق الساحة يسطعُ قمرٌ بدر. انزلق باب المتنزه وطقَّ منغلقًا من خلفي بينما مشيتُ ناحية موقف الحافلات لأستقل الحافلة الأخيرة التي ستأخذني إلى محطة القطار ثم إلى المنزل. بدا القمر أشبه ما يمكن بالجبنة القشديَّة الفنلندية، أصفر ويتدلَّى ثقيلًا في السماء، في متناول اليد تقريبًا. تصورتُ شوبنهاور يجلسُ على عتبة النافذة، يَحدِّق بجوعٍ إلى الفضاء. كنتُ أسمع وقع قدميَّ، ودويَّ حركة السير على طول الطريقِ السريع أمامي، وبصورة أدق، كانت أذناي تطنان بقعقعة آلة حاسبة ضخمة، ذلك أنني أمضيتُ الظهيرة والعشية بطولهما أحسب. هذه أول مرة أشعر فيها بهذا القدر من الرضا في عملي منذ غادرت شركة التأمين، وأدركتُ أن هذه هي السعادة.

شعرتُ بما يشبه الخفَّة، فعلاوةً على حقيقة أنني أخفي رجلًا في الثلاجة، أنا مدين لغفير من الشركات، والدولة، وعصابة مجرمين أسقطت سارية عَلمي (وقد أُخذ كلٌّ من السارية والعَلم الآن، ما لم يترك إلا قاعدة خرسانية فيها جذع قصير ينتأ في وسطها)، والألم في كتفي أشد مضاضةً من أي وقتٍ مضى حتى الآن. كانت خطواتي سريعة، وأحس أن قدميَّ بالكاد تمسَّان الأرض، والأرقام تتسابق في مخي. هذا ما يمكن للتطبيق الحقيقي والجاد للرياضيات أن يمنحنا: السعادة والراحة والأمل، العقلانية والمنطق. وفوق كل شيء: الحلول. الرياضيات تنتصر. الرياضيات تُعين. الرياضيات...

ظهرت سيارة من خلفي. لم أسمعها تدنو لأنها لا بد قد بدأت التسارع من خلف المبنى، وانمزج صوت المحرك في البداية بالهدير العام لحركة السير

القادمة من الطريق السريع، ولم يبرز صوتها من ضجيج الخلفية إلا عندما لفَّت المنعطف وبدأت بالاتجاه إلى منتصف مرأب السيارات، حيث أمشي. سيارة طويلة وتتجه ناحيتي. لم أتعرفها، لكنني لم أقف متكاسلًا أفكر في ذلك، منتظرًا الحصول على رؤية أفضل للشارة على المصد، فالسيارة رياضية رباعية الدفع، ضخمة وثقيلة.

انعطفتُ وانطلقتُ أعدو، وليس في فكري إلا الأخدود المار بين مرأب السيارات والشارع، إذ لا يمكن للمرء أن يعبره مُبقيًا عجلاته الأربع على الأرض، حتى إن قلة من الناس يمكنهم القفز من فوقه أيضًا، بل ينبغي هبوط أحد جانبيه شديدَي الانحدار وتسلق الآخر في الطرف الثاني. شعرتُ فجأةً أن حافة مرأب السيارات تبعد كيلومترات عديدة، فرحتُ أركض وأركض، ولسبب ما، لم أعُد أشعُر أنني أكاد أمشي في الهواء، بل على العكس، صرتُ أشعر كأن قدميَّ ملتصقتان بالأسفلت، ثم سمعتُ صوت عجلات السيارة، وصوت محركها، فغيرتُ اتجاهي بغتةً آملًا أن يربك ذلك السائق.

أجدَت تكتيكاتي التضليلية نفعًا، لكن لنصف ثانية عابرة لا أكثر، إذ صرَّت العجلات فوق الأسفلت، وانعطفت السيارة. سمعتُ صوت انعطاف العجلات وهدير المحرك، فقد داس السائق المكابح بشدة أولًا ثم خبَط دواسة الوقود ثانيةً، كأن ما يطاردني دبابة رشيقة رشاقة استثنائية. بدلتُ اتجاهي ثانيةً، ما أطال الرحلة عليَّ، لكن السائق لم يقع في نفس الحفرة مرتين. بدأت أشك في أنني سأتمكن من بلوغ الأخدود، فهو ببساطة تامة بعيد جدًّا والسيارة ببساطة تامة قريبة جدًّا. ومع ذلك، واصلت الركض. طغى صوت المحرك على كل شيء سواه، وازداد الضجيج صخبًا، والمحرك تسارعًا بينما يبدل إلى سرعات أعلى، وسرعان ما صار المصد ملاصقًا لظهري. لحظة أخرى وسأصير تحت السيارة. لحظة أخرى و...

عبَرتني السيارة، وصدمتني مرآتها من جانب الراكب في كتفي اليسرى، الكتف التي جرحتها السكين، فترنحت جراء التصادم ورأيتُ السيارة تتخذ انعطافةً سريعةً شديدة، وكان ذلك كل ما رأيته.

سقطتُ على الأرض بعد ذلك وتدحرجتُ بضع مرات، وسحج الأسفلت ركبتيَّ وراحتيَّ ومرفقيَّ، ثم سمعتُ صرير العجلات ثانيةً، وانفتح باب

السيارة. تناهى إليَّ وقْع أقدام وأدركتُ أنني ينبغي لي البدء بالركض ثانيةً، ذلك أنني هذه المرة لا أحمل أذن أرنبٍ لتساعدني، لكن في اللحظة التي كنتُ أحاول فيها النهوض بنفسي، نتَر أيه كيه يدي خلف ظهري ورفعني منتصبًا.

شعرتُ بألمٍ مُدوِّخٍ، وحاولتُ تحرير نفسي من قبضته بالتلوِّي، لكن لم يكُن ذلك أسهل من المرة الماضية، فكي نكون خصمَي مصارعةٍ متكافئَين، يجبُ أن أكون أصغر بعشرين عامًا وأثقل بسبعين كليوجرامًا، وهذا لن يحدث الليلة.

مشينا عدة خطوات ناحية السيارة. كان باب المقعد الخلفي مفتوحًا، ولسببٍ ما، مر في بالي كم تغيرت حياتي، فمنذ بضعة أسابيع فقط كنتُ أشارك في مؤتمر بيرتيلا عن الأثر الإيجابي. ثم رأيتُ الرجل العظاءة في مقعد السائق، وسحنته باردة تمامًا كما عيناه باردتان.



اتجهت السيارة خارج المدينة، وجلس أيه كيه بجواري في المقعد الخلفي وسماعته في أذنيه. كنتُ متأكدًا أن بمقدوري سماع الخبط المتواصل منخفض النغم لموسيقاه. ثبتني من رسغيَّ، بلا أصفاد، بلا شريط لاصق، بلا روابط كابلات، بكفه فقط، التي تكافئ عرض لوح فَرمٍ، وأصابعه المطبقة مثل كابلاتٍ فولاذية حول رسغي الرياضي. ما زلنا غير ندَّين، لكنه على الأقل لَم يَثنِ هذه المرة. من ناحية، ارتحتُ إزاء كون الشخص الذي حاول ترويعي بدهسي تقريبًا مألوفًا، لكن من الناحية الأخرى أدركتُ أنني لا أملك وقتًا لأضيعه، فلسنا في طريقنا إلى السينما أو لتناول الهوت دوج، فقلت: «كنتُ أرتقبُ قدومك في وقتٍ أبكر. لقد أجريتُ بعض الحسابات، ولدي اقتراح».

أجاب الرجل العظاءة مباشرةً: «وأنا لدي اقتراح أيضًا»، لكنه لم يُكمل، لذا ظلت طبيعة الاقتراح مُبهمة، فقلتُ: «الأمر أنني، لم أكُن متأكدًا من كيفية الاتصال بك فقط. (حاولتُ تمطيط ساقيَّ، فما زالت ركبتاي تؤلمانني إثر السقطة) لستُ أعرف اسميكما حتى. حسنًا، أعرف اسمه. نوعًا ما. أظن أن الأحرف تشير إلى اسمه الأول واسم عائلته. ثمة نحو خمسين اسم علمٍ مذكرٍ

شائع الاستخدام يبدأ بالحرف أيه في فنلندا، لكن ثمة نحو خمسمئة اسم عائلة يبدأ بالحرف كيه. بيد أننا إن نظرنا إلى توزيع هذه الأسماء عبر مختلف الديموغرافيَّات العمرية، وعلى فرض أن بمقدوري تخمين عمره تخمينًا صحيحًا بوجه التقريب، فمن الأكثر رجحانًا بكثير أن يكون أنتيرو كورهونين من أبراهام كاراساري. أثق بقوانين الاحتمالات، وكانت هذه لتكون بداية جيدة لو أنني فقط...».

- أيه كيه اسمٌ أول واسم أول آخر. كلاهما مستعار، وكلاهما من اختلاقي. لا أحد غيري يعرفهما. ولا حتى أيه كيه.

فاعترفت: «هذا يجعل إيجاد الرقم الدقيق صعبًا إلى حد ما»، وألقيتُ نظرة جانبية. بدا أيه كيه كأنه لا يهتم بنقاشنا ولا بأصول اسمه، «كما كنتُ أقول، كنتُ أُجري بعض الحسابات و...».

- لمَ لم تذكُر هذه الحسابات قبلًا؟

- لقد أجريتها اليوم. راودتني فكرة اليوم. هذا الصباح، لأكون دقيقًا.

فقال الرجل العظاءة بصوته الثلجي ذاك: «صحيح. راودتكَ فكرةٌ فجأةً وقتما أوشكت سيارة رباعية الدفع على دهسك، ثم أحكم أيه كيه ذراعه حول عنقك ورماكَ في المقعد الخلفي للسيارة. يعطي هذا الناس بعض الأفكار. لقد سمعتُ عددًا لا بأس به من الأفكار في هذه المرحلة من الإجراءات. أخالُ أنك لم ترَ رجلًا عريض المنكبين كان يُفترض به أن يزورك، صحيح؟».

وصلت السيارة إلى تقاطع، ثم انعطفت إلى طريق متعرِج أضيق، وراحت مصابيح الشوارع تختفي بسرعة من خلفنا، ثم تابعنا طريقنا في الليلة الخريفية.

- يزورني؟

هجرَت عينا الرجل العظاءة سطح الطريق ونظرتا إلى المرآة للحظة.

- ليذكِّرك بالقرض. إنه أمر مضحك، إذ قلتُ للرجل أن يمر عليك ويخبرك بنفس ما أخبرناك به في لقائنا الأخير، إنما بطريقة مختلفة بعض الشيء، كي تفهم حقَّ الفهم، فغادر الرجل، ثم اتصل بنا في طريقه وقال إنه لم يكُن متأكدًا ما إن كان متنزه تسليةٍ أم متنزه مغامرات.

أوشكتُ أن أخبره بأنه متنزه مغامرات، وأن الفرق شاسع وقائم على هذا وذاك وغيره، لكنني أدركتُ في الوقتِ نفسه أن هذه محادثة أفضل ألا أطيلها، فعضضتُ شفتي، وتابع الرجل العظاءة: «لكننا لم نسمع نفسَه مذ ذاك الحين. مررنا بسيارتنا حول المتنزه، ولم نرَ سيارته في أي مكان. يبدو أنه اختفى تمامًا. إذن ألم تره أنت أيضًا؟».

أمكنني رؤية تينك العينين الزاحفيَّتين في مرآة السائق، والطريق أمامنا مضاء بضوء القمر الخافت. وكانت إجابتي الصادقة: «لا أذكر أي زبون عريض المنكبين بصورة خاصة»، فمعظم زبائن المتنزه ضامرون ضمورًا واضحًا.

لم يقل الرجل العظاءة شيئًا في البداية، وصارت المنازل الآن أقل عددًا وأكثر تباعدًا. ثم تابع: «حاولت الاتصال به، لكن هاتفه غير متصلٍ بالشبكة، ما يقلقني بعض الشيء، إن كنتَ تفهم قصدي. قلقٌ من أن يكون شيء ما قد أصابه».

الهاتف، بالطبع، إنه في قاع الثلاجة، في أحد جيبَي الرجل على الأرجح، ذلك أنني لم آخذ إلا مفاتيح سيارته.

- ففكرتُ في أن أسألك أيضًا، عما إن كنتَ قد حادثته، وعن سير تلك المحادثة.

فقلتُ له: «لم أحادث أي عريضَ منكبين»، وكان قولي حقيقة، فنحن لم نتحادث قط.

ظل الرجل العظاءة صامتًا. كان يشير بالغمَّاز قبل الانعطاف بوقتٍ مناسب ويسير وفق حدود السرعة تمامًا، فينمُّ وصولنا إلى المنعطف عن قيادة مثالية. لا بد أنه كان تلميذًا يحلم به أي معلم قيادة. راحَت الحصاة تطقطق على سُفل السيارة، وكان الليل بهيمًا ومضاءً بإضاءة خافتة في الآن نفسه، إذ بدا القمر أشبه بِمسلاط ضوءٍ مُغشًّى. أخذَت السيارة تتباطأ شيئًا فشيئًا، والحصاة تستحيل ترابًا، وبدأت السيارة بالتأرجح من جانبٍ إلى آخر بينما تغرق العجلات في حُفر الطريق الصغيرة.

- إنني أعرضُ عشرة آلاف يورو.

- الدينُ مئتان وعشرون ألفًا.

- لكن المال ليس لك.

لم يقُل شيئًا.

- سأدفع لك، شخصيًّا، عشرة آلاف يورو إن وافقتَ على إعداد اجتماع.
- اجتماع؟
- في آخر مرة التقينا، أخبرتني أنك تُمثِّل شخصًا ما.
- لم أفعل. أنا لا أقول أشياء كهذه أبدًا.
- لقد استخدمتَ صيغة جمع المتكلم، وهذا منحَ فرضيتي معالمها.
- ما يفترض أن يعني ذلك؟

التمعَت عيناه الباردتان في المرآة، وصارت السيارة تتقدم ببطء شديد. غادرنا الغطاء الشجري وبلغنا شاطئ بِركة أو بحيرة ما. كم استغرقت الرحلة؟ قدرتُ ذلك بثلاثين إلى خمس وثلاثين دقيقة. لم أرَ منزلًا أو كوخًا في أيٍّ من جانبَي السيارة، ليس هذا إلا شاطئًا مكسوًا بالعشب، وانطفأ المُحرك. كنتُ قد قرأتُ عن حجم التحدي الذي تواجهه الشركات الناشئة، عن مدى مشقة إلهاب المستثمرين بخصوص فكرة جديدة، وعن السرعة التي ينبغي ترك انطباع بها. لكنني أشكُّ أن أناسًا كثرًا يضطرون إلى تسويق أفكارهم التجارية في منتصف الليل بجوار بحيرة حيث سيُغرَقون إن لم تلاقِ الفكرة الفعالية المطلوبة. لأنني أدركتُ الآن أن هذا بالضبط ما يجري، والساعةُ تتكُّ، فقلت: «في هذا السياق، يعني عشرة آلاف يورو، نقدًا أو حوالةً مصرفية، إلى حسابك الشخصي، لقاء تنظيم اجتماع مع أيٍ كان من تعمل لصالحه، مع شخص يمتلك في جعبته كم المال الذي استدانه أخي منك. أُعيد: لتنظيم هذا الاجتماع، سأمنحك عشرة آلاف يورو».

أحكم أيه كيه كفَّه على رسغي، فشعرتُ بقبضته الشبيهة بالكمَّاشة، لكن أصابعي في الوقت نفسه فقدت كل إحساسها. ما يزال ذاك الصوت الجهير يلعلع من سماعته. لا بد أنها واحدة من أطول الأغاني التي حُمِّلت على الإنترنت قط.

قال الرجل العظاءة: «في البداية، لم يكن لديك أي مال»، وبدا أقل من مقتنع، «والآن تُريد دفع عشرة آلاف لأُجري مكالمة فقط».

فشرحتُ له: «هذه رياضيات بسيطة للغاية. أملك عشرة آلاف، لكن لستُ أملك، لنقُل، ثلاثمئة ألف. ومن أجل تحصيل المبلغ الأكبر، إنني مستعد لدفع مبلغ صغير أولًا. وحالما أحصل على الثلاثمئة النظرية هذه، ستنالُ المزيد بعد».

- كم؟
- هذا يعتمد على ما سنقرره في الاجتماع.
- وهذا يعني؟
- تتطلب عشرة الآلاف قدرًا معينًا من الصبر. سأخبرك في الاجتماع.
- وكيف أعرفُ أنك ستدفع؟
- أنا أكتواريٌّ. لا أقطع وعودًا لا أساس لها.

لوهلة، ظل كل شيء هامدًا لا حراك فيه. ثم رفع الرجل العظاءة يده، وأشار إلى الأمام مباشرةً. كانت المياه تلتمع تحت ضوء القمر مثل الجليد.

- أترى هذا؟

أجبتُ بالإيجاب.

- ثمة متسع كبير في القاع لرجل نحيل مثلك.

قلت: «فهمت»، وقررتُ ألا أدرس جهارًا النسبة بين الإنسان والحجم المربَّع أو الأبعاد العلميجريميَّة للمسألة.

نظر الرجل العظاءة في المرآة ثانيةً، ثم فتح الباب وأزلق نفسه من السيارة. مشى مسافة قصيرة، ورأيته يرفع هاتفًا إلى أذنه، ثم اختفى خلف الأشجار.

كنت جالسًا في مركبة راقية حديثة نسبيًّا من صناعة صينية سويدية. وأيه كيه، رجل بحجم جبل، قابض على يدي.

في ظروف أخرى، ستكون هذه الطريقة من الناحية الإحصائية الأكثر أمانًا للسفر إلى أي مكان، أما الليلة فواحدة من أكثرها خطورة. عندما تقلبُ المعادلة، يتغير كل شيء. وفي الوقت نفسه، فكرتُ في هدوئي المفاجئ، ويُفسر هذا جزئيًّا بحقيقة أنني مُنهك تمامًا وفي صدمةٍ من نوعٍ ما. أمكنني

الشعور بذلك تقريبًا مثل حُمة في عضلاتي، وفي تشوُّش ذهني، الذي لا بد أنه قد بلغ مبلغًا حرجًا، وتجاوز حدًّا أخيرًا، كأنني بلغتُ قمة جبل شاهق: فمن ناحية، تجلدني الريح من كل الجهات، لكن من ناحية أخرى، ما يزال بوسعي التنفس على الأقل.

ظهر الرجل العظاءة من مكان ما. لم يعُد يتكلم على الهاتف، بل صارت ذراعاه تتأرجحان حُرتين على جانبيه وهو يمشي، ويستحيل قراءة تعابيره. ركبَ السيارة، وأغلق الباب، واستراح في مجلسه. استغرق ذلك دقيقة، ثم جلس هناك صامتًا.

أدركتُ أن الكلمة التالية ستحدد ما إن كنتُ سأتجه إلى أقرب صرافٍ آليٍّ أو في مشوار إضافيٍّ عن رصيف بحريٍّ قصير جدًّا، ثم ظهرت عينا الإغوانة خاصته في مرآة الرؤية الخلفية. لم أكن قد شعرت بأصابعي منذ بعض الوقت، والآن فقدت الإحساس ببقية أطرافي أيضًا، وبينما أنا في منتصف خفقة قلبٍ باردة هائلة، قال: «سآخذ عشرة الآلاف نقدًا».

4

أدركتُ من فوري أن الهاتف يرن منذ بعض الوقت، وشوبنهاور مضطجعٌ أسفل السرير، في سُبات عميق. لا أملك أوهى فكرةٍ عن الساعة، وفي الأحوال الطبيعية هنا ليس من شيمي، وليس من شيمي أيضًا إعداد اجتماعات مع رجال عصابت وسحب مدخراتي من صرافٍ آليٍّ في ساعات الصباح الأولى. لكن هذا ما جرى. رفع شوبنهاور رأسه ونظر إليَّ نظرة شزراء بينما واصل الهاتف رنينه. لم ينظر إلى الهاتف، بل إليَّ، كأنني المسؤول عن تكدير نومه. وبالطبع، أنا المسؤول، فجلستُ ورحتُ أتلمس الطاولة الجانبية بحثًا عن الهاتف، لكنه ليس عليها.

مشيتُ إلى الرواق، ووجدتُ هاتفي على الطاولة بجوار شماعة المعاطف. لم أتعرَّف الرقم، فأجبتُ بكلمة «مرحبًا»، بسيطة، لتسألني لورا هيلانتو عما إن كنتُ المتحدِّث. كان في صوتها تلك السمة المشرقة المَرِحة، وتغيَّر مزاجي حالما سمعته مباشرةً. لا يسعني إيضاحُ كيف أو بأي طريقة، لكن شيئًا ما يحدث كلما رأيتها، كلما سمعتُ صوتها. قلتُ هذا أنا، ثم لمحتُ انعكاسي في مرآة الردهة ؛تساءَلتُ عما إن كان ممكنًا أنني لستُ أنا في النهاية. لقد نمتُ بقميصي الرسمي. لم يحدث أمرٌ كهذا معي قط. أشحتُ عن المرآة وحاولتُ التركيز في ما تقوله لورا هيلانتو.

ثم قاطعتها: «أعتذر، لقد استيقظتُ للتو. أثمة خطبٌ ما؟».

- لا. الأمرُ فقط أنني في بيتايانماكي وأتساءل عما إن كنتَ ترغب بتوصيلة إلى المتنزه. يمكنني أن أقلك في طريقي.

- توصيلة؟ في بيتايانماكي؟ لكن كيف...

قالت: «في المنطقة الصناعية»، كأنها لم تسمعني كما يجب، ما قد يكون الحقيقة كونها تتصل من سيارتها، إذ ثمة أزيز مُسرع في الخلفية، ويبدو صوتها أحيانًا كأنها تتكلم من تحت الماء، «ذهبتُ إلى هناك لأحضر سارية علَم جديدة. أنتَ تعيش في كانيلماكي، أليس كذلك؟ إنها قريبة وفي طريقي إلى المتنزه أساسًا».

- كيف عرفتِ أنــ...؟

- أنك في المنزل؟ الساعة العاشرة والنصف، ولم تكُن في العمل وقتما غادرتُ منذ فينةٍ قصيرة.

استدرتُ ثانيةً ونظرتُ إلى الساعة فوق الباب الأمامي. لم أتأخر في النوم إلى هذا الحد منذ... الأزل في الحقيقة. أطلَّ شوبنهاور في الرواق. تمطَّط وتثاءب، ثم راح ينظر حوله كأنها أول مرة يرى فيها هذه الشقة. وبطريقة غريبة، يمكنني الشعور بحضور لورا هيلانتو على الطرف الآخر من الهاتف، رغم أنها ليست تقول شيئًا.

- ما زلتُ لم...

ودفعة واحدة، شعرتُ كما لو أن الحياة والعالم أخذاني وشوبنهاور على حين غرة، وأننا أفقنا على شيء غريب جدًّا وغير مألوف حد أننا لم نعُد نعرف من نحن.

- يمكنني الانتظار. في الحقيقة، ثمة أمر أريد محادثتك حياله، وبما أنني سأوصلك، فأمامك متسع من الوقت لإعداد القهوة. سأجلب بعض كعك القرفة وأراك في غضون خمس عشرة دقيقة، اتفقنا؟

نظرتُ إلى شوبنهاور، ونظر إليَّ، وسمعتُ نفسي أقول: «أخال أن بوسعي تدبُّر ذلك».

وبعد انتهاء المكالمة بخمس عشرة دقيقة بالضبط، رن جرس الباب.



داهمتني الرائحة المزدوجة للورا هيلانتو وكعك القرفة. كانت لورا بشعرها الكثيث ونظارتها الكبيرة سوداء الإطار جالسة إلى الطرف الآخر من الطاولة، وكعكعات القرفة بحجم صحون العشاء في المنتصف، ومُحضِّرة القهوة تبقبقُ بعيدًا، وأنا أعاني كل المشقة في محاول ضبط نفسي. لسببٍ ما، شعرتُ بالحاجة إلى تفسير علة تأخري في النوم إلى هذا الحد، وأن هذه ليست مسألة فرط نوم تافهة، وأن السبب الحقيقي هو أنني نفذتُ بجلدي على شواطئ بِركة كالحةٍ بعشرة آلاف يورو، أخذتُ نصفها -عُربونًا- من صرافٍ آليٍّ في جدار متجرٍ ضخمٍ لم أره قبلًا، وأنني كنتُ متعبًا بالفعل من قلة النوم في الليلة السابقة وقتما، دفاعًا عن النفس، قتلتُ رجلًا بأذن أرنبٍ هائلة، أرنبٍ وصفتِه بخاصة على أنه «مُتقلب»، ولأن جرَّ جثة الرجل إلى الثلاجة في مطبخ المقهى كان عملية استغرقت ساعتين وتطلبت جهدًا جسديًّا قاسيًا، لكن بدلًا عن ذلك، ظللتُ هادئًا، ورفعتُ يدًا لأتحقق من استقامة ربطة عنقي ولاحظتُ أن يدي ترتعش.

قالت لورا: «آسفة»، للمرة الثانية، إذ اعتذرت أول مرةٍ لحظة دخولها الرواق، عندما وضعت حقيبة ضخمة على الأرض وناولتني كيس الكعك، «لكنه أمرٌ كنتُ أفكر فيه منذ وقت طويل، والآن أُنجزَت كل أعمالي الأخرى وتمَّت، وكل ما أحتاجه هو... أما عن هذا، حسنًا، دعوة نفسي والمجيء بهذه الطريقة...».

قلت: «لا أُدخلُ إلا من أرغبُ بدخولهم»، وهذه هي الحقيقة.

نظرت لورا هيلانتو إليَّ بتينك العينين الزرقاوين المخضرتين ورسمَت ما يقتربُ من الابتسامة: «حسنًا، من الجيد معرفة ذلك».

قلت: «بلى»، وأومأتُ برأسي لأنني عاجزٌ عن التفكير بأي شيء آخر أقوله، وقد بدأتُ أشعر بارتباك واضح. لم أنسَ بعضًا من لقاءاتنا، والأشياء التي قالتها، ونظرة الدهشة على وجهها عند باب مكتبي البارحة. هذه الأمور تزعجني، لكنني بطريقة ما عاجزٌ عن اكتناهها.

قالت فجأةً: «سيكون منظرُ السارية الجديدة عظيمًا»، كأنها كانت موشكة على قول شيء آخر لكن انتهى بها الأمر بهذا، ثم أخذت إحدى الكعكات

ووضعتها في صحنها، «وهي أصلبُ من سابقتها، فقد أكدوا لي في المتجر أنها ستصمدُ إذا ما صدمها أحدهم عن طريق الخطأ في أثناء رجوعه».

قررتُ ألا أذكرَ أن احتمال كونها حادثة صفرٌ تقريبًا. أكلتُ كعكتي وارتشفتُ رشفة قهوة. أكلت لورا هيلانتو أيضًا وراحت تُنقِّل نظرها، وبدا أنها تولي اهتمامًا خاصًّا لغرفة الجلوس. كنا جالسين بين المطبخ وغرفة الجلوس تقريبًا، إذ كان ذلك الحل الأكثر عمليةً، لأن ضيق المطبخ المستطيل يجعله لا يتسع لطاولة عشاء والديَّ القديمة، بينما غرفة الجلوس بعيدة أكثر مما يجب عن العناصر الأساسية للعشاء، مثل الثلاجة والفرن والمايكرويف، والآن مُحضِّرة القهوة.

قالت: «أرى أنك من مناصري الحدنوية»، وصرتُ أنظرُ ناحية غرفة الجلوس أيضًا.

في ضوء الصباح الساطع، تبدو الأشياء أكثر تباعدًا بعض الشيء مما تبدو عليه عادةً. تضم الغرفة كنبة طويلة مُنجَّدة بفرشٍ أزرق فاتح، وكرسيًّا ذا ذراعين مطابقًا لها، وبجوار الكرسي ينتصبُ مصباحُ أرضيةٍ معدني، وبين الكنبة والكرسي طاولة قهوة صغيرة. على أحد الجدران الأطول ثمة خزانة كتب، وعلى الجدار المقابل لوحة ضخمة، نسخة من أوراق نشرها غاوس، مغطاة بمعادلات وقوانين مكتوبة بخط اليد. يمتد بساط رمادي فاتح على الأرض، ومظلة مصباح من ورق الأرز تتدلى من السقف. عليَّ أن أعترف أن لا شيء جديد، لكنني أشك أن هذا ما كانت تعليقات لورا هيلانتو تشير إليه، وقررتُ أن المسألة ربما تُبيح شيئًا ما من قُبيل التفسير.

فباشرتُ حالما ابتلعتُ لقمة الكعك: «لقد حسبتُ مرةً قدر استخدامي لكل مادة منفردة من الأثاث، وبناءً على هذه الحسابات، صغتُ نموذجًا لنسبِ كلٍّ من الاحتمال والتكاليف والفوائد لأي مقتنيات جديدة ممكنة، وكانت النتائج واضحة. فاحتمال الجلوس على كرسي آخر أو وضع كتابٍ على طاولة قهوة أخرى في معرض أسبوع مختارٍ عشوائيًّا صغير صغرًا لا نهائيًّا، والوقتُ المقضي في الجلوس على الكرسي مجهري للغاية، إلى حد عجزي عن الدفاع عن المقتنيات بأي حجج اقتصادية منطقية أو عقلانية».

توقفتُ قليلًا، ثم أردفتُ: «وليس أنني كنتُ أتطلع إلى شراء أي أثاث جديد، فلدي أثاث بالفعل، كما ترين».

بينما كنت أتكلم، نقلت لورا هيلانتو نظرها من غرفة الجلوس إليَّ، وهل كانت تلك ارتعاشةُ ابتسامة على زاويتَي فمها؟ ظننتُ في البداية أن وصول لورا كان مفاجئًا في المقام الأول، لكنني أدركتُ الآن أنني أحده شائقًا بطريقة جديدة كليًا. ثم تذكرتُ شيئًا.

- قُلتِ إن ثمة أمرًا تريدين الحديث عنه.

بدا على لورا هيلانتو أنها تذكرت ذلك أيضًا، وظهرَت لى جانب بهجتها المعتادة لمحة شكٍّ.

وباشرَتِ الكلام: «صحيح، لستُ واثقة أنه معقول كل النقل»، مشددةً على كلمة معقول لتكون تقريبًا كل ما سمعتُه، «إنه أقرب إلى... اقتراح عاطفي، أو آمل على الأقل أنه كذلك. ربما إن أريتُك...؟».

أومأتُ لها أنْ تفضَّلي، فنهضَت وجلبت حافظة أوراقها من قياس A3 من الرواق، وفي طريق عودتها، بدا أنها توقفت هنيهةً لتنظر إلى حسابات غاوس. وجدتُ نفسي آملًا أن تسألني سؤالًا ما عنها، لكنها لم تفعل. أزاحَت الصحون لتُفسح مجالًا في منتصف الطاولة وطلبت مني الوقوف. وقف كلانا بجوار الطاولة، وحلَّت لورا سحَّاب الحافظة، ثم فتحت المجلد داخلها وأرتني صورة ضوئية من قياس A3 لمتنزه المغامرات. إلا أنها ليست صورة ضوئية، إذ أضيفت أشياء لها: تصاميم جامحة وألوان خيالية.

شرحت لورا بينما تقلب الصفحات: «هذه جداريات، لوحات حائطية. أرغب بالرسم على جدران متنزه المغامرات، وهذه ليست إلا رسمًا أولية سأصمم منها جداريات نهائية. كنتُ أحاول الجمع بين طريقة الجرافيتي وتأثير عدد من الفنانين الذين أُعظِّمهم. إنها مختلفة كثير الاختلاف عن اللوحات التي أرسمها عادةً، لكن ذلك مردُّه إلى رغبتي بأن تلائم بحقٍّ شخصية متنزه المغامرات، وإيقاعه، الحس الطفولي باللعب والمغامرة، كما يقترح اسم يُو مي فَن، إضافةً إلى أنها ستنسجم حق الانسجام مع المساحات المختلفة. إنها شكلٌ من أشكال التنصيب، كما أفترض، رغم أن الكلمة نحمل عادةً معنى مختلفًا إلى حد ما».

سمعتُ في صوتها أنها عادَت إلى نفسها المتحمسة المعهودة. نظرتُ إلى الصور، وفي رأيي، لم يكُن لما أراه أي معنًى، لكنني عجزتُ عن الكف عن النظر إليها رغم ذلك.

قالت: «هنا»، ونقرت بإصبعها الزاوية العلوية اليسرى للصورة الثالثة، «يمكنك أن ترى تأثير لي كراسنر، وإن كان الإسنادُ مواربًا بعض الشيء، بينما في الصورة التالية نصير بجلاءٍ في عالم دوروثيا تانينج. لقد سميتُ الجدران طبقًا لذلك، فيكون هذا جدار كراسنر تخوض متنزه المغامرات وذاك جدار تانينج تستقل القطار، لأن الجدار سيكون خلف قطار الكومودو تمامًا. جوهريًّا، بطريقة أو بأخرى، كل جدار يحكي عما يحيط به. ثمة ستة إجمالًا: كراسنر، وتانينج، ودي ليمبيكا، وفرانكنثالر، وأوكيفي وجانسون. طول كل الجداريات بين أربعة أمتار إلى اثني عشر، وكلها ارتفاعها أربعة أمتار. سأضطر إلى توظيف شخصٍ ما ليساعدني في خلال مرحلة العمل، لكنني واثقة بإمكانية إنجازه في غضون شهر، وأعني إلى جانب عملي الخاص. سأرسم في الليل، إن اضطر الأمر، بعد إذنك. والتكاليف معقولة جدًّا أيضًا، لأنني سأعمل بطلاء الجدران العادي، فيما خلا قلة قليلة من الأماكن، حيث سأضطر إلى مزج شيء مخصص. أُقدِّر أن بوسعنا إبقاء التكاليف ضمن حدود ميزانية التجديد القياسية. إنني ببساطة أحب الجدران في الردهة الكبيرة، وقد كنتُ أنظر إليها منذ البداية، لكن من دون أن أعرف حقًّا ما الذي أرغب بفعله بها. والآن بتُّ أعرف. وهذا سبب رغبتي بالمجيء وطرح هذه الأفكار عليك. مباشرةً».

كنتُ لم أزل أحدق إلى الصور وقتما أدركتُ أن لورا قد توقفت عن الكلام، وعلاوةً على ذلك، أدركتُ أنني أبتسم. ومثلما حدث وقتما نظرتُ إلى الصورة الصغيرة على هاتفها، شعرتُ برغبة تكاد تكون لا تُقاوم بالاستمرار في النظر إليها، لأنني أرى المزيد بمرور كل لحظة. وهذا فضلًا عن حقيقة أن لوحات لورا هيلانتو، التفافاتها وأنماطها، بكل بساطة تبهجني وتسرُّني من دون أي سبب قيِّم أو عملي، ولا يمكنني تفسير شعوري بأنها في هذه السياق مقبولة للغاية، صحيحة للغاية، رغم أنني في كل شيء آخر أرفض السلوكيات غير

المنطقية وغير العقلانية المشابهة. ولا يمكنني أيضًا منع نفسي من التقاط الأوراق والتقليب فيها. ثم سمعتُ نفسي أقول: «أحببتُ هذه أكثر من الكل. لا، إنها هذه حتمًا».

وهلمَّ جرًّا. ورغم صعوبة الأمر، تدبرتُ أخيرًا إغلاق المجلد. رأيتُ أن لورا هيلانتو تحاول الاستجابة لابتسامتي، لكن التوتر والاضطراب واضحان عليها، وهذا يجعلنا اثنين، فأنا دائمًا متوتر ومضطرب متى ما كنت بجوارها. ثم قلت شيئًا لم أكُن لأتصور أن أسمعه مني قط: «هذا ليس منطقيًّا البتة، لكن يجب فعله».

ما حدث بعد ذلك كان أكثر تطرفًا حتى، إذ صاحَت لورا هيلانتو -صيحة نصرٍ ربما، كلمة أجل العالمية الشائعة- وألقَت بذراعيها حولي، ثم جذبتني إليها معتصرةً إياي بشدة. كانت الاعتصارة عنيفة، فارتطم واحدنا بالآخر، وشعرتُ بالدفء، بإحساس قُربٍ في أجزاء كثيرة من جسدي حد أن كلمة «شمولي» لن تكون بلا مسوِّغ بالكامل. أمكنني شمها، والإحساس بها، بذراعيها، وجسدها، وسمعتُ الشهقة الظافرة قريبةً جدًّا من أذني حتى إني كنت متأكدًا من شعوري بدفء نفَسِها على طبلتها. رائحة شعرها، وجسدها، وملابسها، كلها يمكن تمييزه أرائج مستقلة، ذلك أنها اقتربت زيادةً وظلت قريبة لبضع ثوانٍ جيدة، ورجَّعت هذه الثواني صدًى كنغمات أبراج النواقيس. ثم أفلتتني، وتراجعت خطوة، وهزت ذراعيها معتذرةً للمرة الثالثة في خلال هذه الزيارة.

- لقد استبدَّت بي مشاعري. أنا سعيدة جدًّا. أنت مختلف جدًّا عن بقية الناس... أنت...

- أنا أكتواريٌّ. (خرجَت الكلمات بمشيئتها الخاصة).

قالت: «بالضبط»، صارخةً تقريبًا، «أنتَ عمليٌّ، حادٌّ بعض الشيء وجديٌّ بحزم، ومع ذلك بالغ الكياسة واللطف و... وجدير بالاعتماد. أتعلم مدى نُدرة ذلك؟ أأعجبتك لوحاتي حقًّا؟».

قلت: «لا»، وأدركتُ من فوري أني أجبت السؤال الأول، ثم حاولتُ تدارك الموقف، وبفعلي ذلك قلت شيئًا في أشد التناقض مع شخصيتي، «أحببتُ لوحاتك».

أعرف أني كنت واقفًا في منتصف غرفة جلوسي الخاصة، وربطة عنقي أنيقة، لكنني شعرتُ مع ذلك أنني خطوتُ إلى عالم جديد، عاريًا تمامًا، ومجردًا من أي حماية.

5

عصبوا عينيَّ هذه المرة، وثبَّتني أيه كيه من يدي ثانيةً. لقد بتُّ معتادًا الأمر، ما يبدو في حد ذاته شاذًّا كل الشذوذ. لكن ها نحن أولاء، في الطريق مرة أخرى. كان الهواء في السيارة باردًا ولاذعًا، والتقطتُ رائحة كولونيا باهظة ومُعطر جو بعبير غابة صنوبر. أمكنني الشعور بتسارع السيارة في جسدي، وبالمكابح والمنعطفات، ولم يكُن لعَصْب عينيَّ علاقة بالتوقيت من النهار، فقد بدا ذلك واضحًا وقتما تلقيتُ تعليمات بالوقوف في مرأب سيارات الطاقم الواقع خلف متنزه المغامرات في العاشرة والنصف ليلًا، ولم يقل أحدٌ شيئًا.

كان يومًا عاديًّا، عاديًّا بالقدر الذي تبلغه أيامي في الوقت الراهن. قضيتُ الصباح أتعلم عن الفن، وكنت قد وافقتُ على تحويل متنزه المغامرات واستمعتُ إلى تفسير أكثر تفصيلًا عن الكيفية التي سيجري بها الأمر. قادَت لورا هيلانتو بنا إلى المتنزه، وبالنظر إلى الماضي، أرى الشعور كأنني كنت في نشوةٍ وقضيت الصباح بطوله أحيا حياة شخص آخر. في الظهيرة، حاولتُ إيجاد برهة في مفكرة يوهانا تبتعد فيها عن المقهى والمطبخ حتى يتسنى لي التحقق من حالة الهاتف في قعر الثلاجة، لكن لا فرصة مشابهة على الأبواب، فيوهانا متفانية ومُجدَّة أشد ما يكون. وزرتُ إيسا في غرفة التحكم أيضًا.

كان الهواء في غرفته عِفِن الرائحة، وتعلمتُ بضعة أمور مهمة: أولها أن من بين كل الكاميرات الموضوعة خارج المبنى، ثمة واحدة تعمل فقط، وثانيها أن إيسا لا يتحقق بصورة روتينية من التسجيلات الليلية للكاميرات إلا إن وُجِد سبب محدد، التي بأي حال تمحو نفسها تلقائيًّا بعد أسبوع. لم أطرح

أي سؤال مباشر، إنما تركتُه يتكلم وحسب، فالناس يتكلمون إذا ما سُئلوا عما إن كانوا يحتاجون إلى زيادة في الميزانية السنوية. لم يتعيَّن عليَّ إلا الجلوس هناك والتنفس عبر فمي، فالهواء في الغرفة الصغيرة يحوي كميات كبيرة من الكبريت، والكبريتُ يسبب موجة من الغثيان إذا ما استُنشقَ أنفيًّا.

قُدنا عبر طريق معبد متعرِّج هادئ لم أسمع فيه أزيز أي سيارة عابرة، وراح ثقل جسمي يتنقل من جانبٍ لآخر بينما نتحرك عبر الليل تحرُّكًا شبه صامت. ثم شعرتُ بسرعتنا تتباطأ، وبدأت الحصاة تنطحن تحت العجلات. توقفنا بعد ذلك بقليل، وانطفأ المحرك، فأطلق أيه كيه سراح يدي، وكانت قبضته واسعة حد شعوري أنني استعدتُ ذراعي بعد أن أعرتها لأحدهم لبعض الوقت، ثم فُتحت أبواب السيارة وأُغلقَت، وفتح شخص ما الباب على يساري.

قال الرجل العظاءة: «اخرج».

مددتُ قدمي خارج السيارة، فجذبني أيه كيه ممسكًا إياي من كتفي، ولبرهة، شعرت بوجود حصاة تحت حذائي، ثم صار تحتها شيء صلب. انعطفنا بعد ذلك بضعة انعطافات حادة وتوقفنا، وشممتُ رائحةً لم أكُن متأكدًا من ماهيتها، ثم انتزع أيه كيه العصابة عن عينيَّ.

كنا في حظيرة قديمة. رحتُ أفتح عينيَّ وأغمضهما بينما تتأقلمان مع الإضاءة، ووقف كلٌّ من الرجل العظاءة وأيه كيه خلفي. كان البناء ضخمًا ومرتفعًا، وثمة أرضية خرسانية تحت أقدامنا وجدران مصنوعة من الأضلاع الخشبية حولنا، ومصابيح معلقة بدعامات طويلة ثابتة تمتد عبر السقف. رأيت منظومة من الآليَّات، كل شيء من الجرَّارات إلى كاسحات الثلج، والكثير من الحثالة المُنسَّقة أيضًا، لكن ضاعت معالم الأغراض في الضوء الخافت، ما جعل أي معاينة أقرب مستحيلة. جُذب انتباهي إلى اتجاه الساعة التاسعة مني وإلى رجل يصدر سلسلة من أصوات التفْل الغاصَّة.

بدا الحبل مُحكمًا، يمتد من عنق الرجل صعودًا إلى إحدى الدعامات، ثم يهبط، أنيقًا كوتَر كمان، هبوطًا قطريًّا إلى حيث يتصل بمؤخرة دراجة رباعية العجلات مركونة على بُعد عشرة أمتار تقريبًا. كان الرجل يتأرجح على خشبة متداعية مسنودة من طرفٍ واحدٍ، وصعوبة حفاظه على توازنه واضحة للعيان، لثلاثة أسباب على الأقل: الأنشوطة تزداد ضيقًا حول عنقه، والأرض

والطرف الرفيع للخشبة غير متراصفَين كما يجب، ويدا الرجل مربوطتان خلف ظهره. بدا أكبر سنًّا مني، وكان ذا بنية معتدلة وشعر أشقر، ويرتدي قميص بولو بيكيه سماوي اللون وسروالًا بُنيًّا فاتحًا، وينتعل حذاءً جلديًّا بُنيًّا، وعلى نحو مفهوم، كان وجهه أحمر قانيًا. إن قلتُ إنه في حالٍ سيئةٍ، ففي قولي ما يشبه الاستهانة.

واتضح لي أنني لستُ واثقًا بمدى صلاح حالي أيضًا، فأنا من طلب هذا الاجتماع، وأدركتُ منذ البداية أننا سنعقد الاجتماع وفق شروطهم، كائنًا من كانوا. لكن إن كانت هذه هي الشروط...

سمعتُ وقْع أقدام، وبعد لحظة، رأيتُ في خلال العتمة زوجين ضخمين ذوَي لون أخضر قاتم من جزم ويلينغتون يتحركان ناحيتنا بخطواتٍ ثقيلة ثابتة العزم، ثم بزغ جسمٌ من الظلام في الطرف الآخر للحظيرة. لا بد أن الجزمة كانت من مقاس خمسين على الأقل. رأيت بعدئذ زوجين من الأفرولات السوداء وقميصًا صوفيًّا أحمر وأسود، وبانَ الوجه أخيرًا، مُتسقًا ومُزوًّى في أعلاه وحادًّا في أسفله، مثل مجرافٍ قديمٍ مُدَّ عليه جلد، وعلى صفحة المجراف ثمة زوجان من العيون. لم يبدُ الوجه سعيدًا على وجه الخصوص، ولم يُلقِ الوجه نظرةً حتى ناحية الرجل الذي يتوازن فوق الخشبة عندما عبره، وعندما توقف الرجل الضخم أمامي، وجدتُ نفسي أفكر في أنه يجعل شخصًا بطولي يشعر أنه قصير. أطلق الرجل الذي يتأرجح على الخشبة صيحة مكتومة أخرى، ما جعل الرجل الضخم يُدير رأسه، بعض الشيء فقط، ثم حوَّل انتباهه إليَّ.

قال: «كنا في خضم مفاوضة»، بصوتٍ خفيض وهادئ.

- صحيح.

- لا يُزعجنَّك.

- لن يفعل.

- عندك اقتراح.

- بلى. كنت أُجري بعض الحسابات...

وفي تلك اللحظة سمعتُ الخشبة تصرُّ صريرًا مشؤومًا على الأرض الخرسانية، فسألت: «كم من الوقت أمامي؟ تحتاج المسألة قدرًا معينًا من المعلومات الأساسية».

ظل الرجل الضخم منصتًا، أو على الأقل، هكذا فسرتُ وجهه الجامد.

- جيد. يظهر أنني لم أرث شركة مديونة كثير الدين وحسب، بل جميع ديون أخي لك كذلك، ويظهر أيضًا أنك تعمل في الغالب الأعم بالاقتصاد القائم على النقد، وما زلت رغم ذلك تنتظر فوائد على ودائعك. يمكن لهذه المسائل الأربع -ديون متنزه المغامرات ومتأخرات الضرائب، وديون أخي غير الرسمية، ومشكلات النقد، وترقبك الزيادة في ذلك المال- أن تُحل جمعًا عبر دمجها في واحدة.

بدا أن الرجل الضخم ما يزال منصتًا. نظرت إليه، لكن الرجل الأنَّان المترنح إلى يسار وجهه جعلني أرغب بالنظر إلى مكان آخر، إلى أي مكان آخر بدلًا عن ذلك. لاحظتُ أنني عاجز عن سماع أي صوت من الخارج، وأي صوتٍ يمكنه بكل تأكيد اختراق الجدران المُضلَّعة، ما يعني أننا بعيدون عن أي حركة سير، عن أي منزل. مُنعزلون.

قلت: «يُو مي فَن هو الحل».

استدار الرجل الضخم لينظر إلى الرجل العظاءة، ثم عاد بانتباهه لي ثانية.

- غسل أموال؟

- لا يروق لي التفكير في الأمر بهذه الألفاظ. وأيضًا يا سيد إإإ... ما قد تعتبرُه غسل أموال...

فقاطعني قائلًا: «لا داعيَ للرسميات، نادِني يوني».

- أنا هنري.

- أعرف.

بالطبع يعرف.

- ما تراه أنت، يوني، غسل أموال، هو في اقتراحي، محض مسألة مبيعات. وتلك البداية فقط. في المرحلة الأولى، أبيعك تذاكر.

- تذاكر؟

- تذاكر دخول، إلى متنزه المغامرات. خمسين ألفًا منها مبدئيًّا.

سمعتُ الرجل العظاءة يضحك، وكانت ضحكته جلِفة تهكُّمية ازدرائية. لا تخدم ضحكة كهذه إلا غاية واحدة: الإشارة إلى غباء شخص آخر، وانتبهت إلى أن الرجل الضخم لم يضحك.

ثم سمعتُ الرجل العظاءة يهمُّ بقول: «إن هذا الشخص لمهرج حقيقي لعين...»، لكن الرجل الضخم، يوني -إن كان هذا اسمه حقًّا- رمقه بنظرةٍ لم أسمع بعدها حِسَّه.

- سأبيعك تذاكر الدخول بحسمٍ سخيٍّ: عشرة يوروهات للواحدة، وهذا يتضمن كعكة اليوم الحلقية في مقهانا.

كانت نيتي تلطيف الجو، لكن لم يبدُ على أيهم التسلي ولو قليلًا.

- على أي حال، تمثل هذه التذاكر حقنًا نقديًّا قيمته خمسمئة ألف يورو في بيان موازنة المتنزه، وهذا يعني أن المتنزه سيكون قادرًا على دفع ديونه، ما يعني بدوره اقتدارًا ماديًّا، والذي سيمكن المتنزه من اقتراض قرضٍ آخر لأنه سيكون من الناحية العملية مُجديًا ومُربحًا. ستكون معدلات الفائدة -الرسمية أعني- منخفضة جدًّا في هذا الوقت، أي أن المال مجاني جوهريًّا. ثم نستخدم هذا القرض الجديد لإنشاء شركة فرعية، أي سنؤسس شركة تعمل ضمن متنزه المغامرات و...

- سيتحول المال إلى المصرف؟

- في المرحلة الأولى، بلى، بالتأكيد.

سأل الرجل الضخم: «أهذا اقتراحك؟».

- لا. اقتراحي هو أن المال سيخرج من المصرف.

نظر الرجل الضخم إليَّ، ووجهه المجرافيُّ فولاذٌ باردٌ صِرفٌ. فقلت ما جئت لأقوله، ما لا أظنه سينقذ عقار أخي وحسب، بل حياتي أيضًا.

- سنصير مصرفًا.

عمَّ صوتُ انفلاق خشبٍ، إذ فقد الرجل ذو الأنشوطة حول عنقه توازنه، إما سقط وإما سقطت الخشبة، ثم أطلق صوتًا، بين نبحة كلبٍ وصيحة

طائر الغوَّاص القطبي، لكنه اختُصر فجأةً، وراح الرجل يرتعش كأن صاعقةً تضربه مرارًا وتكرارًا. لم تتحرك الدراجة الرباعية، ولم يرتخِ الحبل، بل أخذ يصرُّ فوق الدعامة السقفيَّة.

فأشحتُ بنظري. تسارع نبض قلبي، وعجزتُ عن التنفُّس. مرت الثواني ثقيلة، كلٌّ منها تحتاج زخمًا خاصًا بها لتعبر إلى التالية. في هذه المرحلة، يمكنني القول إن الأمسية لم تسِر كما خططتُ له تمامًا. وبطبيعة الحال، لا أعرف كل ما يمكن معرفته عن إنشاء شركة، لكن لا يمكنني تصديق أن كل هذا تمهيدٌ مُسهبٌ لشيء آخر. مر وقتٌ طويلٌ طولًا لا يُحتمل، وحل السكون على الحظيرة في نهاية الأمر. ثم سأل الرجل الضخم: «مَن 'نحن'؟».

التفتُّ إلى يساري، ورأيتُ الرجل يتأرجح بهدوء عند نهاية الحبل، ثم نظرتُ إلى الرجل الضخم. ربما من الأفضل ألا أقول إن 'نحن' تعني الباقين على قيد الحياة منا. فأجبت: «أنتَ. أنتَ و... أنا. سنُقرض الناس المال».

- أنا أقرض الناس المال بالفعل.
- وهذه هي المشكلة بالضبط، ذلك أن تلك القروض بلا حماية قانونية، والنقد يعاني المشكلة نفسها، بصرف النظر عن الاتجاه الذي ترسله فيه. حل هذا هو مصرف يقدم قروض يوم الدفع.

ضحك الرجل العظاءة ثانيةً، وثانيةً كانت ضحكته قصيرة ومُستهينة، ولم يُولِه الرجل الضخم أي اهتمام.

قلت: «في الحقيقة، هو مَن أوحى لي بالفكرة في المقام الأول».

ثم ألقيتُ نظرة ناحية الرجل العظاءة، وكانت سحنته أكثر عدائية من أي وقتٍ مضى، فخطر في بالي أنني موشكٌ بطريقة أو بأخرى على التعدي على منطقة نفوذه. ثم أضفتُ: «واتضح كل شيء لي عندما كنتُ أبيع التذاكر في المتنزه. في البدء، دار الأمر حول الفائدة على قرض أخي الأصلي منك، إذ لم يسعني منع نفسي من التفكير في أن معدل الفائدة بدا... فاحشًا للغاية. باختصار: ننشئ شركة تمنح قروض يوم الدفع برأس المال الذي سيحصل المتنزه عليه عبر كمية مبيعات التذاكر الزائدة، ثم نقدم لزبائننا قروضًا صغيرة يمكنهم تلقِّيها مباشرةً، فيزداد قوام زبائن القرض، مثلما يزداد قوام زوار المتنزه عمومًا، كما أعتقد، لأن الناس سيحظون مباشرة بمال إضافي تحت

تصرفهم. وعندما تزداد أرقام المبيعات، يمكننا إما منح المزيد من القروض وإما يمكنني سد دين أخي لك. بهذه الطريقة، لن تتلقى المبلغ الأصلي من القرض وحسب، بل معدل الفائدة على كل القروض الأصغر كذلك. والأهم من ذلك، هو أن كل هذا المال قانوني وعلى المكشوف».

فقال الرجل الضخم: «من الواضح أنك خصصت لهذا بعض التفكير».

لم أحتج إلى النظر إلى الرجل المُدلَّى، ذلك أنني تذكرتُ أحد تعبيرات بيرتيلا الطنانة المفضلة، فقلت: «إنني متحفز للغاية».

- لكن الآن بعد أن سُوِّي كل شيء، فيمَ حاجتي إليك؟

دائمًا ما أحمل لهذا السؤال إجابة مستعدة في جعبتي: «أنا أكتواريٌّ».

ضحك الرجل العظاءة للمرة الثالثة، لكن الضحكة هذه المرة متصنِّعة، والسخرية غير واثقة بنفسها بعض الشيء.

- وبهذا، أعني أن مهاراتي الحسابية من أعلى المستويات، وعليه، فهي لا تُقدر بثمن بالنسبة إليك: أنا جديرٌ بالاعتماد مئة في المئة. وأفترض، بناءً على ما، إن جاز لنا القول، رأيته واختبرته شخصيًّا في الأسابيع الأخيرة... أفترض أنني الشخص الوحيد بلا سجل إجرامي في هذه الغرفة.

هذه المرة لم يضحك أحد، ولم ينبرِ أحد للدفاع عن شرفه أو سمعته. لعلي أصبتُ وترًا حساسًا. لعلي أنقذتُ حياتي للتو، فأردفت: «أنا الوحيد بيننا القادر على تأسيس خدمة إقراض مال وأنا الوحيد القادر على حساب كل شيء».

ظلت الحظيرة صامتة.

- قد نستفيد من رجل كهذا في ظروف معينة. إن كان الاقتراح مناسبًا.

وماذا إن لم يكُن؟ أستكون أنشوطتي مربوطةً بالدراجة الرباعية نفسها أم بغيرها؟

صمت الرجل الضخم قليلًا، ثم سأل أخيرًا: «ما أقرب وقت؟».

- أقربُ وقتٍ لمَ؟

- أقربِ وقتٍ لترى إن كان هذا مُجديًا أم لا؟

قلت: «أسبوعان من شروع المصرف بالعمليات»، رغم أن حساباتي الأصلية كانت قائمة على مرحلة بدئية قوامها شهر، لكن ذلك في الوقت الراهن يبدو طويلًا أكثر مما يجب.

- وماذا إن أخفق كل شيء؟

- لقد أخذتُ ذلك في الحسبان أيضًا. لن يخفق، فإن لم يقترض أحد قرضًا، تظل بحوزتك أموال قانونية نظيفة بقيمة الاستثمار الأصلي. وذلك، على الأقل، مكسب. وإن لم يُسدد الناس، في هذه الأثناء، قروضهم وأفلس المصرف، ما لا أراه مُرجحًا البتة، يلعب متنزه المغامرات دور ضمان، ما يعني ثانيةً أنك ستسترد قيمة الاستثمار الأصلي على الأقل. ومرة أخرى، كل هذا المال فوق الطاولة.

ألقيتُ نظرة سريعة ناحية الرجل العظاءة. لم يبدُ راضيًا على الإطلاق، بل بدا كأن عاصفة تجيش فيه.

سأل الرجل الضخم: «وماذا يحدث إن لم تكُن معدلات العائد بالعلو الكافي؟».

لا إراديًا، لمحتُ الرجل المُدلى، فقلت ما عليَّ قوله: «هذا لبُّ فكرتي. أعتقد أننا سنتمكن من إيجاد وسط موارِبٍ يُرضي الجميع...».

- ما المُرضي في ذلك؟

لم أكُن قد نسيتُ الأب الذي جاء بسيارته الأوبل مع ابنته الصغيرة، المتحرِّقة للعب في متنزه المغامرات. فكرتي هي تحديد معدل فائدة يجعل فعل إقراض المال معقولًا لجميع المعنيين. لكن الآن، للمرة الأولى، أرى لمحة تعابير على وجه الرجل الضخم، وبعد دراسة أقرب، لم يكُن تعبيرًا حتى، بل فتح عينيه وأغمضهما بضع مرات.

- ظننتُك قلت إنك أكتواريٌّ، والآن تريد أن تكون مُقرض مال.

شعرت أن نبرة صوته خفَّضت حرارة الحظيرة عشر درجات على الأقل، فقررت أن هذا على الأرجح ليس الوقت الأنسب للحديث عن أهمية مبادئ الصرافة ذات المنفعة المتبادلة، وقلت: «هذا هو بيت القصيد: يمكنني أن أكون الاثنين. الدقة، كل شيء سيكون محسوبًا بفائق الدقة».

نظر الرجل الضخم إليَّ ثانيةً، ومرت عدة ثوانٍ، ثوانٍ يجري فيها اتخاذ قرار فيما يخص قدري. أعرف هذا. كنا في مكان معزول، وفيما عداي والرجل الميت، لا يوجد إلا المجرمون، أي ليست الظروف المثالية لدفقة إيجابية عفوية، كما كان بيرتيلا ليقول. في آخر الأمر، أدار الرجل الكبير رأسه وأومأ ناحية الرجل العظاءة. لم أقدر على منع نفسي من إدارة رأسي والنظر خلفي. أولًا، هز الرجل العظاءة رأسه عدة مرات، ثم تنهَّد وأومأ أخيرًا. أيًّا كان ما وافق عليه، فقد فعل ذلك على أشد المضض.

قال الرجل الضخم: «أكتواريٌّ أم غير أكتواريٍّ. سنراقبك من كثب».

ثم للمرة الأولى، نظر إلى الرجل المُدلَّى من الدعامة السقفية، وعندما نطق أخيرًا، كان صوته جديًّا: «فالمال لا ينمو على الأشجار، كما تعلم».



كانت رحلة العودة تكرارًا للمجيء: عُصبت عيناي وقُدنا أولًا عبر طرقات أصغر، وما زالت رائحة السيارة كولونيا ومعطر جو غابة الصنوبر. نفث مكيف الجو هواءً مثلجًا جافًّا على فخذيَّ ووجهي، وثبتني أيه كيه من يدي. لم يتكلم أحد، لا أحد إلاي، حالما بلغنا واحدًا من الطرق الأوسع، الأمر الذي استنتجته من هدير حركة السير والسيارات العابرة.

سألت: «من كان ذاك الرجل؟».

فأجاب الرجل العظاءة من فوره تقريبًا: «عالم الرياضيات الأخير».

6

عندما أبلغتُ إيسا بالأنباء، بدت عليه علائم خيبة الأمل، كأنه يحاول ابتلاع شيء مُزوًّى شنيع الطعم، لكن ظل صوته هادئًا.

- إنها مسألة تتعلق بأمن المتنزه، وأمن المتنزه، من مناحٍ عديدة، أشبه بمعركة دفاعية طويلة مديدة، وقوة خط الدفاع تتحدد بقوة أضعف حلقاته. إنني أتعامل مع توصيلات النقد منذ وقت طويل، فهي جزء من استراتيجية المتنزه الدفاعية الشاملة.

- استراتيجية دفاعية؟

أومأ إيسا برأسه: «لقد أعددتُ استراتيجية منذ بعض الوقت، ووافق يوهاني عليها. الاستراتيجية مبنية على أفضل الأنشطة العسكرية من حول العالم».

مرت ثلاثة أيام منذ طرحتُ اقتراحي في الحظيرة الساهرة.

الآن أنا وإيسا في غرفة التحكم التي لا تضيئها إلا مصفوفة الشاشات أمامنا. لم يكُن العمل مرسالًا ماليًّا جزءًا من التوصيف الوظيفي لإيسا قط، وكان يستخدم سيارته رباعية الدفع لأداء العمل من دون تلقي أي تعويض عن مسافة الأميال أو الوقود أو أي شيء يتعلق بذلك. كنتُ افترضتُ أنه سيكون أكثر من سعيد للتخلي عن مهمته الإضافية، لكنني افترضتُ خطأً. ومع ذلك، تظل النقود مشكلة (ناهيك بالجثة في ثلاجة مقهى كيرلي كيك أو حقيقة أنني في أي لحظة قد ينتهي بي الأمر مُدلًّى من عوارض خشبية في حظيرة معزولة). لدي حقيبتان رياضيتان رماديتان مملوءتان بالنقود، والأهم من ذلك

أن المشكلة ليست النقود بقدر ما هي الناس الذين ستقابلهم هذه النقود على امتداد مسيرتها.

ففي مكتب التذاكر، يتلقى كريستيان -ما تزال فينلا في إجازة مرضية- المال عندما يبيع التذاكر، وتُحصي مديرة المتنزه لورا المال في درج النقود وتسلِّمه لمدير الأمن النقدي، إيسا، الذي يودعه في المصرف. أنا الآن مضطر إلى إعفاء الأخيرَين من مهمتيهما، من أجل سلامتهما الشخصية إن لم يكن لشيء آخر، وحقيقة أنني أرغب بإنقاذ كلٍّ من المتنزه وحياتي الخاصة.

بدأت بالقول: «إيسا»، ثم أدركتُ أنني سأحتاج إلى اللجوء إلى دبلوماسية انفراجٍ من شكلٍ ما، «أحترمُ عملك، ولا أريدُ الانتقاص من... استراتيجيتك الشاملة. هذا التغيير الصغير في أولويات الدفاع سوف...».

- متنزه المغامرات ليس في موقف هجومي، صحيح؟

- عفوًا؟

- إننا ندافع عن منطقتنا دفاعًا مقنعًا، وهذا كافٍ.

كانت الأيام الثلاثة المنصرمة مكتظة عن آخرها، فقد كنتُ أدير متنزه المغامرات، وأُجري الحسابات، وأملأ الاستمارات، وأنشأت العديد من التصاريح الضريبية، وقدمتُ التوثيق اللازم. عملتُ بصورة عامة على مدار الساعة، فأنشأتُ مسكَ دفاترٍ جديدًا مؤقتًا لمتنزه المغامرات في برنامج إكسل هدفه نشر عائد المبيعات المستقبلي المرتفع بأسلس طريقة ممكنة على فترة مُستدامة من الزمن، ثم، حالما ينتهي الظرف، إخفاء المال الفائض بأسره. وبفعلي ذلك، ذكرتُ نفسي أن النية ببساطة النجاة من ديوننا الحالية، ومراوغة حُكم إعدام مُحتمل وإبقاء مركب متنزه المغامرات عائمًا. زرتُ أيضًا محاميًا اسمه هيسكانين -وهذا اسمه الحقيقي، وفقًا لبطاقته المهنية والفاتورة التي أعطاني إياها- في مكتبه في كاليو وأوليته عددًا من المهام، ذلك أنني أحتاج إلى معرفته بالقانون وإلى بعض التصرف فائق السرعة.

ينبغي لكل شيء أن يكون جاهزًا في بضعة أيام فقط. من الناحية النظرية. لكن أولًا، عليَّ أن أرتِّب...

قُلتُ ناظرًا في عيني إيسا: «سيكافح متنزه المغامرات دائمًا ليكون شركةً مسالمة. أعدُك. ستظل استراتيجيتنا في الحياد وعدم الاعتداء سارية».

جعل الوهج المحموم لشاشات المراقبة عينيه تومضان في وجهه الظليل، وخشيتُ أن يكون المثلُ صحيحًا في حالتي كذلك، ثم حدق واحدنا إلى الآخر لبعض الوقت، ومنحني إيسا أخيرًا إيماءة عسكرية سريعة.

- حسنًا، تولَّ أنت عمليات توصيل النقود، وسأنتقلُ إلى القوات الاحتياطية. لكن تذكر، إن تصعَّد الأمر، ستجدني مستعدًّا دائمًا.

- أشكرك يا إيسا.

جلسنا صامتَين لوهلة إضافية. وبطبيعة الحال، ثمة ألف سؤال أثارته محادثتنا يرفرف في رأسي، لكنني تعلمتُ في وقتٍ قصير جدًّا شيئًا أساسيًّا: لا أريد معرفة كل شيء أو اكتشاف كل شيء. إن كان إيسا قد أعدَّ استراتيجية للدفاع عن يُو مي فَن في حال هجوم عصابات، فهذا جيد. أشك في أن يوهاني قد أولى المسألة كثيرًا من التفكير، وأكاد أسمع صوته يقول: «يبدو هذا رائعًا يا رجل، أحسنت»، بينما يرفع إبهامه لإيسا من دون أن ينصت لكلمة واحدة، ثم وقفتُ، فقال: «سامبر فاي».

تعرفتُ العبارة: «مخلص دائمًا»، شعار سلاح البحرية الأمريكي. من غير المرجح أن أيًّا منا قد خدم في وحدة بحرية نخبوية أمريكية شمالية، وقررتُ ألا أخمِّن جهارًا الاحتمال الإحصائي للأمر، فشكرتُ إيسا على إخلاصه وغادرتُ غرفة التحكم إلى جعجعة المتنزه.

تعج الردهة في أوقات الظهيرة بالأصوات والحركات، وبحلول هذا الوقت، يبدأ بعض الأطفال بالتعب، فيكون كم الدموع ونوبات الغضب أكبر بكثير منه في الصباحات. وفي الأثناء نفسها، يزداد بعض الأطفال حماسة، وينسلون من آخر أصفاد الاعتقال مع دنو وقت الإغلاق. في هذا الحين، يبدو الأهالي الذين وصلوا إلى المتنزه في الصباح بالفعل كأنهم يخططون لارتكاب جرمٍ ما ثم الفرار بسرعة من البلاد.

لم أستغرق وقتًا طويلًا حتى وجدتُ لورا هيلانتو. كانت تحملُ بيمناها شريط قياسٍ ذا مظهرٍ احترافيٍّ، وبيسراها مُجلدًا، وبدا المجلد مألوفًا، فآخر مرة رأيته كان على طاولة مطبخي عندما أرتني تصاميمها. وجدتها مديرةً

ظهرها لي، وأوشكتُ أن أسلِّم عليها لكنني بدأت أشك في نفسي. ماذا لو كانت متعلقة تعلقًا خاصًّا بدورها في شؤون المتنزه المالية؟ جررتُ نفسًا عميقًا، وحضرتُ نفسي لأقول مرحبًا.

استدارت حول نفسها ومنحتني أسرع ابتسامة رأيتها منذ أمدٍ بعيد، وكان للابتسامة الأثر الغائم الشاده نفسه، فاضطررتُ إلى تذكير نفسي بما كنتُ موشكًا على قوله بالضبط.

قالت: «فرانكنثالر».

وأشارت بشريط قياسها إلى الجدار الأسمنتي، فأدرنا رأسَينا بالتزامن، وكان الجدار يحملُ منحنيات وعلامات مختلفة الأشكال بالطبشور الأبيض.

بدأتُ القول: «علينا إجراء بعض التغييرات التنظيمية»، وأخبرتها أنني سأحمل مسؤولية كل عمليات نقل النقود من الآن فصاعدًا، وأنني آمل ألا يكون في ذلك مشكلة.

فقالت وعيناها مثبتتان على الجدار: «بالطبع لا مشكلة، بل على العكس».

ثم استدارَت ناحيتي وابتسمت: «كل دقيقة إضافية يمكنني إنفاقها على هذا لا تُقدر بثمن. أشكرك جزيل الشكر».

أوشكتُ على قول شيء ما، رغم أنني مرةً ثانيةً لستُ واثقًا تمامًا بماهيته، لكنني أضعتُ فرصتي، إذ رنَّ هاتف لورا فأخرجته من جيبها ونظرت إلى الشاشة.

قالت: «دقيقة واحدة»، وأجابت.

ظللنا واقفَين في مكاننا، ثم نطقت لورا بضع كلمات وأنهت المكالمة، وهزت رأسها.

- إنها تولي، ابنتي. كنت أحاول أن أجد لها معالجًا طبيعيًّا مختصًّا بالتعامل مع الأطفال المصابين بمضاعفات ربويَّة. لكن هذا ليس رخيصًا، وما يزال البنك رافضًا منحي قرضًا.

رحنا نحدق إلى الجدار، إلى الأسمنت الرمادي، وعلامات الطبشور الأبيض.

- ثمة معرض مُقام في متحف الأتينيوم للوحات مونيه حاليًّا. سيظل فاتحًا أبوابه حتى الثامنة هذا المساء. ما قولُك؟

كانت ردة فعلي الأولية أقرب إلى الإثارة والأثر المتباطئ الذي تثيره رؤية لورا فيَّ، وردة فعلي التالية تلقائية تمامًا أيضًا، إذ قلت من دون أن أفكر في الأمر مرتين: «الساعة السادسة تمامًا تناسبني».

لستُ واثقًا إن قلتُ شيئًا فَكِهًا أم لا، لكن لورا ابتسمَت بكل حال.

- عظيم. أراك هناك. أيمكنني الانتقال إلى دي لامبيكا الآن؟

أومأتُ وودعتها، وقلتُ لها: «أراكِ في المتحف».

لم أتدبر إلا نطق هذه الكلمات الأخيرة إذ بدأت لورا بالمشي مبتعدةً تاركةً شريطة القياس يطوي نفسه عائدًا إلى علبته. وكنتُ قد قطعتُ الطريق إلى الطرف الآخر من القاعة تقريبًا وقتما سمعتُ أحدهم يناديني.



لقد خرج قطار الكومودو عن سكته، وبصرف النظر عما قد يظنه المرء، ليست هذه كارثة ضخمة، ولم نتكبد أي خسائر بشرية، فقد حُمل الأطفال من عربات القطار ببساطة، ثم موضعتُ نفسي بجوار كريستيان، وحوَّلنا معًا المحرك إلى مكانه فوق السكة.

قلت له عندما ضمنَّا أن المحرك عاد قادرًا على سحب عربات القطار بلا تلكؤ: «لستُ أفهم هذا، كيف يمكن لقطار يمشي بواسطة الدواسات أن يخرج عن سكته؟ لا يمكن للسرعة عند المنعطفات أن تزيد على عشرة كيلومترات في الساعة».

أرسل كريستيان نظره أولًا على امتداد السكة، ثم على طول القطار بكامله. وقال: «تخريب»، بهدوء شديد حدَّ أنني اضطررتُ إلى تركيب الكلمة في ذهني، ثم نظرتُ كذلك إلى القطار المصغر المصنوع من الخشب والمعدن. كان كلام كريستيان غير منطقيٍّ البتة.

قلت: «لا أظن ذلك»، وربما كنتُ موشكًا على قول شيء آخر، لكن كريستيان هزَّ رأسه كأنه يبتغي منعي.

- أتعرف كل طاقم المتنزه؟ كل الزبائن؟ ألديك سنوات خبرة في الجانب التقني لإدارة متنزه مغامرات؟

نظرتُ حولي سريعًا، وسألت بصوتٍ هامس: «إن كان تخريبًا، أثمة أي سبب يبعدك عن ريادة قائمة المشتبه بهم عندي؟».

ومض شيء ما في عينَي كريستيان، ثم اتخذ وقفةً أكثر ثباتًا، وباعد بين ساقيه، فبدت كتفاه أعرض حتى. وهكذا وقف أمامي، جدارًا من العضلات. ثم قال، وأحرفه الاحتكاكية تهسُّ: «لعلمِك، لقد ركَّبتُ قطار الكومودو هذا بنفسي، وثبتُّ تلك المصابيح الحمراء في عينيه ببراغي. لم تكُن موجودة في الأصلي، بل كانت فكرتي. أخبرتُ يوهاني أنها ستضيف حِسًّا من السرعة والخطر، بطريقة جيدة، فوافق يوهاني. رآها يوهاني فكرة جيدة».

بدا كريستيان جادًّا، ومرة ثانية، ظهر عليه الصدق كل الصدق. لا بد لي من الاعتراف أنه لا يبدو رجلًا قد يخرج قطاره عن سكته.

- لمَ قلت إنها لا بد عملية تخريب؟

حدق كريستيان إليَّ لدقيقة إضافية، ثم أشار إلى بداية الانحناء في السكة، فاستدرتُ وسمعته يتكلم من خلفي: «لقد ترك أحدهم فخذ دجاجة أُذيبَ الثلج عنها على السكة، ومن تلك النقطة تزعزع استقرار المحرك، ثم خرج عن سكته بالكامل وقتما صار المنعطف أضيق. كان من الممكن لهذا أن يسبب حادثًا خطرًا أيما خطورة».

أختلف معه بكل احترام بشأن إمكانية حدوث مجزرة كبرى، أما فخذ الدجاج المذاب ثلجها، فتبدو مدعاة قلقٍ أخطر بكثير. المكان الوحيد الذي ينبغي أن تكون فيه أي أفخاذ دجاج هو ثلاجة المقهى.

قلت بسرعة قبل أن يتسنى لكريستيان الإمعان في التخمين: «سأنظر في الأمر. كل شيء يسير حسب الأصول الآن. القطار سليم ويعمل من جديد و...».

- متى ستُعلن الخبر؟

استغرقتُ رمشة عين حتى أدركت ما يعنيه تمامًا، ثم رمشة أخرى حتى خرجتُ بشيء مناسب أقوله، ولاحظ كريستيان ترددي، فقال: «لقد اتفقنا على هذا».

- في واقع الحال...

- لقد أخبرتُ الناس بالفعل أني سأصبح المدير العام الجديد.

فاضت الجملة الأخيرة من فم كريستيان بسرعة حد أنه نفسه بدا متفاجئًا، وفي جزء من الثانية، احمرَّ وجهه ودمعت عيناه ولمعتا كشخصٍ إما غاضب وإما مُدمَّر.

- من أخبرتَ بالضبط؟ ولمَ؟

ارتبك ارتباكًا كاد يقطع أنفاسه، واقتربت جمهرة جديدة من الأطفال من القطار، فتمتم بصوتٍ صار خفيضًا: «بعض الناس فقط».

أمكنني الشعور بأن الضغط داخل كريستيان خبيث، ويتزايد. هو مُحرَج بالطبع، لكنه حانق وهائل العضلات، وفي هذه المرحلة، لستُ في حاجة إلى مشكلات إضافية، وفي حين أنني أرغب حق الرغبة في إنهاء هذه المحادثة، يُقلقني كل شيء فيها تقريبًا: قطار الأطفال الخارج عن سكته، وفخذ الدجاج الذائبة، ورغبة كريستيان العازمة على الصيرورة مديرًا عامًا، وكل الذين يعرفون أن يوهاني وعده بذلك في المقام الأول، ومقدار ما يعرفونه عن شؤون المتنزه الداخلية. ثم، وبينما يقترب الأطفال من القطار كالموتى الأحياء -معاندين ولكن متخبطين طيلة الوقت في الاتجاه الصحيح- خطر لي خاطرٌ قد يبتُّ الأمر وإن كان مؤقتًا على الأقل، إذ تذكرتُ رب عملي السابق، فسألته: «كريستيان، أترى نفسك قائدًا منفتحًا عاطفيًّا أم أقرب إلى قائد تقليديٍّ تراتبيٍّ؟».

- ماذا؟

- هل فكرت في الأمر؟ لم تعُد القيادة كما كانت عليه، إذ يحتاج قادة هذه الأيام إلى مجال واسع من الخصائص المختلفة، لا محض فهم موجه نحو النتائج للديناميات العاطفية الداخلية للقوى العاملة، بل وعيًا شموليًّا كذلك باقتصادنا التفاعلي والتجريبي الاجتماعي وتقدير أهميته الأولية على جميع مستويات فلسفة القيادة البَينشخصية المدفوعة بالتعاطف.

لم أكن لأتخيل أن أسمع نفسي أنطق بكلام كهذا قط، لكنني في هذه اللحظة تمامًا مدين لرب عملي السابق بيرتيلا على كل تلك السنوات التي قضيتها أستمع لهرائه، فقد فاضت كلماته من شفتي كأن شخصًا ما ضغط زر «تشغيل».

- أريدُ أن...

أومأتُ برأسي: «تصير المدير العام، لكن قبل ذلك، وبصفتي المدير التنفيذي للشركة، أريدُ أن أستوثق من امتلاكك لمجموعة المهارات الداخلية والخارجية والعاطفية المطلوبة للوظيفة. أقترح أن تشتركَ في جلسة تدريب واحدةٍ على الأقل، وعدةٍ إن أمكن. أريدك أن تخطَّ خطتك العاطفية الخاصة، وتجد كنزك الدفين من الإيجابية التي ستساعد في تعليمك التعرف إلى طيف المشاعر العميقة داخلك وداخل الآخرين، وفي ذاك الحين فقط، ستكون قادرًا على قيادة فريقك على طول الطريق إلى شأو النجاح».

هامَت نظرة كريستيان إلى الجانب الآخر من المتنزه.

- أيمكنكَ اعتناق هبة قصة النجاح العاطفي الفريدة لفريقك؟

- ماذا؟

قلت، وبصورة مقلقة، كدتُ أسمع صوت بيرتيلا: «لعل نقطة قوتك تكمن في منطقة ينجرف فيها رجل أضعف، وهذا يجعلك ملاذًا عاطفيًّا آمنًا. عندما تندمج القوة بالضعف، ينبثق تآزر إجماعيٌّ من قلب الاثنين، ما يخلق رخاءً تعاطفيًّا ناجحًا».

اتضح لي أن كريستيان لا يفهم كلمة مما أقول، إذ لا يوجد شيء ليفهمه، فحتى أنا لا أعرف ما أتكلم عنه.

ملأ الأطفال المكان من حولنا، وبات القطار موشكًا على التحرك عاجلًا.

- ربما من الأفضل أن تنظر في بعض خيارات التدريب المختلفة، ثم يمكننا معًا اختيار الأكثر ملائمة. تذكَّر: دورتين مختلفتين على الأقل.

وبقولي ذلك، مشيت، ثم نظرتُ من فوق كتفي ورأيت كريستيان يدفع قطار الكومودو محركًا إياه.



أنجزتُ حالما رجعتُ إلى مكتبي بعض العمل الإضافي، وما زلت أشعرُ أنها غرفة يوهاني، بكل ما فيها وصولًا إلى الاسم على الباب. كنتُ قد طلبتُ من

كريستيان تبديل اليافطة، لكنه لم يفعل ذلك بعد. جميع التصليحات الأخرى رُتبت بسرعة، أما هذه فلم يُسوِّها، ويمكنني تخمين السبب. وضعتُ حاسوبي المحمول الجديد على الطاولة وبدَّلته بحاسوب يوهاني، وعلى يساره جلست كومة من المعاملات الورقية الخاصة بي، وعلى اليمين نسخ مطبوعة من جداريات لورا هيلانتو.

سرعان ما أدركتُ أنني أفعلُ شيئًا أراه بالغ الغرابة (والواقعُ أن كل ما أفعله في هذه الأيام يُشعرني بالغرابة). بدا لي أنني في كل مرة أنجز مهمة مرهقة، أمسك بمطبوعات الجداريات وأنظر إليها لوهلة، كما لو أن الإعجاب بها جائزة لإنجازي عملي. شعرتُ أن الأمر منطقي بكامله، و-كما أُجبرت على الاعتراف مرات كثيرة من قبل- مخبول تمامًا. لا يمكنني إيجاد تفسير واحدٍ متماسك وعقلاني لسلوكي. أنظرُ إلى سلسلة من الصور و... أستمتعُ بالنظر إليها من أجل النظر إليها وحسب. هذا كل الأمر، هذا كل ما في الأمر. لكن لا يمكن أن يكون ذلك كل ما فيه. فأنا أكتواريٌّ. أعرفُ أنه لا يمكن لذلك أن يكون كل ما في الأمر.

7

في أثناء جلوسي في القطار، حسبتُ أنني، وعلى فرض وصول القطار إلى محطة هلسنكي المركزية واتخاذي أكثر الطرق مباشرة إلى الأتينيوم، سأحظى -قبل لقاء لورا في المكان نفسه- بدقيقتين ونصف لكل لوحة مهمة وثلاثين ثانية لكل عمل آخر في المجموعة الاعتيادية، فقلتُ في ذهني بينما أرسلُ نظري من النافذة إلى المشهد الخريفي الذي يهفُّ أمامه: ينبغي *لذلك أن يكون كافيًا*. كان اليوم غائمًا، وبات المنظر، الذي لولا ذلك لتألَّق أمام عيني كلحافٍ متعدد الألوان، أشبه بسطح مُرقَّعٍ أكمد لشيء ما أقتم. كانت مقطورتي خاليةً تقريبًا، ولا يمكنني سماعُ شيءٍ إلا أصوات القطار، ما جعل انحسار النهار يبدو أكثر واقعية، كأن قطعًا كبيرة من أحجية تتحركُ بفعل قوةٍ أعلى لا يمكن مقاومتها.

كنتُ مُدركًا إدراكًا موجعًا أنني غادرتُ مكان عملي قبل نهاية يوم العمل، ولم أشعُر أن ذلك أمر جيدٌ ولا صحيح، لكن الجداريات ظلت تجتاحني أكثر بمرور كل دقيقة. لمَ تروق لي إلى هذا الحد؟ لا بد أن للأمر علاقة ما بالفن نفسه، والفن منطقة أجهلها من السلوك البشري، حتى الآن.

لقد تعلمتُ بالتجربة أنني، إن كان ثمة ما يضايقني، عليَّ أن أفرزَ أجزاءه المؤسسة أولًا، ثم أُجري بعض الحسابات، ثم أدرس النتيجة. ولا يمكنني تخيُّل أن غرفة ملأى بالرسومات القديمة ستكون على أي قدرٍ من الاختلاف في هذا الصدد. أعرف أن معظمها تقدم مشاهد طبيعية وأناسًا، ومُصورة في الغالب الأعم بأسلوب واقعي، وهذا يعني أنها تتضمن قياسات ومنظورات ومسافات،

أي شيء محسوس، سمات مُحددة بدقة. أنا واثقٌ أنني أجريتُ حساباتٍ أكثر تعقيدًا في الماضي.

عندما خرجتُ من القطار، سقطت قُطيرات مطر ضئيلة هزيلة من السماء، كأن شخصًا ما في الأعلى غير واثق إن كان يريدها أن تمطر أم لا. كانت ساعة الذروة على المنصة، فتفاديتُ الناس، ومشيتُ عبر بناء المحطة أطنُّ بصوت الحشود، وعبرتُ شارعين، ثم وجدتُ نفسي في الأتينيوم -الذي يبعث شعورًا مبهجًا بالسكينة والهدوء- للمرة الأولى في ثلاثين سنة تقريبًا. اشتريتُ تذكرةً وسماعتَي أذن، وسألتُ عن طول مدة الشروحات، لكن بائعة التذاكر، ذات الشعر الأصفر والنظارة المستطيلة، عجزت عن منحي فكرة دقيقة عن ذلك. راحت تهمهم وتتلعثم، مقدرةً طول الفقرات بين ثلاثين ثانية إلى «أقل من خمس دقائق، ربما»، وأملتُ ألا تكون المسؤولة عن شرح الأعمال الفنية الفعلية، فالاستماع إلى استبصاراتٍ تقريبيةٍ كهذه لوقتٍ أطول مما يجب سيكون مؤلمًا. شكرتها، وكنتُ قد بلغتُ الدرجات المودية إلى المعارض المحتوية الأعمال الفنية وقتما صاحَت بي لتخبرني بوجود عرض خاص أيضًا. هذا هو المصطلح الذي استخدمَتْه. فسألتها: «ما الخاص فيه؟»، فقالت: «مونيه»، ثم بدأت بالثرثرة ثانيةً. قاطعتها هذه المرة من فوري، وأخبرتها بصرامة، مرة ناهية، أنني أرغب برؤية كل قطعة فنية في المبنى، وإن هذا سبب مجيئي، فرمقتني بنظرة سؤولة وباعتني تذكرة أخرى، وهذه المرة، من كثير الرحمة، بلا أي كلمة.



واجهت خطتي المصاعب من فورها تقريبًا، فمن كلا المنظورين الزمني والاستراتيجي، تبيَّن أن الغرفة الأولى أشق بكثير مما توقعت، إذ عجزتُ عن الالتزام بهدفي في منح دقيقتين ونصف للوحة الواحدة، ولم أتمكن من صياغة لائحة مُرضية من النقاط الأساسية حول كل عملٍ بمفرده. اندرجَت بعض اللوحات في فئة الأنماط المنطقية التي تنكشف من النظرة الأولى (منزل + مفترق طرق + شجرة + طقس ربيعي = هواءً عليلًا في قرية فرنسية)، وقدمت تعليلًا عقلانيًّا ومتساوقًا بما فيه الكفاية لعذوبة النظر إليها. ثم ثمة

لوحات لا تقدم مبدئيًّا أي شيء متماسكٍ يمكن فهمه (لطخات + رشّات + خطوط + ألوان = استخدامًا اختباريًّا للطلاء) لكن بعد فينة، أمكنني أن أرى فيها شيئًا مختلفًا كليًّا (لطخات + رشّات + خطوط + ألوان = x). وما تشترك به كل هذه اللوحات هو أنني وقفت أنظر إليها وقتًا أطول من اللازم بكثير.

كانت نفس الظاهرة التي حدثت في صور الجداريات، وسألت نفسي ثانيةً: «لمَ أنظرُ إلى شيء ما مدةً أطول مما يلزم لتحصيل المعلومات التي أحتاج إليها؟ كأن دماغي قد تحوَّل إلى مسار مختلف». تكرر حدوث الأمر نفسه بين اللوحة والأخرى، فاستهلكت الغرفة الأولى وحدها نصف وقتي المرصود، وزفرتُ زفرةً مسموعة. يستحيل أن أتمكن من المرور على كل غرف المتحف قبل لقاء لورا هيلانتو، وأيضًا، معاينة الأعمال الفنية ليست أولوية في ذهني حاليًّا، إذ ثمة مسائل أكثر إلحاحًا بكثير بما فيها بدء تجارة إقراض المال، وتفادي الأنشوطة، وإبقاء مجموعة من المجرمين المحترفين سعداء لمدة تعاوننا المكروه هذا مهما طالت.

لكن في هذه اللحظة، ها أنا ذا هنا. نظرتُ حولي وقاومتُ إغراء إعادة زيارة بعض اللوحات التي، لسبب ما، أعجبتني أكثر من البقية، وفي الوقت نفسه، نظرتُ إلى الناس في الغرفة، فلم أرَ إلا ثلاثة، زوجين في الطرف القصي منها، وامرأة في المنتصف. أدركتُ أن المرأة قد وقفت في المكان نفسه تقريبًا طيلة وجودي في الغرفة. يبدو أنني لستُ الوحيد الذي تسبب له الفنون الجميلة المشكلات.

اتخذتُ قرارًا سريعًا واتجهتُ إلى العرض الخاص. بدا الاسم واعدًا، ذلك أنني أحتاجُ إلى حل خاص. قلتُ في خلدي: مونيه، *ليكُن إذن*.

بدأ العرض بداية جيدة، إذ ضمَّ لوحات أقل، وأكبر حجمًا، وتحتوي أنماطًا وأشكالًا واضحة. بدا ذلك واعدًا للغاية من حيث إنجاح الأمر، فدنوتُ من اللوحة الأولى، مركزًا عينيَّ بشدة عليها، بشدة شديدة حد أنني في الحقيقة لم أشعر بالخطوات المتجهة في الاتجاه نفسه وأسمعها إلا عندما صارت بحذائي، فأدرتُ رأسي.

لورا هيلانتو. في لحظة رؤيتي إياها، تلألأ شيء دافئ عبري، موجة يتعذر تفسيرها من البهجة والإثارة والدغدغة، ولا يمكنني فهم ذلك، فآخر مرة رأيتها

كانت في متنزه المغامرات، منذ بضع ساعات فقط. أرى هذا المنعكس مبالغة واضحة.

همسَت: «مرحبًا».

فأجبتُ: «أهلًا»، لأدركَ أنه لا يفترض بالمرء التحدث إلا بصوتٍ هامسٍ هنا.

- لقد جئتَ، فما رأيك إذن؟

رفعتُ بصري بسرعة إلى اللوحة الأولى. كانت بعرض ثلاثة أمتار وارتفاع مترين تقريبًا، وتعرض على ما يظهر أزهارًا غبشاء وزنابق ماء في بِركةٍ ما. ومع ذلك، ثمة عناصر قليلةٌ على نحو مُرضٍ في اللوحة.

- يروق لي حجم هذه اللوحات، ويعجبني أنها تصوِّر شيئًا واحدًا كل مرة. أحبُّ أن أتمكن من التركيز.

- رسم مونيه عشرات اللوحات عند البركة الصغيرة نفسها.

- آه، لوحة واحدة لكل زنبقة ماء.

غمغمت لورا هيلانتو ضحكة ووضعت يدها على فمها. لا أظن أنني قلتُ شيئًا فكِهًا، كنتُ أعلِّق ببساطة على أكثر السيناريوهات منطقيةً واحتمالًا، فكم من زنابق الماء، ناهيك بأزهار زنابق الماء، يمكن أن تتسع له البركة نفسها؟ نظر كلانا إلى لوحة مونيه، وبقينا صامتَين لوهلة، ثم قالت لورا: «لا تُسئ فهمي، لكنني لم أحسبكَ من محبي معارض الفنون. لم أظن أنك ستهتم البتة».

قلت، بصراحة تامة: «إنني مهتم جدًّا بالفن، لكنني ما زلتُ لم أرَ أي شيء بحُسن جدارياتك».

رأيتُ بركن عيني، أو بالأحرى، أمكنني الشعور على خدي الأيمن، باستدارة لورا هيلانتو لتنظر إليَّ، ثم وقفنا هادئَين أمام اللوحة حتى كسرت لورا هيلانتو الصمت: «أتود النظر إليها بسلام؟ إنها زيارتي الثانية لهذا المعرض. لقد رأيتُ كل هذه اللوحات قبلًا».

- إذن لعل بوسعك إخباري عن موضوع كلٍّ منها.

- بكل سرور. أعرفُ شيئًا أو اثنين، ويمكنني إخبارك بما أعرف. ثم يمكنك الإنصاتُ إلى التعليق وإخباري بأي الفقراتِ أصبتُ.

- أشك أننا سنحظى بالوقت الكافي للتحقق من إجاباتك، فالمتحفُ يغلق أبوابه قريبًا.

ابتسمَت لورا، ضحكَت تقريبًا. وقالت: «إنك لصاحب دعابةٍ جيد»، ولستُ واثقًا تمامًا بما تشير إليه.

جُبنا غرفتين كبيرتين، ووقفنا أمام عدة لوحات لأوقات متفاوتة من الزمن، ومما فاجأني أننا كنا في بعض الأحيان نمر على لوحةٍ كبيرةٍ وبالكاد نقول بضع كلمات، ثم نتوقف لنعاين لوحةً أصغر بكثير لوقتٍ طويل نسبيًّا. كانت لورا دليلًا ممتازًا، رغم أنني لم أفهم كل ما قالته. لم تقدِّم في أي نقطةٍ تفسيرًا لما قدِمتُ لاكتشافه، ولستُ أمانع ذلك، إذ شعرتُ أن صُحبة لورا، وصوتها، ومحض وجود اللوحات، أهم في هذه اللحظة. قلتُ في خلدي: *إنها أهم بالفعل*، ثم بعد ذلك مباشرة: *ما خطبي بالضبط؟*

انتهَت الجولة أمام أكبر اللوحات في المعرض. في الحقيقة، تألفت اللوحة من ثلاث لوحات إطاراتها مندمجة. كان قياس القطعة بأكملها يقارب خمسة أمتار عرضًا ومترين ونصفًا ارتفاعًا. لا بد أن المسيو مونيه قد رسم البركة بقياسها الفعلي. أنصتُّ إلى لورا هيلانتو، التي ترى في اللوحة الكثير إلى جانب زنابق الماء، وشعرتُ أنني أغرق تدريجيًّا في البركة الملتاثة. شعرتُ بالماء دافئًا وعذبًا، وتفوح منه رائحة شعر لورا هيلانتو و...

- سيُغلق المتحف أبوابه في عشر دقائق.

أعادني صوتُ المُشرف عبر مكبر الصوتِ إلى الزمان والمكان الحاليَين، وكانت لورا تبتسم: «الآن لن يتسنى لك معرفة إن كنتُ مصيبة».

- لا أظن ذلك ضروريًّا، ألديكِ هنيهة نتكلم فيها عن الفن أكثر؟

أطلقت لورا قهقهةً وجيزة، ثم استحال وجهها جادًّا.

- لا بد لي من القول إن أحدًا لم يدعُني إلى موعدٍ بهذه الطريقة قط.

- بأي طريقة؟

- ألدي هنيهة... لا بأس، فابنتي تقضي عطلة نصف الفصل مع ابنة خالتها. يسعدني ذلك. فلنتكلم عن الفن أكثر.

8

- كنتُ قد قررتُ بالفعل أنني سأصير فنانة شهيرة، بدا هذا القدر واضحًا، لكنني لم أعثر على أسلوبي الخاص بعد. فرغم كل شيء، كنتُ في الثامنة عشرة فقط، أعني أنني لم أكن قد استنبطتُ حتى ما قد يكون أسلوبي أو أين سأجده، ثم زرتُ لندن ورأيت معرضًا لهيلين فرانكنثالر، وفتح ذلك أمامي بابًا. لكن ساعدني حق المساعدة أنني في الرحلة نفسها رأيت الكلاسيكيات بأم عينيَّ، رأيتُ أعمالًا تهمني بطريقتها الفريدة الخاصة. كاسات، وتيرنر، وبيسارو، وسيسلي، وديغاس، ومونيه بالطبع. لطالما قال الجميع مونيه، حتى أنت، وهذا حق، لكنني أظن أن بيسارو المفضل عندي. من التقط الضوء مثله، في بُرهة واحدة من الزمان، وحوَّل لحظة عادية إلى شيء خالد وجميل؟ ثم في معرضَي تيت موديرن وتيت بريتين رأيتُ بولوك وهوكني وروثكو، ثم قام معرض فرانكنثالر، ولاحقًا، في الرحلة نفسها، زرتُ المتحف البريطاني في فيينا، متحفٌ يعج بأعمال كليمت الشهيرة، بما فيها القبلة.

لم أكُن واثقًا تمامًا بما تتكلم عنه لورا هيلانتو، بيد أنني استمتعتُ بالإنصات إليها. بالطبع أعي أنها تتكلم عن الفن، لكن الأسماء لم تعنِ لي شيئًا. كنا جالسين في حانة في كايسانييمي. عندما خرجنا من الأتينيوم، كان الظلام قد هبط، والمطر لا يعدو كونه رذاذًا، لكنه ازداد شدةً في أثناء نزولنا الدرجات الأمامية إلى الشارع. والآن صار الرصيف خلف النافذة يرقص مع آلاف القطرات، والفضاء بين الأرض والسماء يفيضُ ماءً، ثم أنارت أشعة من

الضوء الهواء مثل وميض كاميرا عملاقة، إذ كانت العاصفة الرعدية فوقنا تمامًا، وثمة شمعة مشتعلة على طاولتنا. أدركتُ أنني في العادة كنتُ لأرى هذا غير ضروري، من كلتا ناحيتَي الإضاءة والوظيفية الإجمالية للفضاء، ذلك أنه عنصر قياسي في الديكور الداخلي للكثير من الحانات، وغايته الوحيدة في بعض الأحيان تحسين الجو وتعزيز أرقام المبيعات. والآن أرى ضوءها الرقيق المرفرف ملائمًا كل الملاءمة لحضور لورا هيلانتو الأخَّاذ المَرِح، وشعرها الجامح وعينيها الزرقاوين المخضرتين، وأحببت انعكاس اللهب على نظارتها في بعض الأوقات، وارتعاشه الدافئ في عينيها.

- ماذا عنك؟

- إنني مبتدئ عندما يتعلق الأمر بالفن، سأعترف بهذا بمحض إرادتي.

ابتسمَت لورا: «أعني عمومًا، ما الذي دفعك لتصير... ما كانت الكلمة؟».

قلت: «أكتواريٌّ».

وشرحتُ بإيجاز كيف صرتُ مولعًا بالرياضيات، ولمَ آمنتُ وما زلتُ مؤمنًا بأن ممارسة الرياضيات أهم مسؤولياتي، وسبب تركي وظيفتي. ذكرتُ أيضًا الطفولة المضطربة، والسلوان والخلاص الذي قدمته الرياضيات، وإجحاف إقالتي الإبداعية.

- إنك صريح للغاية.

- هذا ما حدث.

- أجل، صحيح. أعني أن معظم الناس لن يتكلموا عن أمور شخصية كهذه في أول... أول لقاء.

- لا أعرف الكثير حيال ذلك، إذ يندُر أشد الندرة أن أجد نفسي في مواقف كهذه، فعلى وجه العموم، لا يثير بقية الناس اهتمامي. لكنك تفعلين. لقد أنصتُّ لكل كلمة قلتِها عندما كنا في المتحف، كان بوسعي الإنصاتُ إليكِ لساعات. جدارياتكِ، رسوماتك -أو تصميماتك، كما ينبغي لنا تسميتها حاليًّا- يمكنني التحديق إليها لساعات كل مرة. أعتقدُ أنكِ استثنائية.

أدركتُ من فوري أنني أطلتُ الكلام أكثر مما انتويت، وقلتُ أكثر مما خططتُ له. ضوء الشمعة، وعينا لورا، ورائحتها، ومونيه، واللوحات الأخرى. راحت أفكاري تعدو في اتجاهات شعرتُ أنها جديدة وغريبة، لكنها في الوقت نفسه بهيجة. ولاحظت أنني أفكر بالطريقة التي وصفتها للتو تمامًا، كأنني قفزتُ في الماء أولًا، ثم قررتُ السباحة.

بدا على لورا هيلانتو الابتسام، ثم بعد ذلك مباشرةً تقريبًا ظهر أنها تذكرت شيئًا ما، واستحالت تعابيرها جادةً، وتكاد تكون محزونة.

- لستُ واثقة بهذا، لكن قوله لطفٌ منك. أشكرك.

ثم حل الصمت. شربنا بيرتنا، وومض الجو ثانيةً، فنظر كلانا إلى السماء، وعادَت عيناي إلى لورا. بلى، ثمة شيء ما واجمٌ فيها.

- أثمة ما يقلقك؟

نُتِرَت لورا عودًا إلى كوكب الأرض، وهزَّت رأسها ثم ابتسمت: «يمكنني أن أكون صريحة معك، أليس كذلك؟».

- أعتقد أن هذا هو الأفضل. يقول بعض الناس إن الصراحة يمكن أن تكون وقحة، لكنني أظن أن مكاسبها تفوق خسائرها بكثير. لستُ واثقًا بالنسبة الدقيقة، لكن من واقع خبرتي يمكنني القول إن احتمال إلحاق الأذى لا يمكن أن يفوق العشرة بالمئة، ما يعطي الصراحة نسبة نجاح تبلغ التسعين بالمئة تقريبًا. وهذه أفضلية جيدة بصورة استثنائية.

قالت: «إن... إن لكَ أسلوبًا خاصًّا بحق»، مع ابتسامة بسيطة ربما.

فسألها، باهتمام حقيقي: «أهذا أمر جيدٌ أم سيئ؟».

- أمر جيد.

لم أقُل شيئًا، لأنني شعرتُ أن لورا ترغب بقول المزيد، ثم أسندَت مرفقيها على الطاولة.

- تبدو أمينًا وأهلًا للثقة، ويروق لي ذلك. تقول ما تفكر فيه، وتفي بوعودك. لا أدري إن كنتَ مدركًا نُدرة ذلك. أنت ما تصف نفسك به.

- أنا...

- أكتواريٌّ، أجل، أعرف. أعني عمومًا، لستَ كالآخرين، وهذا أمرٌ جيدٌ أيضًا. ولا يهم أنك تبدو ظريفًا، بطريقتك الملتوية الخاصة، وهذه إيجابية إضافية. ترتدي بذلة وربطة عنق دائمًا، حتى في المتحف. بديع. لكنني قلتُ أكثر مما ينبغي، أكثر بكثير. كان نهارًا طويلًا. بداية مبكرة، ثم مونيه، والآن هذه البيرة. كنتُ ظمآنة وأظن أنني شربتُ بسرعة زائدة بعض الشيء. إنني...

لم تكمل لورا جملتها، رغم أنها لم تنتهِ بكل وضوح، فانتظرت لوهلة، ثم قلت: «ثمة ما يزعجك».

اتكأت لورا على ظهر كرسيها: «لن تتركَ الأمر وشأنه».

- لا، لن أفعل.

هزَّت رأسها، وابتسمت، وكانت الابتسامة مختلفة عما قبل. ليست حماسية جدًّا هذه المرة.

- إنها الجداريات.

- لقد اتفقنا على ميزانية وجدولٍ زمني. كل ما عليكِ فعله هو الرسم.

ومضت السماء ثانيةً. ظننتُ أن المطر لا يمكنه أن يشتد أكثر، لكن بدا أن هذا ما يحدث.

- هذه هي المشكلة بعينها: الرسم. لم... لم أقدر على فعل أي شيء. لقد خرجتُ بتصاميم وخطط، منها ما هو متقدم بالكامل، ويغمرني الحماس والتوق للبدء، لكن عندما يتعين عليَّ إمساك الفرشاة والبدء، بطريقة ما، لا يمكنني... فأؤجل البدء مرة بعد مرة، حتى تراودني فكرة جديدة وأخط خططًا وتصاميم جديدة تثير حماستي و... لم أكلم أحدًا عن هذا من قبل.

من الواضح أن هذا موضوع شاق عليها. يمكنني رؤية ذلك في تعابيرها، ولغة جسدها. فرغت كأسها تقريبًا.

- أترغبين بكأس بيرة أخرى؟

- أتظن أن ذلك سينفع؟ أعليَّ حمل نفسي على البدء عن طريق الثمالة؟

- كان قصدي...

- أعرفُ ما قصدتَه، (وابتسمَت، وفي نظري، يمكن وصف الابتسامة بأنها كئيبة تقريبًا) لا، أشكرك. أظن أنني على ما يرام.

- لدي مشكلات أيضًا.

نظرَت لورا إليَّ لكنها لم تقُل شيئًا.

- أظن أن الجميع لديه، لكن لعل هذه محادثة لوقتٍ آخر. أنا أحل مشكلاتي بالرياضيات.

- كل مشكلاتك؟

- أجل.

- هذه... طريقة تفكير شائقة. لكنني لا أعرفُ ما علاقة الرياضيات بوقوفي محدقةً إلى الجدار في متنزه المغامرات و... محدقةً فقط. أنظرُ إليه، وأراه محبطًا كل الإحباط.

- لأنك تنظرين إليه على أنه جدار. إنه متغير مجهول. الجدار x.

- الجدار x؟

أومأتُ برأسي: «في هذه المرحلة، أتراجعُ خطوة، وأنظر إلى المعلومات المتاحة لي في الوقت الراهن، وإلى الشروط المقترحة. أفكر في ما إن كنتُ قد واجهتُ المشكلة نفسها قبلًا، أو المشكلة نفسها بشكل آخر. إن كنتُ عاجزًا عن حل المشكلة كلها مرةً واحدة، أيمكنني حل جزء منها؟ أيمنحني حل المشكلة الجزئية طرف خيط؟ مفتاحًا لحل الجزء التالي من المشكلة؟

لم تقُل لورا شيئًا، لكن يبدو أنها تنصت.

- كنتُ لأختار تصميمًا أظنه الأسهلَ تبيُّنًا، ثم أنظر إلى التصميم وأختار الجزء الأسهل تبيُّنًا منه، ثم أرسم أبسط خطة للشروع في تبيُّن التصميم، وأعاين الخطة، ثم أنفذها من دون كثير التفكير فيها. بتلك الطريقة، سأحظى على الأقل بأداة جديدة قبل محاولة حل المشكلة الأكبر.

- بطريقة ما، أعرفُ كل هذا.

- لكن أتنفذينه حقًّا؟

قالت: «لا»، وهزت رأسها.

- يمكن للرياضيات المساعدة هنا أيضًا. اتبعي الخطة وحسب.
- وسأكتشف ما قيمة x؟

قلت لها بصراحة: «لا يمكنني وعدك بذلك، لكن بناءً على العوامل التي أعرفها وأشعر بها، ولا سيما الرياضياتية المفرطة، أظن أن ذلك ممكن، وحتى مُحتمل. فكما قلت، أنت استثنائية».

جلسنا صامتَين بعد ذلك، ثم سألت لورا: «ما الذي تفعله عندما تكتشف أنك مهتم بشخص ما؟ أتفكر فيه على أنه x أيضًا؟».

9

شعرتُ أن القطار يطفو. كانت أضواء المنازل والمباني المكتبية تتلألأ وتومض وتترجرج في الليلة الخريفية المعتمة، كأن شخصًا ما يقذفها في الجو محاولًا إصابة القطار، لكن القطار يطير، ولا شيء قادر على مسِّه. بلغت الساعة الحادية عشرة والربع ليلًا، وخداي دافئان ويرتجفان في الآن نفسه، فقُبلة لورا هيلانتو العجلى على خدي تسافر معي في القطار بسرعة الضوء.

بصورة غريبة، لا يبدو أنني أذكر محادثتنا بأي وجه من وجوه الترتيب المنطقي، فدماغي معمعةٌ من نُثار مشكاليٍّ ضئيل زاهي الألوان، يرجع بعضه إلى البداية مكررًا نفسه مرارًا وتكرارًا، ويتداخل عمومًا مع النُّثار الضئيل الآخر. حتى إنني شعرتُ بانقطاع نفسٍ خفيف، رغم جلوسي بلا حراك. لستُ متأكدًا من كل الأمور التي تحدثتُ عنها، ومما يلتبسُ عليَّ بخاصة ذاك الجزء وقتما، في أثناء تودُّعنا أمام محطة القطار، اقتربت لورا مني، وشكرتني على الأمسية، التي قالت إنها كانت لطيفة جدًّا بطريقة جيدة، ثم قبلتني على خدي كما لو كنا في مكان ما من أوروبا الوسطى. أتذكرُ بضبابية قولي بعد القبلة شيئًا حول أن احتمالية نجاح الجداريات تقترب من 120 بالمئة. لستُ أدري ما مصدر الكلمات، فهي لا تشبهني، بل أشبه بشيء كان رب عملي السابق بيرتيلا ليقوله، لكنني أظن حقًّا أنني قلتُ شيئًا بهذا المعنى. لا أتذكرُ حتى مشيي إلى المنصة أو استقلالي هذا القطار المكوكي المحلق بلا وزنٍ عبر الليل.

كنت ما أزال قادرًا على سماع صوتِ لورا في أذنيَّ وقتما تعرفتُ اسم المحطة الأليف المتلألئ بالأزرق والأبيض عند توقف القطار. لقد بلغنا

كانيلماكي. وثبتُّ واقفًا وبالكاد تدبرتُ الخروج من القطار قبل أن تنزلق الأبواب منغلقة، ثم هبطتُ الدرجات، تالهًا طوال الوقت إزاء مزاجي الحالم. كدتُ أفوِّت محطتي، متى حدث شيء كهذا قط؟ على الإطلاق، هذه هي الإجابة. كان الأمر أشبه بأنني أمشي فوق الأرض تقريبًا، كما جرى في القطار منذ وهلة، شعرتُ أنني أطفو.

كانت الليلة باردة، لكن لا رياح تخترقها، ولليالي الخريفية رائحة مميزة: أوَّل الأوراق الساقطة المنكمشة في الصقيع، والأرض الرطبة، والهواء النقي إثر المطر. نظرتُ قطريًّا إلى الطرف الآخر من الشارع حيث يتوهج حرف إتش فوق الباب المودي إلى درج منزلي، وأمكنني بالفعل تصور احتجاج شوبنهاور على وصولي المتأخر، فأخذتُ أفكر في طريقةٍ ما لأعوضه. كنت أعبر ممر المشاة وقتما سمعتُ صوت سيارة خلفي ورأيتُ أحدهم يخرج من بِركة الضوء المنبعثة من حرف إتش. قلتُ يخرج، لأنني أدركتُ أن الشخص لا بد كان واقفًا هناك منذ بعض الوقت ولم يتحرك حتى الآن. تعرفتُه حالما توقفت السيارة وأضواؤها الأمامية المُعمِية قريبة مني حد أنني لو انحنيتُ بعض الشيء لتمكنتُ من تفقد حرارة غطاء محركها، وصرتُ واقفًا على ممر المشاة بين أيه كيه والسيارة رباعية الدفع.



مرة ثانية، حمل الهواء داخل السيارة رباعية الدفع عبق الكولونيا القويّ، وراح المكيف ينفث نسماتٍ مجمدةً لقاء قدمي كالمرة الماضية تمامًا. لم يُثبتني أيه كيه من يدي هذه المرة، بل مد ساعده فوق ظهر مقعدي ليمتد خلف رأسي، وكان شعورًا بغيضًا، كأن قبضته في أي لحظته قد تهاجم عنقي مثل أفعى، فتلتفُّ عليها وتعتصرها. كان الرجل العظاءة يقود، والشوارع والطرقات الساهرة خاوية، وليس ملتزمًا بحدود السرعة بنفس دقة المرة الماضية.

ثمة أمر واحد واضح: الرجل العظاءة وأيه كيه يكرسان الكثير من ساعات عملهما لي، ما يدفعني للتفكير بأنهما إما يعتبرانني أولوية وإما أنهما ببساطة

لا مكان آخر لديهما يذهبان إليه، ولستُ مقبلًا على مناقشة ذلك جهارًا، ففي هذه اللحظة، توجد مسائل أكثر إلحاحًا ينبغي التعامل معها.

- إن كان هذا بخصوص إطلاق المصرف...

أجاب الرجل العظاءة: «ليس كذلك».

- إذن هل لي أن أسأل بخصوص ماذا؟

- أي تخمينات؟

- لا أحب تخمين الأمور، ولا سيما في مواقف كهذا حيث لا أملك أدنى فكرة عن عدد المتغيرات التي سيُبنى تخميني عليها.

هز الرجل العظاءة رأسه. تمكنت من رؤية عينيه في المرآة. كان يبتسم، ابتسامة تقتربُ من كل شيء إلا الود، وظل صامتًا. فكرتُ في المناسبتين السابقتين اللتين وجدتُ نفسي فيهما في هذه السيارة رباعية الدفع. أولًا الرحلة إلى شواطئ البحيرة، ثم إلى الحظيرة، ولا ذكريات سارة لدي عن أيٍّ من الرحلتين. سرعان ما سنصير في مكان ناء ما في فانتا، ولا أعرف أين.

أخذت المنازل تختفي من خلفنا، وما يمتد من أمامنا مبانٍ صناعية. كان الوقت قرابة منتصف الليل، لذا معظمها معتم. عبرنا أولًا زوجين من المباني أكبر حجمًا، يحملان شعارات ضوئية لشركات أعرفها من المكانس الكهربائية وقناني المشروبات والأحذية الرياضية، وبعد ذلك صارت الأسماء وصفيةً أكثر. بدا أن الصيغة السائدة هي اسم العائلة مضافًا إليه صفة مُعرَّفة ما: عجلات، وآليات، ورسومات، وتزيين. وبعدها اختفت الأسماء جمعًا، فلم نعد نرى إلا المباني غير المميزة: بعضها معتم بالكامل، وبعضها مُضاء بوهج ليلي أصفر خافت. أبطأنا السير أخيرًا، ودخلنا بوابة في سياج شائك وتوقفنا عند نهاية صف طويل من السيارات، ثم انطفأ المحرك، ولفَّ أيه كيه حول السيارة ليفتح الباب لي.

كان البناء أمامنا من طابقَين، وثمة موسيقى صاخبة تدوي في الداخل حد أن بمقدوري سماع ضرب البيس، وبعد معاينة أقرب، تبين أن السيارات في المرأب من أعلاها سعرًا. لم يحمل جدار هذا المبنى علامة تدل على أنه

مكان لبيع السيارات وشرائها، ولم يبدُ على السيارات أنها مركونة في الباحة الأمامية منذ أشهر.

أشار لي الرجل العظاءة بالاقتراب منه، وعندما بلغنا الباب، لوَّح بيده. تساءلتُ لوهلة عما إن كان يُحيِّي الباب، لكن من ثم رأيتُ كاميرا صغيرة مُثبتة في الجدار. صدر بعد ذلك صوت جرس صاخب تلاه صوتُ القفل، وجذب الرجل العظاءة الباب فاتحًا إياه وأومأ لي باللحاق به إلى الداخل.

تدلَّت خلف الباب تمامًا مجموعتان من الستائر الغليظة الثقيلة. عندما جذبتُ إحداها، ازداد الصوة شدة، وعندما جذبتُ الثانية رجَّعت الموسيقى صداها في صدري، ووجدتُ نفسي واقفًا في غرفة مرتفعة الجدران تعلَّقت في سقفها كرة ديسكو ترسل آلافًا من الأضواء المتلألئة منطلقةً في أرجاء الغرفة، وأضواء كشاف ساطعة ملونة تهيم فيها على فترات منتظمة. أمكنني اشتمام السيجارات والسجائر والكحول والعطر، وثمة شيء آخر أيضًا، شيء حلو وبائت بعض الشيء. على يساري ارتفع مشرب، وعلى يميني مجموعة من الكنبات والكراسي ذات الأذرع والطاولات. كانت الطاولات مكسوة بالكاسات والقناني، والكراسي مشغولة بكُتلٍ مختلفة الأحجام من الناس، الذين يُفترض أنهم مُلَّاك السيارات المركونة في الخارج. عددتُ نحو ثلاثين شخصًا في المكان، وكانت الإضاءة إشكالية لدرجة صعُب معها قول أي شيء عن مظهرهم.

انتصبت أمامي منصة مرفوعة ترقص فوقها امرأتان عاريتان من كل شيء إلا الملابس الداخلية الهزيلة والأحذية ذات الكعب العالي. لستُ من أصحاب الحس الجيد بالإيقاع، فهذا حيِّز من السلوك البشري لم أولِه كثير الاهتمام قط، لكن بدا واضحًا لي أن رقص الامرأتين متوائم مع انسياب الموسيقى ثقيلة البيس أيما تواؤم.

صرخ الرجل العظاءة في أذني: «ما مشروبك؟».

- أيمكنني الذهاب إلى المنزل؟

- لا.

ظل أيه كيه واقفًا بجواري بينما اتجه الرجل العظاءة إلى المشرب، وسرعان ما عاد وحشر قنينة من البيرة الأجنبية في يدي وأومأ لأيه كيه، الذي أمسك

بذراعي واعتصرها اعتصارًا مؤلمًا ثم قادني متعمقًا أكثر في النادي الليلي القذر. تعلقَت في الجانب القصي من الغرفة مجموعة أخرى من الستائر، لكنها هذه المرة تغطي كامل طول الجدار، وتُفتح من الطرف الأيسر، فاتجهنا ناحية ذاك المدخل. انفتح المدخل على نسخة أكثر خصوصية من الكنبات والكراسي الموجودة في الغرفة الرئيسة، وفي منتصف الفسحة طاولة خفيضة محاطة بكنبة نصف دائرية، وكل شيء مصطبغٌ بإضاءة حمراء قانية. دفعني أيه كيه من خلفي وأشار بأني يُنتظر مني الجلوس، فجلستُ على الكنبة ووضعت قنينة البيرة على الطاولة، إذ لست أرغب بالبيرة. حدق أيه كيه إليَّ لوهلة ثم أسدل الستائر، وبقي على الطرف الآخر منها، ووجدتُ نفسي جالسًا في خلوة حمراء وحدي.

كتمت الستائر السوداء الثقيلة ضجيج الموسيقى بكفاءة. نظرتُ حولي، فرأيتُ في ركن الغرفة مرآة واقفةً لمحتُ نفسي عليها، ورأيتُ أيضًا رفًّا عليه لفَّة من ورق الحمَّام ووعاءً لا يسعني رؤية ما بداخله. ثمة ما هو غريب غرابة متجذرة في هذا المكان.

كنتُ موشكًا على النهوض ومغادرة المبنى وقتما جُذبت الستارة ودخلَت إحدى النساء التي رأيتها ترقص على المنصة للتو، ولم تكُن مرتدية أي شيء هذه المرة رغم أن حذاء الكعب العالي ما يزال في قدميها. كان لها شعر طويل أشقر، ووجه مكسوٌّ بأكوام من مساحيق التجميل، وعينان يبدو أنهما تنظران إليَّ، أو خلفي، أو عبري ببساطة في آن واحد. وقالت: «لقد طلب أحدهم خدماتي».

- أستميحك عذرًا؟ لم أطلب أي شيء من هذه الشاكلة قط. إن هذا لجنون مطلق.

توقفت المرأة، لكن لرمشة عين فقط. وقبل أن أتمكن من إضافة أن هذا لا بد سوء تفاهم مؤسف، كانت قد أجلست نفسها في حجري مواجهةً وجهي، وعثرت شفتاها على شفتي ثم التصقَت بها أشد الالتصاق مثل مغناطيس فوق معدن، وكان مذاقُها أحمر شفاه وسجائر، ثم أمسكَت يدي اليسرى ووضعتها على مقعدتها، وراحت تعتصر أَلْيتها بأصابعها الممتدة فوق أصابعي، أي –

بمزيد من الدقة- كنت أعتصر ألْيتها بمساعدتها، ثم أبعدَت شفتيها عن شفتيَّ، وهي تشدُّ رأسي بإحكام على جسدها حدَّ أن محاولة التملُّص تؤلم خدَّيَّ.

أخذت المرأة تشد شعري كأنها تصارعني، فاضطررتُ إلى إمالة رأسي خلفًا وانتهى بي الأمر منزلقًا على ظهري. حاولتُ بيدي اليمنى فكَّ أصابعها عن شعري، لكن قبضتها صلدة كالصخر. ثم أزاحَت يدي، التي كانت تعتصرها، وأزلقتها على جسدها. لم أكن متأكدًا كل التأكدِ أين انتهى المطاف بأصابعنا، التي لا تزال متراكبة، وعندما بلغنا هذه النقطة، كنتُ مستلقيًا فوق الكنبة على ظهري أصيح ألمًا بينما تستمر المرأة في انتزاعها شعري.

حدث كل شيء بسرعة شديدة. لم يستغرق إلا بضع ثوانٍ، وكان كلُّه شادهًا إلى درجة أنني عجزتُ ببساطة عن العمل بالطريقة التي أريد: بعقلانية. وأيضًا، كنتُ نصف مشلول، ومأخوذًا على حين غرة. بدَت كل واحدةٍ من حركات المرأة مُتقنة ومحسوبة، كأنها قد فعلت هذا قبلًا، مراتٍ عديدة.

راحَت تثب فوقي، وتجذب شعري بعنف أشد من قبل، ثم انزلقَت -بقوة ورشاقة مُذهلتين- مترًا إلى الأمام وجلسَت على وجهي كما تجلسُ على كرسيٍّ، حاولتُ بيدي الحرة -تلك التي لا تعتصرُ المرأة أصابعها بطريقتها الأليمة ألمًا استثنائيًّا- إبعادها عني، وحالما أحكمتُ قبضتي، نزلَت عني بنفس سرعة امتطائها إياي، ثم عادَت ناحية الستائر، وجذبَت اليُمنى منها واختفت. مرَّت في طريق عودتها إلى المنصة من أمام أيه كيه، لكنها لم تُلقِ نظرةً حتى إليه.

تدبرتُ أخيرًا النهوض عن الكنبة، وشعرتُ أنني قد خسرتُ نصف شعري، وأن النار تضطرم في جلدة رأسي. وقفتُ وأحسستُ بسروالي يزحَلُ حتى كاحليَّ، فقد تمكنت المرأة من فتح سحَّاب سروالي وفكِّ أزراره، ثم رأيتُ الهاتف في يد أيه كيه وهو يلتقط صورةً لي.



أدركتُ لاحقًا أن الصورة التي التقطها أيه كيه كانت لتسليته فحسب، ذلك أنهما ليسا في حاجة إليها لأن لديهما العشرات غيرها. عرفتُ هذا في طريق عودتنا إلى المدينة، إذ تمكنتُ من التقليب لثلاثين ثانية في مجموعة صورٍ

على جهازٍ لوحي دسَّه أيه كيه في حجري. أعطَت الصور انطباعَ أنني كنتُ مُنخرطًا بنشاطٍ ساخنٍ سخونةً خاصة مع المرأة العارية، انطباع أنني فعلتُ كل شيء بإرادتي الحرة، لإشباع شهوتي النهِمة، انطباع أنني كنتُ رجلًا يجأر ملذةً، رجلًا ذا يدين داعرتين عجزَ عن لجمهما.

ثم قال الرجل العظاءة من المقعد الأمامي: «والآن أنصت بإمعانٍ أيها الأبله اللعين، إن الرجل الضخم الذي التقيتَه -والذي تستفيدُ من ماله- لا يحب أن يفعل موظفوه فعالًا كهذه، فهي تدل على أنهم ليسوا أهلًا للثقة، وأنت تتذكرُ ما يفعلُه بالذين لا يثق بهم. يُعلِّقهم، إن كان في مزاج جيد. وأنت، أيها الرجل الآلي الغبي الفاجر، بدأت تُغضبني منذ أول مرةٍ اضطررتُ فيها إلى الاستماع لتعليقاتك المتذاكية. كان يجدر بي ترك أيه كيه يدقُّ عنقك. والآن نجحتَ في خداع الزعيم بكل هُراء الواحد زائد واحد ذاك، لكن صدقني، يمكن لكل ذلك أن يختفي. بسرعة. كل ما عليَّ فعله هو أن أُرِيه هذه الصور، وسأراكَ مُدلَّيًا من العوارض الخشبية في تلك الحظيرة. أفهمتَ أيها البليد؟».

لم أقُل شيئًا. وومضَت عينا الرجل العظاءة في المرآة.

- جيد، إذن دعني أشرحُ لك على نحو أبسط بعض الشيء، حتى تفهم. صرنا نحوز هذه الصور لك الآن، وإن لم تفعل ما آمرك به، سأرسلها إلى الزعيم وزوجتك أو حبيبتك أو أيًّا يكن، لا يهمني إن كنتَ تضاجع عنزة لعينة يا صاح. وسأرفق تفسيرًا مع الصور. بإجمال ما تقدَّم، كما أثق كل الثقة أنك ستقولها، أنت تعمل لصالحي الآن. أنا أملكُك.

لم أكُن لأقول شيئًا مثل بإجمال ما تقدم أبدًا، لكنني لم أخبر الرجل العظاءة بذلك.

- أخال أنك تمتَّعتَ بذلك، فليرا مثيرة أيما إثارة.
- ليرا؟
- أعرفُ أنك كنتَ متحمسًا.
- لمَ... هاجمَتني بتلك الطريقة؟
- لأنني أمرتُها بذلك.
- أنت تأمرُ أناسًا عراة بالجلوس في حجور أناس غرباء تمامًا؟

ضحك الرجل العظاءة، وكانت نفس ضحكة الحظيرة، هازئة وخبيثة.

- يمكنها فعل ما هو أسوأ من ذلك بكثير.

- بأمرٍ منك؟

- بلى، بأمرٍ مني. أظن أن الرسالة وصلتكَ أخيرًا. الأمرُ بهذه البساطة: أنا أملكها، وأملكك.

ظل كل شيء هادئًا لثوانٍ داخل السيارة، ثم لمحتُ تينك العينين الباردتين الزاحفتين في المرآة وسمعتُ صوته، أخفض من ذي قبل.

- المسألة واحد زائد واحد، يا آينشتاين.

10

لم أنم لحظة واحدة، بل جلستُ على الكنبة حتى الصباح بربطة عنق مُرتَّبة وكتاب في يدي. زارني شوبنهاور مرتين وسألني لمَ لستُ نائمًا في سريري، وفي كلتا المرتين ربَّتُّ عليه وهرشتُ له حتى نال كفايته وخلد للنوم. لم أتمكن حتى من حمل نفسي على إخباره بنوعية الأفكار التي تراودني أو بمدى انفعالي.

قضيت الساعات الأولى في محاولة تهدئة نفسي، إذ أدركتُ أن هذا أمر جوهري بكل ما للكلمة من معنًى. ورغم عجزي عن حساب نسبة الاحتمال الدقيقة لصيرورة شؤوني بهذا التعقيد في فترة بهذا القِصر، ما يزال عليَّ إيجاد طريقة عقلانية لدراسة الوضع الإجمالي الذي وجدتُ نفسي فيه، الأمر الذي يتطلب رأسًا رائقًا، وترويق رأسي يستغرق وقتًا.

الرجل العظاءة. لورا. أيه كيه. النادي الليلي المخفي. الجثة في الثلاجة. ليرا، راقصة الحجور العارية. الرجل الضخم. المصرف. غسل الأموال. الرجل المُدلَّى. بيرتيلا وقيادته العاطفية.

حاولتُ ترتيب كل شيء في ذهني، لأفهمه، وفي آخر المطاف، خرجتُ بما يشبه الخطة لكل اسم ومكان وغرض، إلا لورا هيلانتو عجزتُ عن خطٍّ خطةٍ لها، فعندما أحاول فعل ذلك، ينتهي بي الأمر آملًا ألا تمنعنا العناصر المكوِّنة لخططي الأخرى من زيارة متحف كياسما لنتعرف إلى الفن المعاصر. وهذا، بالطبع، يبدو أكثر من مجنونٍ بعض الشيء لأقول الصراحة، أي فكرة أن أكثر ما يقلقني بعد كل هذا، بعد كل ما جرى في الأسابيع الأخيرة، هو أن أعجز

عن مشاركة لورا هيلانتو أمسية من الفن. من الصعب تفسيرُ سبب توقي إلى النحت المعاصر، وشعوري أن تفسيرات لورا وشروحاتها عنه مهمة للغاية بعد أن شُدَّ شعري وتُحرش بي وهُددت حياتي، أو بعد أن بدأتُ -آنيًا- بغسل الأموال أو بعد أن استخدمتُ أذن أرنب عملاقٍ لأضرب حتى الموت رجلًا حاول قتلي.

كنت أحمل في يدي رسالة وصلت مع بريد البارحة من الوكالة الإقليمية للولاية. تقول الرسالة إنني، أو بالأحرى إن الشركة التي أنشأتها إلى جانب متنزه المغامرات، صارت تتمتع بالحق القانوني للعمل بصفة خدمة إقراض مال. وفي هذه الأثناء، ملأ المحامي هيسكانين صندوق واردي بمختلِف الوثائق والتبليغات. لقد عمل بسرعة ونفذ تعليماتي، وكانت فاتورته، التي تصدرت الكثير من الوثائق المرفقة ببريده، كبيرة. بالإضافة لذلك، أخبرني بإطنابٍ نوعًا ما أن ابن أخيه، وهو طالبٌ في كلية تكنولوجيا المعلومات، قادر على مساعدتي -بصورة غير مفاجئة- في المسائل المتعلقة بتكنولوجيا المعلومات خاصة المصرف.

كل شيء جاهز. يمكنني منح قرضي الأول.

بحلول الساعة السادسة والنصف، كان الضوء قد انبلج. لم يكُن ساطعًا بالضرورة،·لكن ثمة ما يكفي منه لنقول إن نهارًا جديدًا قد طلع. قمتُ عن الكنبة، واستحممتُ، وارتديتُ ملابس جديدة، ثم تناولت الفطور مع شوبنهاور، وتحققتُ من ربطة عنقي وغادرتُ إلى متنزه المغامرات، مثلما سيفعل كثيرون، كما آمل.

11

كانت مينتو كيه جاهزة للبدء من فورها، ولم تتحدَّني هذه المرة. ربما رأت جدِّيتي جلية. لقد كنتُ جادًّا من قبل أيضًا، لكنني لاحظت أنني صرت أتحركُ وأتكلم بطريقة مختلفة، مباشرة أكثر، كأن لا وجود لبدائل أخرى. وهذا صحيح بالطبع، لا وجود لها.

وكما هو متوقع، كانت تفوح منها رائحة الجِن والسجائر رغم أن الساعة لم تتجاوز التاسعة صباحًا، إما هذا وإما أن الرائحة مُتشرَّبة في الجدران والأثاث والأعداد الهائلة من الألبسة المعلقة في خزانة مكتبها. يشبه الأمر الجلوس في حانة في منتصف تسعينيات القرن الماضي. كانت تلبسُ صدارة بيضاء ضيقة وسترة سوداء، وتبدو سمرتها شديدة حد أنها أكثر برونزية من السائح السويدي العادي.

قالت بصوت يشبه ورقتَي صنفرة تتحاكَّان: «عزيزي، سأجلبُ اختصاصي الرسوميات المفضل عندي ليعمل على هذا، وستكون التصاميم جاهزةً بحلول الظهيرة».

تركتها لتطلبَ الملصقات والمناشير والنشرات الإعلانية -وهذه مصطلحاتٌ تعلمتها في سياق محادثتنا- وعدتُ إلى مكتبي، حيث جلس ابنُ أخ هيسكانين بخراقة خلف حاسوبي المحمول، وراحَت أصابعه تراقصُ لوحة المفاتيح، ليخبرني بعد ذلك بقليل أنه انتهى، فشكرته وقام عن الكرسي مثل عود ثقاب نابض بالحياة: حركاته زاويَّة وأطرافه مهزولة. أخرجتُ من محفظتي مئتَي يورو وناولته إياها، فنظر الصبي إلى أربع الورقات النقدية من فئة خمسين

يورو كأنه قد غمس يده للتو في شيءٍ كريه. أخبرته أن هذه تمثل أجرًا ساعيًا قدره ثلاثمئة يورو تقريبًا، فأجاب قائلًا: «مئتان وتسعة وثمانون يورو وسبعون سنتًا، لنكون دقيقين». نظر واحدنا إلى الآخر للحظة ثم أخرجتُ ورقة خمسين يورو أخرى من محفظتي وأعطيته إياها. بطريقة غريبة ما، شعرتُ تقريبًا أنني أنظرُ في مرآة، مرآة تشوه الزمان، كأنني كنتُ ذاك الشاب ونفسي التي في منتصف العمر في الآن نفسه، وفكرتُ في آينشتاين ونظريته حول انحناء الزمكان، وكيف يمر الزمان في أماكن أسرع من سواها.

ثم نظرتُ إلى ساعتي الأرضية، منتبهًا إلى أن الزمان والمكان لا ينتظران أحدًا، وتوجهتُ إلى المدخل لأريح كريستيان من عبء طاولة البيع. كنتُ قد وقَّتُّ هذا التسليم حتى يجري وثمة ما يكفي من الزبائن المصطفِّين طلبًا للتذاكر، فلا يتسنى لكريستيان بدء محادثة أخرى حول الصيرورة مديرًا عامًا، وعلى نحو غريب، بدا غير راغب بالحديث في ذلك. لا يمكننا إلا أن نأمل أن محادثتنا، التي اتصلتُ فيها روحيًّا ببيرتيلا بائع زيت الثعبان[1] كأنني ودَّعت جسدي وسلمته لرب عملي السابق يستخدمه كما يشاء، قد أخافت كريستيان بقدر ما أخافتني. لم يقُل كريستيان شيئًا، بل اكتفى بثني عضلاته أكثر من المعتاد بينما يجمع أشياءه -مفاتيحه وهاتفه ومحفظته ومخفوق البروتين- وراح يفعل ذلك كما لو أنه يستعرض عضديتيه ذاتَي الرأسين أمامي، وأعترف أنهما بديعتان. وبينما همَّ يغادر، بدا أنه فرشَ عضلات ظهره ورفعَ كتفيه، فشعرتُ للحظةٍ أننا هبطنا في وسط الغابة وسقطنا بضع درجاتٍ على السلم التطوري.

ثم حدث الأمر. منحتُ قرضي الأول. لم يكُن ذلك بالغ الصعوبة، فقد حضر ثلاثة أطفال، كلهم من العمر حيث يكونون أكثر من قادرين على التذمر حتى ينالوا ما يبتغون، وبالكاد يمتلك أبوهم مالًا يكفي لتغطية ثمن تذاكر الدخول. علقتُ تعليقًا عابرًا قلتُ فيه إن حالته المادية تبدو متداعيةً جدًّا، فقال إنه مدرك ذلك، ثم خفض صوته وسألني من تحت حاجبيه الداكنين الكثين ما

(1) زيت الثعبان كناية عن التسويق المخادع. يشير إلى الزيت المعدني ذي الأساس البترولي أو «زيت الثعبان» الذي كان يُباع على أنه إكسير علاجي شامل للعديد من المشكلات الفيزيولوجية. (المترجم)

علاقتي «اللعينة التافهة» بذلك. أجبته أنه ليس من شأني بالطبع، فأنَّى له أن يكون؟ لكن بوسعي منحه قرضًا صغيرًا في الحال، وبعد محادثة وجيزة، أدخل بضعة سطور من التفاصيل على الجهاز اللوحي فوق طاولة البيع، ففُتح حساب قرض مرنٍ باسمه وأودع المال في حسابه.

جاءت مينتو كيه لتخبرني أن المواد التي طلبَتها ستصل غدًا، لذا سأضطر في الوقت الراهن إلى إخبار الناس شفهيًّا بإمكانية أخذ قرض. لم أُجرِ تسويقًا مباشرًا كهذا من قبل، لكنني تعلمت سريعًا أكثر الطرق فعاليةً لعرض خدمتنا الجديدة على الناس: أُبدي تعليقًا أشير فيه إلى أنهم يبدون فقراء بعض الشيء، وأقول إنني أرغب بمساعدتهم. بدأت الأمور بالإقلاع سريعًا، وكما تصورتُ تمامًا، يحتاج الكثير من الناس إلى مبالغ صغيرة من المال، مئة أو مئتَي يورو تعينهم لا أكثر. لكن عددًا مفاجئًا منهم آثر سحب الحد الأقصى البالغ ألفَي يورو مباشرةً. باغتني ذلك، وبخاصة لأن لائحة أسعار المتنزه معروضة على طاولة البيع، لذا لا يحتاج الأمر إلى أكثر من عملية حسابية بسيطة لعرفة تكلفة التذاكر وزيارة المقهى. وأيضًا، بدا أن الأسعار تفقد معناها في لحظة ضغطي زر «إدخال» وتنويهي بأن القرض قد نال الموافقة. لكن أكثر ما فاجأني في كل ذلك كان حقيقة أنه لم يظهر على الناس إيلاء أي اهتمام للأمر الذي كرَّستُ له أغلب التفكير: معدل فائدتنا الأكثر من مُنصف. مسألة الفائدة شيء لا يرغب الناس بسماع تفاصيله حتى. ومع تزايد عدد القروض الممنوحة، تزايدت حيرتي تجاه الأمر. كل ما عليَّ فعله هو ذكرُ احتمالية المال، ليصمَّ الناس آذانهم عن كل شيء آخر.

كنت بالكاد قد تمكنتُ من تطوير الفكرة أكثر وقتما لاحظتُ أن ثمة رجلًا يقف في المدخل مواجهًا إياي منذ بعض الوقت. بدا في البداية مثل واحد من كثير الآباء والأمهات في مجال بصري المحيطي، من الذين ينتظرون، إما قادمين وإما راحلين، ويختفون بعد ذلك في المتنزه (بعد أن استدانوا بعض المال) أو في مرأب السيارات (بعد أن أنفقوا ما استدانوه).

لكن في مرحلةٍ ما، أوجستُ أن هذا الرجل ليس ينتظر بداية أو نهاية يوم من المرح والألعاب في المتنزه، بل ينتظر أن يخلو البهو ليكون وحده. وعندما

حدث ذلك، حالما تلاشت آخر الصيحات المجلجلة في الفوضى داخل المتنزه، اقتربَ من طاولة البيع.

كان الرجل دحداحًا، لكن خطوَه حازم، ويرتدي سترة ذات لون رماديٍّ أسمنتيٍّ، وقميصًا ذا مربعات زرق وبيض، وسروالًا من الفلانيل الأزرق وينتعل حذاءً جلديًّا أسود. ما بقي من شعره الأشقر مُسرَّح بإحكام إلى الخلف فوق جلدة رأسه، ووجهه ضخم وزاويٌّ، وحاجباه يبدوان مُستهلكَين. كان قصيرًا وذا بطنٍ في الآن نفسه، وعيناه الزرقاوان الفاتحتان تنظران هنا وهناك بما يبدو حَذَرًا قبل أن تستقرا عليَّ.

- بينتي أوسمالا، شرطة هيلسنكي. مساء الخير.

قلت، محاولًا ألا أتخشَّب بالكامل: «مساء الخير».

لعلي كنتُ أتوقع أن يحدث هذا في مرحلةٍ ما، وكنتُ أحضر نفسي لا شعوريًّا للمحتوم، لكن مع ذلك، أرسلَت حقيقة أنني الآن أقفُ وجهًا لوجهٍ مع شرطيٍّ حقيقيٍّ رعشةً على طول عمودي الفقري.

- أود محادثة المدير، يوهاني كوسكينين.

قلتُ: «لقد قضى نحبه، للأسف»، مدهوشًا من اختياري للكلمات.

بالطبع كانت وفاة يوهاني مؤسفة -هذا ما كانته بالضبط- لكن أهي مؤسفةٌ في هذه اللحظة، في هذا السياق المُحدَّد؟ ربما علة زيارة الشرطي تخص يوهاني وحده، وفي تلك الحالة على الأقل لن تكون مؤسفة.

لوَّح أوسمالا بيمناه، وكان يحمل حقيبة يدٍ صغيرة بدَت أشبه بصندوق من نوعٍ ما، ثم فتحها، وأخرج بيسراه ورقةً، ونظر إلى المستند.

- من المسؤول عن سير العمليات هنا؟

- أنا.

- هل أنت...؟

- هنري كوسكينين.

قال: «فهمت»، وأومأ برأسه، «هذا منطقي».

ثم أعاد المستند من حيث جاء وظل صامتًا، ولم يظهر أنه مقبل على إخباري ما هو المنطقي بالضبط.

قال أخيرًا: «أتساءل عما إن كان بوسعنا التكلم لدقيقة»، وكان قوله بلاغًا أكثر منه سؤالًا، «إنني أشتهي القهوة وربما شيئًا حلوًا معها أيما اشتهاء».



رافقتُه إلى مقهى كيرلي كيك. كان المكان يغصُّ بأناس أقل من نصفهم بالغ، والضجيج مُدوِّخ، وتفوح منه رائحة طبق اليوم: كرات لحم ماما والبطاطا المهروسة النطَّاطة. وقفتُ والشرطي بصمتٍ في الطابور، وحالما صار دورنا، طلب كعكة الفانيلا الكثيرة وطلبتُ شطيرة توت الجدة البري الأفضل، وكانت يوهانا، بينما تصبُّ القهوة، تراقب القهوة والشرطي وأنا.

لم نجد إلا طاولة شاغرة واحدة، موضوعة بعيدًا عن الآخرين بُعدًا مناسبًا، بجوار باب المطبخ. كانت طاولة الأطفال خفيضة وصغيرة، لكن الكراسي كراسي المقهى النظامية، من قياس البالغين، ما يعني أننا اضطررنا إلى الانحناء لوضع قهوتنا وكعكاتنا على الطاولة المصغرة. بدا أوسمالا غير منزعجٍ من ذلك، ولم يضايقني أيضًا، بل ما أثقل عليَّ أكثر بكثير وأصابني بشعورٍ قلقٍ واضح هو ما أمكنني رؤيته من النافذة المستطيلة للباب المتأرجح المودي إلى المطبخ: الثلاجة حاوية النعش منتصبة، مهيبة ولامعة، على بُعد أربعة أمتار ونصف المتر فقط.

قال أوسمالا قبل أن يقضم أي قضمة حتى: «تؤسفني وفاة أخيك».

بدا كأنه قد نطق بشكل أو بآخر هذه الكلمات نفسها مرات عديدة قبلًا، وما زلتُ لا أعرف كيف أرد. شعرتُ أن شكره غير ضروري، ذلك أنه ليس آسفًا حقًّا، ولست قادرًا على الامتنان لكلماته المنافقة.

- أحدث ذلك فجأةً؟
- لقد عانى يوهاني عيبًا خِلقيًّا في القلب. لمَ؟ هل تحقق الشرطة... أعني، أنتَ أيها الضابط...؟
- نادِني بينتي، ولا، الشرطة ليست تحقق في موت يوهاني كوسكينين.

إذن، أخمِّن أن اسمه بينتي وهو يحقق في شيء آخر. اختفت شهيتي لشطيرة التوت بغتة.

- في الحقيقة، إنها مسألة أكثر إيسافًا، وتخص أخاك من كل بد أيضًا. عندنا أسباب تحملنا على الاعتقاد أنه كان يتعامل مع عناصر إجرامية.

عضَّ أوسمالا حصَّةً من الكعكة ونظر إليَّ عبر حشوة الفانيلا المتسربة.

- عناصر إجرامية؟

أومأ برأسه، واحتاج إلى بلعة قهوةٍ ليستعيد قدرته على الكلام. بعد إعادته وضع الكوب على الطاولة -وقد أُجبر على الانحناء كأنه يربط رباط حذائه- فتح حقيبته الشبيهة بالصندوق، وأخرج بعض المطبوعات الملونة ووضعها بجوار كوب القهوة. كانت صورة موقوفين قياسية، وبدا الرجل فيها أكثر اسمرارًا مما يبدو عليه في ثلاجتي، أما بخلاف ذلك، فهو الشخص نفسه من دون شك.

- إننا نشكُّ في أن أخاك وهذا الرجل كانا منخرطَين في صنفٍ ما من التعاملات المالية. هذا الرجل مجرم محترف، وله ملف جنائي يُبرز كل ما يمكنك تصوره، وصولًا إلى القتل غير العمد. شخصية خطرة أقصى الخطر. ويظهر أنه اختفى. من الممكن أنه غادر البلاد، رغم أنني شخصيًّا لا أرى ذلك مرجحًا جدًّا، أو لعله مختبئ، سواء أكان بإرادته الحرة أو... غير ذلك. في أوساطه، ليس غريبًا على الناس أن يختفوا، وفيما بيننا، لن أتفاجأ إن كان أحدهم قد فقد صوابه منه ومدَّ له يد مساعدةٍ بسيطة في الاختباء، إن كنتَ تفهم قصدي، لم يكُن هذا الرجل من مرشحي جائزة نوبل للسلام.

أبقيتُ عينيَّ على الصورة.

- هل رأيته بصحبة أخيك قط؟

أجبتُ، بصدق: «لا».

- وهل تعرفه أي معرفة؟

- لا يمكنني القول إنني أعرفه.

أزلق أوسمالا الصورة عودًا إلى جانبه من الطاولة، ثم أرجعها إلى حقيبته مع بقية الأوراق.

- إذن أنت مالكُ متنزه التسلية الآن، أليس كذلك؟

أجبت: «بلى»، وشرحتُ أنه متنزه مغامرات لا متنزه تسلية، وفعلتُ ذلك بإسهاب مَزيد، في الغالب لأنه يمنحني وقتًا للتجهُّز لما أظنه سيحدث تاليًا. وكما خمنت، لم يكُن أوسمالا مهتمًّا بالفرق بين نوعَي المتنزهات.

- لعل الوقت غير مناسب لطرح سؤال كهذا، لكن هل تحدثت وأخوك عن سير المتنزه قبلًا؟

- كان يخبرني أحيانًا عن المقتنيات الجديدة، كقطار الكومودو على سبيل المثال، أذكر أنه أخبرني بذلك.

- ماذا قال؟

- إن القطار يمثل تنين كومودو طويلًا ولامعًا، وإن رأس المخلوق المبتسم كاملًا مع لسانه المُشعَّب هو المحرك، وإن الرحلة تحمل أربعين طفلًا دفعة واحدة، وبحسب سرعة الدوس، تستغرق الدورة نحو خمس دقائق ونصف الدقيقة.

- أعني، هل تكلم قبلًا عن طريقة تمويله هذه المقتنيات؟ من أين جاء المال وإلى أين ذهب؟ أذَكرَ لكَ أي شركاء أعمال؟

قلت، بصدق تام ثانيةً: «لا. لم نتكلم عن المال قط، ولم أملك أدنى فكرة عن أيٍّ من الناس يعمل معهم، أو عن أشخاص كالرجل في الصورة».

أومأ أوسمالا: «رجل خطر جدًّا».

فأقررت: «يبدو كذلك بكل تأكيد».

- كيف يُبلي المتنزه؟

حمل صوت أوسمالا النبرة نفسها، نفس نغمة الصوت التي قال بها كل ما قال، كتعليق عابر تقريبًا، وأدركتُ أنه يفعل ذلك عامدًا. ثم بدا كأنه يفكر في شيء ما.

- إننا في مرحلة انتقالية. لا بد لي من الاعتراف أنني لم أعمل في قطاع متنزهات المغامرات من قبل، وقد أخذني ذلك على حين غرة تمامًا،

فكل شيء جديد. يبدو أن عدد زوار المتنزه يتزايد، وأرقام المبيعات والموازنة العمومية متينة. إننا ننتوي توسيع...

- ماذا عن الموظفين؟ أهم نفسهم الذين كانوا في عهد أخيك؟
- أجل، كلهم.
- أتمانع أن أُريهم هذه الصورة وأسألهم عما إن كانوا قد رأوه قبلًا؟
- بالطبع لا.

حشر أوسمالا قطعة كعك بحجم كرة التنس في فمه تاركًا حشوة الفانيلا تلطخ وجهه، ثم مسح شفتيه بينما يمضغ فكه العملاق الفوضى اللزجة. لم نتكلم في خلال هذه العملية، فما عندي شيء أقوله، ولسان أوسمالا مُثقل بنصف كيلوجرامٍ من العجين. تبيَّنتُ أن كل ما يقوله بعثة صيد من صنف ما كل كلمة فيها تحمل معنًى إضافيًّا واحدًا على الأقل. راح الأطفال يركضون حولنا ويصرخون ويتذمرون، والبالغون يمسحون وجوههم الصغيرة ويطلبون منهم الجلوس بأدب، لكن لا يحمل كلامهم أدنى تأثير. تدبر أوسمالا أخيرًا ابتلاع لقمته، وحتى في خضم الجلَبَة، كنتُ واثقًا أن بإمكاني سماع الكعكة تُسحَق في طريقها عبر حُلقومه العريض، ثم سألني: «أيعجبك هذا؟».

- الكعكة؟

قال: «متنزه المغامرات»، وأومأ ناحية الردهة.

- لم أفكر فيما إن كان يعجبني أم لا. لقد ورثته، ونادرًا ما يتسنى للناس اختيار ما يرثونه.
- ماذا كنت تعمل قبل ذلك؟
- أكتواريٌّ.

شرحتُ لأوسمالا بإيجاز كل ما حدث، ثم قدمتُ اعتذاراتي وقلتُ إن عليَّ العودة إلى العمل حقًّا، إن لم يكُن في ذلك مشكلة. أجاب بأن لا مشكلة البتة، فوقفنا، وكنا قد مشينا نحو خطوة ونصف وقتما توقف فجأةً، فاعلًا ذلك بقوة جعلتني أقف أيضًا.

- أتودني أن أترك الصورة التي أريتك إياها؟

بذلك السؤال، تغير شيء ما في وجه أوسمالا. فرغم انخفاض صوته ورقَّته، ورغم أنه يرمي السؤال مرة ثانية في معرض الحديث تقريبًا، ظهر شيء آخر في مُحيَّاه. كنتُ يقظًا على نحوٍ ملائم، فإن علمتني الأحداث الأخيرة شيئًا نافعًا، سأقول إن مباغتتي الآن صارت أصعب بكثير مما كانت عليه في أثناء عملي في مكتب بيرتيلا على سبيل المثال، في المرة التي قُدر لها أن تكون الأخيرة.

فقلت، بصراحة مطلقة: «لا حاجة لذلك، ليس من أجلي على الأقل، فأنا واثق أنني ما كنتُ لأنسى وجهًا كذاك».

ألقى أوسمالا نظرة إلى فطيرة التوت خاصتي التي لم تُذَق.

- بالطبع لا، فثمة الكثير من فئران الكعك الصغيرة السعيدة المُجدَّة في مكان كهذا.

لا فكرة لدي عن منبع هذي الكلمات. لعله تأثير مقهى كيرلي كيك بكل أسماء المنتجات الغريبة والصور العجيبة الرائعة خاصةً المستخدمة للترويج للطعام. ظل أوسمالا يحدق إلى فطيرتي، ثم رفع عينيه الزرقاوين الفاتحتين لينظر إليَّ. وقال، بالصوت الخفيض الرقيق نفسه: «يمكنك وضعها في الثلاجة متى شئت».

12

مر الأسبوع سريعًا، ولم أسترخِ في آخر الأمر إلا يوم الجمعة في متجر المعدات. حسنًا، لعله ليس استرخاءً بالمعنى الحرفي، لكن بدا أن مشكلاتي تلاشَت بعض الشيء، أو ابتعدَت قليلًا. عندما سألتني لورا، وعدتها في ذاك الزمان والمكان أنني سأذهب معها. كنا في المساء وكان متنزه المغامرات قد أغلق أبوابه، وكنتُ قد أمضيتُ الأسبوع أمنح القروض، وعدة أيام أفكر في زيارة الشرطي. قضيتُ الأسبوع أحاول حل مشكلاتي، لكنني حتى الآن لم أجد أي حلول سريعة.

صادفتني مفاجأة في متجر المعدات أيضًا، وهذه المفاجأة شبيهة في طبيعتها ببقية المفاجآت التي اختبرتها في الأسابيع القليلة الماضية، حيث شعرت بما يشبه الصحوة مفاجئةً، كأن إحدى حواسي كانت نائمة ولم تُخَضَّ مُستيقظةً حتى الآن. لم أشعُر بالألفة في أماكن كهذا قط، لكن الآن.. الآن ثمة شيء مُسكِّن عميقَ التسكين في رائحة متجر المعدات. يحضر هنا شعور أننا نتعامل مع شيء لُجيٍّ وجوهريٍّ. هنا يبني الناس الأرضيات والجدران والسقوف، ويشترون الحجر والخشب والمعدن، ويقبضون على المقابض والأدوات والقضبان، وتصدر أفعالهم أصواتها الصاخبة المميزة الخاصة. يُمكن الشعور بعملهم عبر الجسد، ويمكن رؤية التطور بالعين المجردة. يمكن شمُّ رائحة الخشب، ولمسُ برودة المعدن. كل شيء هنا متماسك، ومحسوس، إذ يتقدم العمل مسمارًا مسمارًا، وبرغيًّا برغيًّا.

هذه هي أفكاري، ليسَت عمليةً تمامًا لأنني أعرف كيف تجري عمليات تجديد المنازل حقًّا: تُكلِّف ضعف التكلفة الأولية وتستغرق ضعف الوقت

المُنتوى. لكن حلم يقظتي متعلق أكثر بالشخص الذي أرافقه إلى المتجر، فسواء أراق لي الأمر أم لا، ثمة شيء ما يحدث دائمًا عندما أكون بصحبة لورا هيلانتو: أشعر بوميض حيوية داخلي، مزيج من الدغدغة الجسمانية، والصور التي تغزو مُخيلتي، ورغبة عصية على الفهم في البدء بالتكلم و-كما تبادر إلى إدراكي- عادة ما ينطوي ذلك على حدوث شيء غير متوقع البتة.

قالت لورا حالما دنونا من سلسلة طويلة من العربات وجذبت واحدة محررة إياها: «فلنتجه مباشرةً إلى قسم الطلاء، ولنحاول أن نستعجل».

أخبرتها أنني لستُ في عجلةٍ من أمري، ما دمتُ أحضر في العمل صباح الغد، فقهقَهت، رغم أنني جادٌّ. رحتُ أدفع العربة الفارغة، فأصدرَت صوتها المألوف ذاك، شيء ما بين جلجلة خفيضة وصرير حاد، ثم امتزج شذى لورا برائحة متجر المعدات، وبدأتُ أنسى تفاصيل يومي. رفعت بصرها إليَّ ومنحتني ابتسامة وجيزة، ونظارتها تعكس الضوء. كان بمقدوري دفع تلك العربة ألف كيلومترٍ بسهولة، كما أظن، ما دامت بجواري. وفي الآن نفسه، خطر لي أننا لم نتكلم كثيرًا في خلال طريقنا إلى هنا، وأنها منذ طلبت مني مساعدتها في حمل الأغراض في الصباح، لم تسمَح لي بالنظر في عينيها إلا نظرات عابرة.

وصلنا إلى قسم الطلاء، وتدبرنا الإشارة إلى مساعد مبيعات حاول في البدء العبور من جوارنا، كأننا لسنا واقفين أمامه ولا نتمتع بهيئة مادية على الإطلاق، ثم بدأت لورا عملية انتقاء الطلاء. كانت تحمل معها مجموعة من العينات، وأرَت المساعد التصاميم والمسودات على جهازها اللوحي، ولائحة من رموز الألوان. كان المساعد شابًّا ذا شعرٍ أشقر برَّاق، وبدا لا يتمتع بعضلات تكفي ليرفع علب الطلاء الثقيلة. ورغم ذلك، تمكن من مزج الألوان وفقًا لمواصفات لورا، وراحت العربة تمتلئ، علبة تلو الأخرى، وعندما أخذ يمزج درجة من اللون الأخضر من أجل جدار أوكيفي سمعتُ صوت رجل بجانبي: «لورا، مرحبًا».

أدرتُ رأسي ورأيتُ رجلًا بعمري تقريبًا، وهنا ينتهي التشابه بيننا. كان قصيرًا ورياضيًّا، وعضلاته مرئية بوضوح من تحت قميصه الأسود، وله عينان حادتان بتدرُّجٍ بُنيٍّ داكن وشعر أسود قصير.

قالت لورا: «أهلًا كيمو».

أدرنا كلنا رؤوسنا عدة مرات بعد ذلك، فإلى جوار الرجل المسمى كيمو، وقفت امرأة أصغر سنًّا بكثير، شعرها مصبوغ بلون أسود فاحم، ومن الواضح أنها حامل وأنها مُحرَجة. كانت أقصر من كيمو، ويبلغ قصرها ونحلها درجة أن نتوء بطنها يشبه نوعًا ما من الأوهام البصرية المستحيلة. نظر كلٌّ منا مرة على الأقل إلى بقية الواقفين في الزوايا الأربع للمربعِ الدقيق هندسيًّا الذي يبدو أننا شكلناه، ثم عادت أعيننا إلى ما كنا ننظر إليه في المقام الأول.

قال كيمو للورا: «إنك تشترين الطلاء، أثمة معرض قادم؟».

- لا. بلى. نوعًا ما.

قال كيمو: «هذه سوسا»، وأشار إلى بطن سوسا.

- أنا هنري.

نظر كيمو إليَّ، ولم يقل شيئًا، ثم أعاد انتباهه إلى لورا.

- لا بد أن أنباء معارضكِ فاتتني.

- لم أُقِم أيها. كنتُ أقضي وقتي في... أشياء أخرى.

- فهمت. كيف حال فيفي؟

فقالت: «اسمها تولي»، وصارت حرارة صوتها تحت الصفر، «تولي بخير».

- افتتاحي الكبير الشهر القادم. إنني أبحث عن سلك شائك، وبعض الأعمدة المعدنية، وسياج سلكي. العمل الجديد نقدٌ للعولمة، وطريقة تحكمها بنا واتجاهها إلى تدمير كل شيء في النهاية، ساحقةً كل شيء تحت ثقلها. الطبيعة، والناس، والفن. طريقة زجها إيانا في إسطبل لنأكل ونخرأ وننفق المال ونموت. لا شيء يحمل أي معنى الآن إلا المال. المال، والمال، والمال. الاستهلاك، والاستهلاك، والاستهلاك. إنني أرفض ذلك جملةً وتفصيلًا. ما يزال نصف منتهٍ. تعرفينني.

لم تقل لورا شيئًا. لعلها لا تعرف كيمو كما يظن أنها تعرفه.

واصل كيمو كلامه، وبدا كأنه لم يلاحظ ما إن كانت لورا قد أجابت أم لا: «أريدُ أن أعرب عن حجم الشعور الخانق في هذه الدولة الشرطيَّة، في هذا الجحيم الجهنمي السوقي الحي الذي صار عاديتنا الجديدة. وطريقة تعرُّض

جميعنا للاضطهاد باستمرار. بيع أحد أعمالي لمعرض في لندن -الذي زرناه معًا- ثم ذهب آخر إلى ماليزيا، وثالث إلى تورونتو»، ثم ألقى نظرة ناحية سوسا، «لقد انتقلنا للعيش معًا مؤخرًا، إلى شقة أكبر في وسط المدينة. كنا في حاجة إلى المساحة، بسبب الصغير القادم في طريقه. لا تمانع سوسا قولي إنه صبي، كيمو جونيور».

لستُ أعرف كيمو، ولستُ واثقًا إن كان هذا الصنف من الثرثرة طبيعيًّا بالنسبة إليه. لكنني أعرف أن عليه التفكير في الكلمات التي يستخدمها، ذلك أن ما يقوله في هذه اللحظة لا يحمل أي معنًى أو منطق على الإطلاق. تساءلت للحظة عما إن كان ينبغي لي إخباره بذلك، لكن لورا تدبرت التكلم قبل أن أحظى بفرصة.

قالت: «علينا أن نمضي»، وحملَت آخر علب الطلاء عن طاولة البيع ووضعتها في العربة ثم دفعتها، فبدأت أدفع كذلك.

قال كيمو بينما نعبره وسوسا: «هيه، ما خطبك؟ سأرسل لكِ دعوة إلى الافتتاح. أما زلتِ تعيشين في مونكيفوري؟».



لم أسأل لورا عن تاريخ معيشتها في مونكيفوري حتى دفعنا ثمن الطلاء، فأجابت: «لم أعِش هناك قط».

- إذن لمَ قال كيمو ذلك؟

- لأنه رجلٌ محب لذاته ومهووس بها، لا يفكر إلا في نفسه، ويظن أن كل فكرة تمر في رأسه عبقرية نقية محضة يجب علينا نحن الفانين التافهين أن نستبدعها كما يندهل الأهل ببراز أطفالهم الأصفر الفاتح، وهذه حقيقة معظم أفكاره وقتما تخدش سطحها. لأنه وُلد وفي فمه ملعقة من فضة، التي استبدل بها ملعقة من البلاتين عندما أقام معرضه الأول، الذي كان ناجحًا تمامًا كبقية معارضه مذ ذاك الحين. لأن كيمو مُزيَّف، إنه مدلل وموسِر وضيق الأفق، ويعيش في فقاعته

النتنة الخاصة حيث هو سمكة كبيرة في بركة صغيرة وموحلة جدًّا. لأن لا أحد يرفض له طلبًا. هذا السبب على الأرجح.

انفتح الباب المنزلق، وخرجنا إلى مرأب السيارات، وراحت عجلات العربة تُدردر، والعلب تطرطق.

سألتها دون أن ألحظ تقريبًا: «كيف تعرفتِه؟».

- أهذا حقًّا...؟ من أيام الدراسة.

سكتت لورا لوهلة، ثم قالت كلماتها التالية زفرًا أكثر منه نطقًا: «وقد تواعدنا لبضع سنوات، ولم يسِر الأمر على خير ما يرام. كان المُنطلَق خاطئًا تمامًا».

ظننتُ في البداية أن درجة حرارة الهواء قد انخفضت انخفاضًا كبيرًا، وهبط الليل بسرعة مفاجئة، ثم أدركتُ أن شيئًا في الخارج لم يتغير: الأمسية السبتمبريَّة دافئة نسبيًّا، ومرأب السيارات مضاء جيدًا، والمشهد ليس ليليًّا بأي شكل. لا أعرفُ أين ذهبت الخفَّة كلها، وتلك الدغدغة التي كنتُ أشعر بها منذ برهة. وتبدَّلت مُخيلتي فجأةً كذلك، ففي الماضي كنتُ أرى لورا فقط، والآن صرت الآن أرى لورا وكيمو معًا. إنها ظاهرة استثنائية. شعرتُ كأن أحدهم يحرك منكاشًا في أحشائي.

وصلنا إلى سيارة لورا وفتَحَت الصندوق، فبدأتُ بوضع علب الطلاء في الداخل. شعرتُ بالدوار تقريبًا، كأنني في هذه الأيام لم أعُد أعرفُ نفسي حق المعرفة.

ثم قالت لورا بينما أحمل آخر علبة إلى الصندوق: «أحسبُ أن عليَّ سؤالك شيئًا ما أيضًا، ما الذي أراده ذلك الشرطي اليوم؟».

فقوَّمتُ وقفتي، وضغطتُ الصندوق مغلقًا إياه. أهذا ما كان يكدرها طيلة النهار؟ أهذا سبب صمتها الزائد سابقًا؟ وكيف عرفت بذلك؟ لم أذكر زيارة الشرطي أمام أحد، لكنني لا أريدُ الكذب عليها. قلت: «كان يسأل عن ارتباطات مُحتملة بين يوهاني ورجل ما».

وهذه هي الحقيقة.

- الرجل في الصورة؟

هذا صحيح، لقد جال المحقق أوسمالا في الردهة بعد أن عدتُ إلى المدخل.

- أجل.

- فيمَ كل ذلك؟

كنا واقفين على الطرفين المتقابلَين من السيارة، نتكلم من فوق السقف.

- تعتقد الشرطة بوجود اختلاف في وجهات النظر المالية بين يوهاني وذلك الرجل.

- أأمور المتنزه بخير؟

ترددتُ لنحو نصف ثانية.

- يبدو أن المرحلة الانتقالية ستقضم من حساباتنا. لكنني أعتقد أن كل شيء سينجح في النهاية.

ظلت لورا صامتة، ثم فتحت باب السيارة في جانبها، وقالت: «يسرني سماع ذلك».



صار الجو في السيارة الآن مختلفًا بطريقة أو بأخرى عما كان عليه من قبل، ولا أظن أن هذا مردُّه إلى حشو الصندوق عن آخره بعلب الطلاء الممزوجة حديثًا. للحظة، لم أكن واثقًا بماهية ما يدور في ذهني، حتى أخذ الصدى يزداد قوة دورةً دورة. كان المنطلق خاطئًا تمامًا. هكذا وصفت لورا علاقتها بكيمو. وجدتُ نفسي أتساءل عن طبيعة ذاك المنطلق، عن طبيعته الدقيقة، عن لُبِّه. لستُ أدري لمَ أفكر بما أفكر فيه. لستُ أدري ما علاقة العلاقة التي دامت سنينًا بين لورا والنحَّات المعاصر المدلل بي، ولمَ تثير الفكرة صورًا أحبذ ألا أراها. لكن يبدو أن ما بيدي حيلة حيال ذلك.

13

كان جسدُ شوبنهاور الضئيل الموتور يرتعش ويرتجف مثل أحد أجهزة المطبخ، وراح يخرخر بتوقٍ لم يظهر عليه منذ وقت طويل، فقد تناول فطوره، وتفاجأ أنني لم أذهب إلى العمل بالفعل، رغم أنه أول يوم عملٍ بعد عطلة نهاية الأسبوع، لكنني بدلًا عن الذهاب قعدت على الكنبة رفقة فطوري الخاص. تبعني وجلس بجواري، وشعره الأسود الطويل يتلألأ تحت ضوء الصباح بينما يبحث عن بقعة مناسبة ووضعية مريحة ليهضم فطوره بالنوم. ما يزال معظم الشمس مختبئًا خلف البناء المقابل، لكن وهجها المنتشر في السماء الصافية مهيبٌ جدًّا ولا يُقاوم حد أن شريحة صغيرة منه تكفي لتبطن غرفة الجلوس بضوء ساطع دافئ.

كان المحامي قد أرسل لي بريدًا إلكترونيًّا يصحبه رابط، طلب مني فيه أن أختار نعش يوهاني ثم أخبره بقراري.

لم يقابل شوبنهاور أخي يوهاني قط، لذا في نظره المسألة برمتها سحيقة، ولم أزعجه بالتفاصيل، إذ يُخيل إليَّ أن لديه كروبه الخاصة، ومهماته الخاصة. ولطالما كان مثاليًّا في إحدى مهماته، لطالما كان عمليًّا. كان كذلك في صغره أيضًا، لهذا سميته بهذا الاسم. لم أفكر في الأمر منذ زمن بعيد. صار عمر شوبنهاور سبع سنوات الآن، ولو كان آرثر شوبنهاور الأصلي، الفيلسوف وسَمِيُّ قطِّي، ما يزال حيًّا، لكان في أرذل العمر بسن تبلغ 232 عامًا. لا أدري ما قد يفهمه المتشائم سيئ السمعة من ذلك.

كانت خيارات النعوش شاسعة، وراح الرابط يشرح باستفاضة عن جودة كل تابوت والمواد المحلية المستخدمة فيه خارجيًّا وداخليًّا. وإجمالًا، ثمة أكثر من عشرين خيارًا ليُنتقى منها، من الطراز القياسي الخالي من الرتوش إلى الصنوف الفاخرة لأولئك الذين يريدون أن يودعوا على الموضة. أظن أن رغبات المتوفى قد تختلف اختلافًا جذريًّا عن رغبات الحي في هذه المرحلة. كيف يقول الكثير من الناس عند الموت: خذوا أرخص نعش تجدونه، ليست إلا رحلتي الأخيرة؟ وكيف سيطلب كثرٌ أن لا يُقدم لضيوف الجنازة إلا كأس ماء وأن الأزهار كلها ينبغي أن تكون من حدائقهم الخاصة، وشكرًا جزيلًا؟ سيكون ذلك الحل الأرخص والأكثر عقلانية، لكنه سيكون خاتمة الأمر.

أعرفُ سبب فقفقة أفكارٍ كهذه في ذهني.

يقول شوبنهاور في كتابه حكمة متشائم، وبالتحديد مقالة: «عن عنجهية الحياة ومعاناتها»:

«لأن الوجود البشري، بعيدًا عن حمله سمة العطيَّة، يحمل بكليَّته سمة دَينٍ معقود، ونداء تسديد هذا الدين يظهر في هيئة الحاجات المُلحَّة، والرغبات المُعذِّبة، والشقاء الأزلي القائم عبر هذا الوجود. والقاعدة العامة أن العمر بأسره مكرسٌ لسداد هذا الدين، لكنه لا يفي إلا بالفوائد، أما سداد رأس المال فيحدث بالموت، ومتى عُقد عقد هذا الدين؟ عند الولادة».

عندما قرأتُ هذه الكلمات أول مرةٍ كنتُ تلميذ رياضيات شابًّا، وكان ذلك بعد شهر أو نحوه من وفاة أحد والديَّ. وبجمعي صرامة الرياضيات مع عقائد شوبنهاور، شعرت أنني وجدت الطريقة الوحيدة للنجاة في العالم، في هذه الحياة الطائشة من كل منحى آخر طيشًا تامًّا.

ولوقتٍ طويل بعد ذلك، رأيت كتابات الفيلسوف الألماني طريقة عقلانية للاتصال بالناس والأشياء، إذ بدا أن شوبنهاور ينطق بحقيقة الأشياء، وفي حين ادعى لايبنتس أن هذا هو أفضل العوالم المُحتملة، أكد شوبنهاور بكل هدوء أنه الأسوأ، وبرهن هذا التصريح بقوله إن كلمة «محتمل» لا تعني ما قد يتمكن شخص ما من تخيله، بل ما يوجد حقًّا وما سيستمر. وعليه، فإن عالمنا

مبنيٌّ بطريقة تجعله بالكاد يظل عائمًا، وإن كان أسوأ بدرجة طفيفة، فلن يتمكن من الحفاظ على نفسه. ولأن عالمًا أسوأ سيكون غير مستدام، فهو ليس عالمًا محتملًا، وبالتالي عالمنا أسوأ العوالم المحتملة.

أدركتُ أنني، في الوقت الراهن، يجب أن أحاول التفكير أكثر بالطريقة السابقة. سيكون ذلك أكثر الخيارات منطقية، وسيكون مبنيًّا على معرفة الحقائق، أيًّا كانت الزاوية التي أنظر منها. لدي مشكلات، وإيجاد حلول لهذه المشكلات مسألة حياة أو موتٍ بالمعنى الحرفي للكلمة. ورغم أنني قد أنجح في الأولى -البقاء حيًّا- ستظل عندي مشكلات أكبر مما عانيتُه قبلًا. ألا ينبغي لي، في حال كهذا، التفكير في أن الحياة مريعة وعقيمة وسخيفة، وأنها لا تودي أبدًا إلا إلى معاناة أعظم؟

رحتُ أقلب في خيارات النعوش، وما يزال ذهني مشغولًا بأحداث مساء الجمعة.

كنا حملنا علب الطلاء من السيارة إلى المستودع في متنزه المغامرات، وبدأ التوتر الذي تراكم بينما كنا نقود بالاسترخاء حالما خرجنا من داخل السيارة الخانق، ثم وجدنا مكانًا للطلاء بجوار أرجوحة البعبع، التي أُوقف تشغيلها مؤقتًا. أخذت لورا تنظم العلب، ولسببٍ ما، شُدَّ انتباهي لوهلة إلى قناع البعبع كثير الشعر المرتفع مترًا والمعلق بأحد طرفَي الأرجوحة. ومع ذلك، تكلمنا عن أشياء غير التي ناقشناها أمام متجر المعدات. أخبرتني لورا بشأن خططها، وقلتُ إنني سأعرض بكل سرور مساعدتي غير المهنية. سلاها هذا التعليق أيضًا، رغم أنني كنتُ صريحًا مرة أخرى، إذ لستُ أملك مهارات خاصة عندما يتعلق الأمر بالرسم. حالما رتبت لورا العلب ترتيبًا مناسبًا، قالت إن عليها الذهاب وقَلَّ ابنتها من منزل صديقتها. أخبرتها بأن لا مشكلة في ذلك وأنني سأغلق المتنزه، ثم مشينا إلى الباب في مؤخرة المتنزه، وخرجنا إلى رصيف التحميل. كانت الأمسية باردة وحالكة، فوقفنا هناك متجاورين، وبلغنا هدير حركة السير من الطريق السريع المجاور. شكرتني لورا وقالت إنها كانت أمسية رائعة بصرف النظر عن اللقاء المحرج. لم أكُن واثقًا بما أوشكتُ على قوله، لكن في تلك اللحظة انحنَت لورا إلى الأمام وطبعت قبلة

رقيقة على خدي الأيمن. ثم هبطت الدرجات المعدنية، ووسعت خطاها ناحية سيارتها ولوحت لي بينما قادت السيارة ناحية الطرف الآخر من المبنى.

فليحظَ يوهاني بأفضلها. اخترت النعش الذي يبدو أشبه بجناح فندق ذي خمس نجوم في مكان حيث لن يلتقي أحدٌ أحدًا ثانيةً أبدًا، ثم أرسلتُ البريد الإلكتروني للمحامي وأطفأت حاسوبي.

14

أخذ هاتفي يرن بينما أنتظر القطار على المنصة في كانيلماكي. لم أكُن واثقًا من الرقم، لم أكُن واثقًا ما إن كنتُ أذكره من مكان ما أم أنه يذكرني برقم رأيته من قبل. في الماضي، لطالما كنتُ أجيب المكالمات من أرقام غريبة بكل سرور، وعادة ما يحاول المتصل بيعي شيئًا لا أشتريه بطبيعة الحال ولم أكُن لأشتريه تحت أي ظرف، ذلك أنني أرغب بسماع إعلانات مبيعاتهم، وعروضهم، التي ليست عروضًا بالمعنى الحقيقي للكلمة. وبينما نتكلم، أحسب ما ستكلِّفني مشترياتهم المقترحة حقًّا، وبعد ذلك أخبرهم بسبب كون عرضهم بلا جدوى، ولمَ لا يتناغم مع تعريف العرض، ثم أقترح صنفًا من العروض قد يثير نظريًّا اهتمام زبون افتراضي، على فرض أنهم مهتمون بما لدى الشركة لتعرضه في المقام الأول. في بعض الأحيان، يحاول المسوِّق الهاتفي أن يُنهي المكالمة قبل أن أبلغ وجهتي الحقيقية: مناقشة مجموعة الاحتمالات الرياضية التي ظهرت وكيف يمكن تقديمها بأفضل شكل للزبون المحتمل. إن هذه الضروب من التفكُّرات الرياضية اليومية هي بالضبط ما أعتقد أنه قد يكون نافعًا كل النفع عندما نحاول جعل الحياة عقلانية وعملية -بكلمة أخرى، بهيجة- بقدر الإمكان. حاولت مرارًا مشاركة هذه المتعة مع تلك الأرواح الضالة التي تتصل بي وتحاول بيعي شيئًا ما، لكن هذا كله قد صار في الماضي البعيد الآن، في نفس المكان مع حياتي الآمنة ظاهريًّا بوظيفة أكتواريٍّ ذي مرتبٍ شهريٍّ ثابت، وقتما كان ثمة مجال للتنبؤ بالأشياء، وشعورٌ أن التوقعات ستتحقق دائمًا، في عالم حيث كانت أ تقود بحتمية إلى ب.

أجبتُ المكالمة ولم أتفاجأ بما جرى بعد ذلك، إذ ما كادت المحادثة تبدأ حتى صرتُ ومينتو كيه نتجادل.

- ما قصدك بقولك إنك لا تريد لفت الكثير من الانتباه للأمر؟

وبدهيًّا، لا يمكنني إخبارها بشكوك المحقق أوسمالا، شكوكه التي لا أرغب بتعزيزها ولو قليلًا. انسلَّ قطاري المكوكي إلى المحطة.

- كل ما أقترحه هو أن نحاول تجنُّب لفت الأنظار في الوقت الراهن، ولا سيما فيما يخص العمليات المصرفية.

- عزيزي، أيٌّ منا مدير التسويق هنا؟

توقف القطار، وانتظرت أن تنفتح الأبواب. لم يهبط أحد، وشكَّل أولئك الصاعدون زحمة مصغرة حول المدخل، فرحتُ أنظر إلى قدميَّ بينما أستقلُّه.

قلت: «أنتِ»، واتجهتُ من دون أن أنظر حولي إلى عربة خالية. لا أحب الاستماع إلى الناس وهم يُمتِّعون القطار بأسره بأنباء عائلاتهم، وقناعاتهم السياسية التي لا علاقة لها بالاحتمال الإحصائي، ومشكلات الإمساك خاصتهم. عثرت على كتلة مقاعد لا أحد يجلس قريبًا منها.

- هذه ليست مسألة...

- هذه مسألة ضرب الحديد وهو حامٍ، القبض على قرون الفقمة في أثناء المد، وما إلى ذلك. كان يوهاني متفقًا معي.

- لستُ متأكدًا من ذلك...

- كان همَّامًا وذا نظرة مستقبلية. كان يوهاني ليرى الأشياء كما أراها.

فكرتُ في نفسي: «الحزين في الأمر أن يوهاني سيكون قريبًا في نعشٍ ثمنه ثلاثة آلاف يورو، وأتمنى لو أنه ما يزال يدير متنزه المغامرات، ويضرب الحديد معك، وأيًّا كان ما تخرجان به أنتما الاثنان».

- أعرف ذلك. كان يوهاني...

- مرحًا ومرنًا.

- صحيح...

- ظريفًا وحاضر البديهة.

- صحيح...
- عفويًّا ودمثًا.
- صحيح...

لم تغب عني ملاحظة الجانب الثاني من لائحة صفات مينتو كيه، تلك التي تستخدمها ضمنيًّا لوصفي من دون أن تقولها جهارًا. لم يكُن ذلك لطيفًا بالتحديد، لكن لا يمكنني إخبارها بأنني لستُ إلا أحاول تجنب أن ينتهي بي الأمر متأرجحًا من مشنقة مؤقتة، بل اعتذرت بدلًا عن ذلك لكوني مُتحفِّظًا بعض الشيء.

- والآن عملياتنا على العكس تمامًا. لقد تكلمت مع البقية بخصوص هذا.

تساءلتُ أي بقية.

- هذه مرحلة انتقالية، والآن قد افتتحتُ المصرف، الذي...

قالت، مقاطعةً إياي ثانية: «الذي لا يُسمح لنا بإخبار أيٍّ به. كنت أفكر في إجراء حملة دعائية على الراديو. في منطقة العاصمة، وربما حتى في جميع أرجاء جنوب فنلندا. ثمة عرض على طاولة مكتبي، عرض لا يمكننا ولا ينبغي لنا رفضه. لدي أناس مصطفون في طابور لإجراء الإعلان، رجال ظرفاء جدًّا. يمكنني سماع الجلجلة بالفعل. لقد تمكنوا من اختلاق نكات قصيرة عن الزلاقات والمصرف، أتذكر العمَّ دهب وهو يخبِّط في حفرة ماله؟ 'اركبوا الزلاقة الآن إلى المصرف'، وأشياء كهذه».

قلت: «يبدو هذا مرحًا»، مدركًا أن صوتي جافٌّ كالعظام ويحمل نبرة جدية، رغم وجود شيء ما مسلٍّ على نحو مُبهَم في الفكرة، «لكن لاحقًا ربما. في الوقت الراهن، لسنا نعمل إلا بصفة متنزه مغامرات. ولهذا طلبنا الملصقات والمنشورات وكل ما سواها. إنها للاستخدام داخل المتنزه».

- ما الذي تخشاه؟

لا بد لي من الاعتراف أن السؤال باغتني. شعرتُ أنني أعرف مينتو كيه بعض الشيء بالفعل وأنني متأكدٌ من أنها تستحثني. ومع ذلك، ثمة شيء في السؤال يحملني على التفكير. وفي الآن نفسه، أعي أن الزمان والمكان ليسا

مناسبَين لنقاش أعمق في المسألة. عليَّ فعل ما يتحتم عليَّ فعله. حتى أنجو. حتى ينجو المتنزه.

قلتُ، ولاحظتُ أنني رفعتُ صوتي: «أخشى أنني أخشى المرح والظرافة والعفوية والنباهة وحضور البديهة والدماثة. حاليًّا، سنفعل ما يتطلبه الموقف، وحالما يتغير الموقف، سنعيد التفكير في الأمور».

أنهيتُ المكالمة ونظرتُ حولي، يوم خريفي ذهبي آخر: الأشجار تلتهبُ ألوانًا، وثمة رعشة بهيَّة في كل مكان. في البداية، أوجستُ أكثر مما شعرتُ أن ثمة شخصًا آخر يجلس في نهاية صف الكراسي الثلاث، ثم سمعتُ أحدهم يجلس قبالتي أيضًا: «إنها لكلمات رجل ينتوي العمل».

سمعتها بذاك الصوت الذي بات مألوفًا، فأدرتُ رأسي، ورأيتُ أيه كيه جالسًا في نهاية صفي، والرجل العظاءة في الصف المقابل. كنا الركاب الثلاثة الوحيدين في العربة.

15

توقف القطار في المحطة في مالمينكارتانو، وكان ثمة حفنة من الناس على المنصة. لا يمكنني التفكير في الكثير من اللحظات الأكثر هدوءًا من اللحظة التي يتوقف فيها القطار، إذ يشعر المرء أن كل شيء سواه توقف أيضًا وحل عليه السكون. لم يدخل أحد عربتنا.

قال الرجل العظاءة: «لقد أخبرني أحدهم أن هذا القطار يدور في دائرة»، وأرسل نظره من النافذة إلى جدران المحطة المغطاة بالجرافيتي، «ما يبدو ملائمًا، نظرًا للظروف. ندور وندور في دوائر، وها نحن أولاء ثانيةً، ثلاثتنا فقط».

ظللت صامتًا وأدركتُ أنني كان يجب أن أبقى متيقظًا وأنا أكلم مينتو كيه. ومن الناحية الأخرى، كنت أعرف حق المعرفة أن الرجل العظاءة وصديقه سيمسكان بي في مكان آخر في النهاية. والآن ثلاثتنا على قطار معًا، وتلك ليست نصف المشكلة حتى. المشكلة تجلس قبالتي تمامًا.

سأل الرجل العظاءة: «لكن أتعرف ما الذي يثير حنقي حقًّا؟»، ونظر إليَّ، ووجهه المُجدَّر يبدو منتفخًا بعض الشيء.

هززتُ رأسي إشارة لأنني لا أعرف.

- في هذه الأيام، لا يمكنك شراء حتى تذكرة بلا بطاقة ائتمان أو بطاقة مدين. حاول حشر ورقة خمسة باوندات في تطبيق على هاتفك. وهناك تمامًا على الجانب الآخر من العربة، ثمة يافطة تقول إنه لا يوجد بائع تذاكر على القطار. ما التالي؟ تخيل أن تدخل متجر خمورٍ ليخبروك

بأنْ بلى، كل شيء كما كان عليه سابقًا، إلا أننا الآن لا نختزن الخمر، ولا أي صنف من الكحول، لكن بمعزل عن ذلك لم يتغير شيء ولو قليلًا، تفضَّل. وها أنا ذا وأيه كيه الآن على متن هذا القطار من دون تذكرة، وكلما توقف القطار في محطة نجلس هنا قلقينَ أن يظهر المفتشون ويغرمونا ويطردونا من القطار. أتراه من العدل أن نُجبر على العيش في خوف هكذا؟

كانت نظرة الرجل العظاءة حادة حد ظني أن من الأفضل لي منحه إجابة ما.

- لا أخال ذلك.
- أيه كيه هناك مرتعد الفرائص.

ألقيت نظرة ناحية أيه كيه. كان يحدق إلى الأمام مباشرةً وسماعته تغطي أذنيه، وبدا كأنه ربما لا يدري حتى أنه على متن قطارٍ.

ثم قال الرجل العظاءة: «أنا واثق أن لديك تذكرة».

- لدي بطاقة سفر شهرية.
- أعطِنيها.
- ماذا؟
- أعطِني البطاقة.

نظر أحدنا إلى الآخر. كنتُ محقًّا، يبدو وجهه متورمًا بعض الشيء، وزد على ذلك، بدا في منتهى الجدية. لم يظهر على أيه كيه أنه يتابع محادثتنا من كثب، لكنني أعرف بالتجربة أن هموده الظاهري يمكن أن يستحيل فعلًا بفرقعة إصبع. فأخرجت بطاقة السفر من جيب سترتي وناولتها للرجل العظاءة.

تصنَّع ابتسامة أشبه بابتسامة أفعى وقال: «شكرًا لك».

لم أقل شيئًا، ثم أزلق الرجل العظاءة بطاقة السفر في جيبه بحركة مسترخية ولبقة إلى درجة قد تجعل أي شخص يظن أنها بطاقته بالأصل. ثم أرخى رأسه على ظهر كرسيه.

- لا بد لي من القول إنه شعورٌ أحسن بكثير. لا يقرب ما كان عليه من باعثٍ على البول في الملابس. ماذا عنك؟

لم أُجِب.

قال، وقد صار يبالغ في التأسِّي: «هذه هي المشكلة، تقفز إلى قطارٍ يومًا ما كما كنت تقفز إلى القطار طوال الوقت، وتتصور أن القطار سيترجرج متحركًا كما يفترض به أن يفعل، وأن الرحلة ستكون نفس الرحلة الهادئة المحببة التي كانتها قبلًا. ثم يظهر شخص ما، شخص يسخر منك، شخص يقول إنك لم يعُد بإمكانك شراء تذكرة قطار على القطار بعد الآن أو هراءً غبيًّا آخر. وبعد ذلك لا يبدو أن القطار يترجرج بنفس الطريقة مرة ثانية أبدًا، ويصير جوفه أبردَ بعض الشيء».

أعرفَ فيمَ كل هذا. رئيسه. مصرفي. حقيقة أن اقتراح العمل خاصتي قد أُخذ على محمل الجد على الرغم من زقزقة الرجل العظاءة وضحكه.

نقر بإصبعه على ركبة أيه كيه، فأخرج هاتفه من جيب بذلته الرياضية السوداء والبيضاء وأدار شاشته الضخمة ناحيتي. ظهرت على الشاشة صورةٌ وجهي فيها محشور عميقًا في جسد امرأة عارية، وكلتا يديَّ مرفوعة في الجو، وإحداها تُظهر شيئًا يبدو -بالصدفة البحتة- على نحو لا لبس فيه كعلامة النصر. في أغلب الظن، لن يعرف شخص يرى هذه الصورة للمرة الأولى أنها مُلفَّقة، بل ستبدو ببساطة كصورة لي في أقل لحظاتي جاذبية. ثم أومأ الرجل العظاءة لأيه كيه، الذي أعاد هاتفه إلى جيبه وركز على وظيفته الأساسية: التحديق ببلاهة إلى الأمام.

وقال: «تذكرة صغيرة قبل أن نبدأ بمناقشة البرنامج»، ثم انحنى ناحيتي مقربًا وجهه من وجهي، «ما قولك؟ متى يمكنني المجيء وأخذ الخمسين ألفًا الأولى؟».

كان بوسعي شمُّ أنفاسه: مزيج من أسنان غير مُفرَّشة، وشيء مهضوم هضمًا سيئًا.

فقلت من فوري: «لا أملك خمسين ألف يورو».

وهذا صحيح، ففي أسبوع واحد، منحتُ قروضًا عديدة بينما كنتُ أسد ديون المتنزه باستخدام مال العوائد المتزايدة -وهذه هي الخطة منذ البداية- إلى درجة أن حساب المتنزه في هذه اللحظة شبه خالٍ. ستبدأ الأمور بتدارك

نفسها في الأسبوع القادم وقتما تبدأ دفعات سداد القرض الأولى بالوصول، مع الفائدة.

- متى...؟ هذا كان سؤالي. لا يهمني كم مرة ينبغي لكل شيء أن يمر في نظامك اللعين أو ما إن كان عليك التحقق والتحقق مرة أخرى وتفسير كل معاملة ستمئة مرة. قلت: متى؟ ألا تعي أن ذلك يعني نقطة زمنية؟ إذن، أخرج رُزنامتك يا آينشتاين.

لم أقُل شيئًا.

- جيد جدًّا، نظرًا لأنك تواجه مشكلات استثنائية في التفكير اليوم ولا تحوز اقتراحات تُدلي بها، سأخبرك متى. يمكنك تثبيت الموعد على رزنامتك، أليس كذلك؟

لم أجب.

- أم عليَّ أن أطلب من أيه كيه هنا أن... يجادلك؟

- بلى، يمكنني كتابته.

- إنني ذاهب في رحلة صغيرة، لذا يوم الاثنين بعد أسبوعين من الآن سيكون جيدًا. وهذا يمنحك وقتًا وفيرًا. خمسة وعشرين ألفًا في الأسبوع. أنا واثق أن بمقدورك إجراء الحساب وحدك، فأنت صبي ذكي. أسبوعين.

وأخيرًا، تراخى الرجل العظاءة في كرسيه، وشعرتُ أن الحرارة أمام وجهي انخفضت ورقَّ الهواء فجأةً وانتعش. بدأ القطار بالتباطؤ، إذ وصلنا بالفعل إلى مارتينلاكسو، فأسند يدًا على ركبته، ووقف. ثم أخفض نظره إليَّ، ولم يقل شيئًا، واستدار متجهًا ناحية الباب. لم ينهض أيه كيه إلا عندما توقف القطار تمامًا، وتفاجأت مرة أخرى من مدى رشاقته، وسرعة حركته وهدوئها. فبالنسبة إلى رجل هائل، هو خاطف كثعلب صغير، ثم هبط إلى المنصة، وللحظة رأيتُ ظهريهما، ثم دبت الحركة في القطار ثانيةً.

وفي تلك اللحظة، سمعتُ النداء نفسه من كلا طرفَي العربة: «التذاكر من فضلكم».

16

كان إيسا جالسًا على كرسيه الضخم أمام حائط من شاشات المراقبة، كملكٍ تلاشت مملكته من تحته. لا يمكنه التحكم بأي شيء، فعمله ببساطة مراقبة الأمور وهي تحدث. ومرة ثانية، يكاد يكون بإمكان المرء قص الهواء في الغرفة بمقص، ذلك أنه مثقل بأبخرة الكبريت التي لا يمكنني ولن أحاول تحديد مصدرها وتركيبتها الخاصَّين بأي قدرٍ أكبر من التفصيل، على الأقل من أجل سلامتي الشخصية. تعطي غرفة التحكم شعور شقة استوديو خانقة، وإنارتها خافتة لأن إيسا أطفأ الأضواء العلوية، ما يعني أن الضوء الوحيد في الغرفة ينبع من الشاشات، فكان الأثر الإجمالي في مكان ما بين فيلم خيال علمي واستحضار لمهجعي في الجيش.

فاجأته زيارتي، أمكنني رؤية ذلك. حتى إنه تفاجأ أكثر بما أطلبه منه. وسألني: «أحدث شيء ما؟ لدينا كل الفيديوهات، لكنني لم أشاهدها لأنني لم أظن أن ثمة خطبًا».

كان ارتباك إيسا واضحًا، وهذا مفهوم، فأخبرته أنه لا يوجد خطب، وأن ثمة شيئًا ما أود التحقق منه وحسب. أعطيته التاريخ، والوقت المقدر والمنطقة خارج متنزه المغامرات التي ينبغي لكاميرا المراقبة تغطيتها، ثم رقصت أصابع إيسا فوق لوحة مفاتيحه، وفي غمضة عين، ظهرت السيارة رباعية الدفع المألوفة على إحدى الشاشات، فنظرتُ إلى بيانات الوقت، إلى الدقيقة والثانية بالضبط، وحفظتها عن ظهر قلب. بعد تمام ذلك، أردتُ الخروج بأسرع وقت ممكن، إذ ثمة شيء ما في ذلك الهواء الخبيث يُشعِر بعد فينة بالخدر تقريبًا. لا بد أن هذه هي المرة الأولى التي أقترب فيها من أن

أقترح على أحدهم التفكير في تغيير حميته، لكنني قررت ألا أفعلها، وشكرته بدلًا من ذلك وتراجعت.

سألني ودار 180 درجة في كرسيه: «هل فاتني شيء ما؟»، كان يرتدي بلوزة البحرية الأمريكية نفسها.

قلتُ في خلدي: *ربما أن حميتك تتألف كليًّا على ما يبدو من حساء البازلاء والكرنب المخلل.* لكنني لم أقلها جهارًا لأن وجه إيسا يكاد يكون هَلِعًا.

تابع حبل استجوابه: «هل انتُهِك محيط المتنزه؟ لم يسرق أحد شيئًا بالتأكيد...».

قلت: «لا، لا شيء من هذا القبيل».

احتجتُ إلى دقيقة لأفكر، فبأي الحالين، سيبني إيسا افتراضات عن سبب رغبتي برؤية أشرطة المراقبة، وبأي حال، لديه كل الأشرطة تحت تصرفه، المحتوية على الآلاف والآلاف من الأحداث الموثقة. ثم اتخذتُ قراري: «كنت محتاجًا إلى التحقق من الوقت».

بدا في البداية حائرًا بعض الشيء، ثم ذابت حيرته إلى إيماءة، التي تحولت بدورها إلى شكل من الزمالة، فقد كان في السابق متحفِّظًا، وشبه بارد ناحيتي، أما الآن فصار يبدو متفهمًا ومتعاطفًا.

- أمور شخصية.

- أجل. جدًّا.

- أتود معرفة مالك آلية ما؟ يمكنني أن ألقي نظرة...

قلتُ هازًّا رأسي: «لا حاجة إلى ذلك، فأنا أعرف بالفعل».

نظر كلانا إلى الصورة على الشاشة، وكانت سيارة الدفع الرباعي تزداد حجمًا عليها. شعرتُ أنني أتحركُ داخلها تقريبًا، وشعرتُ بنفخة هواء المكيِّف البارد على قدميَّ، لكن بشق الأنفس، إذ أشك أن أوهى نسمة قد نفخت في هذه الغرفة منذ سنوات.

- أظن أنني تركتُ بطاقة سفري في تلك السيارة.

ليست بطاقة سفري السبب الرئيسي لاهتمامي بهذه الآلية، لكنها بالتأكيد أحد الأسباب، وغرامتي التي تلقيتها في القطار قابعة في جيب سترتي تُذكرني

بتلك الحقيقة. رحلة قطعت ثلاث محطات على القطار المكوكي انتهى بها الأمر مكلفةً إياي ثمانين يورو، وبطرق كثيرة، هذا ببساطة مبالغ فيه. كان إيسا ما يزال يفكر في ما قلته للتو ويمرر أصابع يده اليمنى على سكسوكته المُنزَّهة هندسيًّا، ثم قال في آخر الأمر: «إن كان ثمة أي طريقة يمكنني المساعدة فيها، فأنا أعمل لصالح متنزه المغامرات، ومستعد للخدمة».

لم أقُل شيئًا. بدا كجنديٍّ ودبٍّ محشوٍّ في آن معًا.

- شكرًا لخدمتك، وإن طرأ طارئ ما، فسأحرص على إخبارك.

شعرتُ فجأةً بالسوء إزاء أفكاري القاسية حيال مشكلاته الهضمية. إن هذه الأفعوانية العاطفية الغريبة تدور منذ بعض الوقت، وبطبيعة الحال، تكون في أشد حالاتها بصحبة لورا هيلانتو. قضيتُ الأسبوع بطوله أشعر بالقبلة التي زرعتها على خدي مساء الجمعة، والآن -على حين غرة- وجدت نفسي أفكر في أننا كلنا بشر في النهاية، كلنا معيوبون، فما المشكلة إن كان لدى أحدنا مشكلة نفخة بطنٍ عسيرة؟ لا يعني ذلك إلا أن الهواء ينفثُ بعض الشيء عندما يغادر الجسد، وأحيانًا بصورة لا تحتمل، لكن ذلك لا يجعل الرجل شخصًا منبوذًا، شخصًا يجب أن نهرب منه، فأردفت: «وبالمثل، إن كان بوسعي المساعدة فسأفعل».



عُدتُ إلى مكتبي في غضون دقيقة لا أكثر، وبصورة غريزية، فتحتُ النافذة وجررت من الفجوة الضيقة في الجدار هواءً باردًا عليلًا إلى داخلي كأنني أجرع ماءً لأروي ظمئي. ثم جلستُ إلى طاولة مكتبي ورحت أُجري سلسلة من الحسابات باستخدام حاسبتي وقلمًا وخرائط جوجل، بخاصية صورة القمر الصناعي بالتحديد. في كل مرة جلستُ في تلك السيارة رباعية الدفع، كنا نبقى بكل دقة ضمن حدود السرعة، وأثق أن بإمكاني تذكُّر كل المنعطفات الأعلى أهمية وأي اتجاه سلكنا. وفي الوقت نفسه، يمكنني أن أتذكر بصورة تقريبية المسافات التي قطعناها في تلك الرحلة من دون أن ننعطف أو نبطئ، وبمقدوري تذكُّر الطول التقريبي لكلٍّ من تلك الأجزاء.

كانت العصابة على عيني تسمح لي بالنظر إلى الأسفل، وكنتُ قادرًا على متابعة سلوك العربة بالنسبة إلى الطريق. لكن الأهم من ذلك، صرت أعرف أوقات المغادرة والوصول الدقيقة، فحسبتُ القياسات والمسافات، وقرأت الخريطة، مُكبرًا ومصغرًا إياها عشرات المرات، وسرعان ما ضيقت الخيارات إلى ثلاثة. أعرف اتجاه السفر بتيقُّن معتدل، وأعرف المسافة الإجمالية بدرجة ما من التيقن، وأعرف عن أي صنف من المباني أبحث بتيقُّنٍ مطلقٍ واضح.

وبعد أربعين دقيقة، صارت أمامي حظيرتان لأختار بينهما.

17

كان متنزه المغامرات يحقق ربحًا سخيًّا، وبالطبع، لم يكن المصرف كذلك. ليس بعد. قفزت أرقام مبيعات المتنزه عشرين بالمئة تقريبًا منذ القرض الأول. كانت الأرقام واعدة، تمكنني من دفع أجور الطاقم وتصفية فاتورة ضرائب المتنزه وبعض ديون الشركة الرسمية، وإن استمرت المبيعات على هذا النحو وصار المصرف تدريجيًّا مُربحًا -بصورة هامشية فقط أولًا، ثم تصاعديًّا- فيمكنني آنذاك البدء بمعالجة ديون يوهاني الأقل رسمية. أما ما لا يمكنني فعله، فهو إيجاد خمسين ألف يورو إضافية لأسلمها للرجل العظاءة. وهذا ليس إلا جزءًا من المشكلة.

لا أظن أنه مر في بالي قط، ولا لثانية حتى، أنني سأدفع له حقًّا سنتًا واحدًا أبدًا. لقد نلتُ كفايتي. ففي لحظة دسِّه بطاقة سفري في جيبه، انتهى الأمر تمامًا. أدركتُ أنه ربما كان قد انتهى تمامًا قبل وقت طويل، وفي ضوء الحقائق كان بوسعي اتخاذ القرار أبكر بكثير، لكن بطاقة السفر وضعَت نقطة الختام. فحتى من دون تهديد الدين البالغ خمسين ألف يورو، لا يمكن للمرء فعل ذلك ببساطة. لا يمكنه السفر باستخدام بطاقة رجل آخر.

أمضيت لحظة أعالج كلتا مجموعتَي الإفادات. لم أزوِّر شيئًا، لكنني أجريتُ تقديرًا استقرائيًّا في تقريرين مستقلين -وكلاهما صادق- بطريقة تجعل كلتا مجموعتَي الإفادات تندمجان في واحدة. وهذا يتطلب انتباهًا دقيقًا للتفاصيل. كنتُ منغمسًا في الحسابات حد أنني لم أعِ أنني أشرتُ لأحد بالدخول إلى الغرفة حتى صارت لورا واقفة أمامي، وكانت رابطةً شعرها الجامح في كعكة مشدودة على مؤخر رأسها ومسندةً نظارتها على جبهتها. ولأول مرة، رأيتُ

وجهها بتمامِه. ثمة شيء فيه لم أره من قبل. لا يمكنني تحديدُ ماهيته، ولا وقت لدي للتفكير فيه لأنها تسألني شيئًا ما، أو بدقة أكبر، تردد شيئًا ما قلتُه لها قبلًا وتطلب مني اللحاق بها.



كانت الجدارية الأولى شبه جاهزة، فقد أمضَت لورا عطلة نهاية الأسبوع بأكملها ترسم. بدأت من جزء الردهة الأقل ظهورًا للضيوف، وهذا مفهوم. كنتُ لأفعل المثل. وهو يفسر عدم ملاحظتي الجدار وقتما وصلتُ هذا الصباح، أو عندما غادرت غرفة تحكم إيسا ومشت إلى مكتبي. مجرد التفكير في إيسا يحملني على تمني ألا تكون تلك الرائحة الاستوائية قد تأصَّلت في ثيابي. أحجمتُ عن شم كُمِّي، وبدلًا عن ذلك، رحتُ أنصتُ بينما نمشي ونتكلم.

- لقد فعلتُ كما اقترحتَ: بدأتُ بالقسم الأسهل، الجزء الذي أعرف كيف أحلُّه، وحللته. بصورة ممتازة في الحقيقة. والآن...

ألقيت نظرة ناحية لورا، فرأيتها جانبيًّا، ولمحتُ في الآن نفسه ما كنتُ أعرفه غريزيًّا طوال الوقت. ثمة شيء قاسٍ في وجهها، ولا أعني بذلك أن وجهها مُتعبٌ أو جلفٌ أو خشنٌ بأي شكل. لعل الكلمة التي أبحث عنها هي خبرة، أو معرفة، أو مهارة لا تريدُ إخراجها أو مشاركتها علنًا. شيءٌ ما عادةً ما كانت نظارتها وشعرها الكثيث يرققانه ويخفيانه.

قالت عندما انعطفنا يمينًا بعد حقل الرمي المسمى النقَّافة الحانقة، وصار الجدار الخلفي ضمن نطاق الرؤية: «ها نحن أولاء».

وكان المنظر خاطفًا للأنفاس.

أحكم الجدار قبضته عليَّ، في مكان ما بين قلبي ومعدتي. كانت الدوَّامات والأنماط والنقشات تنساب وتتمازج، وتغيَّر شكلها باستمرار. تظهرُ صورةٌ، ثم تتلاشى من فورها خالقةً صورة جديدة. أدركتُ أنني أبدو كأنما قد تحولت إلى عمود من الملح.

أوضحت لورا: «فرانكنثالر. مُقتبسة، بالطبع، فقد صارت نسختي الآن، تأويلي. يمكنني القول إنها نسخة الجرافيتي نوعًا ما».

نظرتُ إلى الجدار عاجزًا عن النطق، ولم أعرف ماهية الشعور الذي انتابني. صرتُ فجأةً غير واثق بشيء. مرت لحظة، ثم لاحظتُ أنني صامتٌ منذ بعض الوقت. كان جسدي بكله يتفاعل مع إبداع لورا، ولا يمكنني فعلُ شيء حيال ذلك. شعرت بالجداريَّة في قدميَّ، رغم معرفتي أن شعورًا كهذا مستحيل عقلانيًّا.

- فرانكنثالر أم لا، هذا أعظم شيء رأيته قط.

عنيتُ ما قلته. استدرتُ ناحيتها، وكانت قد نزعت الرباط من مؤخر رأسها تاركةً شعرها يؤطر وجهها ثانيةً، وعادت مألوفة أكثر. ومع ذلك، فقد رأيتُ القساوة وبتُّ أعرف أنها موجودة. لكنني لم أُطل التفكير في ذلك، إذ شعرتُ برغبة لا يمكن مقاومتها بعناقها، وضمها بين ذراعيَّ. قلتُ لنفسي: *إن ذلك سيكون في غير محله*، لكن حدث شيءٌ ما آنذاك. ربما لمستها عن غير قصد، لا أعرف، لأنها في تلك اللحظة تقدمت خطوةً ثم طوقتني بذراعيها قائلةً: «شكرًا لك».

وسمعتُ نفسي أردد: «فرانكنثالر أم لا».

بينما تعانقني لورا، وبينما أقف محدقًا إلى الجدارية، شعرتُ بشيء لم أشعر به من قبل. كنتُ على سجيتي. تشابكت الفكرة مع الشعور، والشعور مع الفكرة، فصارا الشيء نفسه، وراح كل شيء يجيشُ عبر دماغي بصفاء مزيد، وتيقُّن شديد، حد أنه كان بمقدوره تشكيل أساسات ناطحة سحاب بكاملها، أو قاعدة قارة جديدة. تراجعت لورا، وظللتُ قادرًا على الشعور بذراعها الدافئة حولي، ولمسة شعرها لذقني وخدي. لا أعرف ما الذي حدث. لستُ أعرفُ إلا أن شيئًا ما... قد حدث.

- إذن، أأعجبتكَ؟

- أحببتُها.

18

لطالما كان مجرد ذِكر كلمة «موعد غرامي» يصيبني بدرجة من الانزعاج، ناهيك بما أظنها تعنيه عمليًّا: أنني، بمحض إرادتي، سألتقي شخصًا إما لا أعرفه البتة وإما أعرفه معرفة طفيفة. لم أرَ ذلك سلوكًا حكيمًا تحت أي ظرف، وثمة العديد من الحجج المنطقية ضد سلوك كهذا، أقلها حقيقة أن احتمال أن يكون هذا اللقاء مستحِقًّا الجهد المبذول صغير إلى حد يكاد يختفي معه. ليس علينا إلا إحصاء عدد الأشخاص الشائقين الذين التقيناهم في حياتنا ومقارنته بالعدد الإجمالي لمن التقيناهم لنحصل على فكرة حول الاحتمالات الشبيهة بتذكرة اليانصيب التي نواجهها. باعتباري أكتواريًّا، فمن البديهي أنني لا أشتري بطاقات اليانصيب، وقد قررتُ أنني إن خرجتُ في موعدٍ أبدًا، فسأكون قد أكدتُ لنفسي وأقنعتها بالعوامل المعنيَّة لأتمكن من استنتاج ما إن كانت تصرفاتي ستعود بنفع أم لا.

وفي ضوء ما تقدم، انتهى بي الأمر طالبًا من لورا الخروج في موعد، من دون إجراء عملية حسابية واحدة أو أكثر تقديرات الاحتمالات بدائيةً مقدمًا. يمكن القول إن الأمر كله حدث بمعزلٍ عني. كنا واقفَين أمام الجدار الذي رسمت عليه للتو، وسمعتُ نفسي أقول إنني أريدُ رؤيتها في أقرب وقتٍ ممكن، فبدا أنها فهمت ما قصدته وبدأت من فورها بتسمية لقائنا المقبل موعدًا. في تلك اللحظة، فقدتُ السيطرة على كل مداركي، وكل شكوكي فيما يخص حسابات الاحتمال، واختبرتُ عمليًّا المَثَل القائل بفراشاتٍ ترفرف أجنحتها في معدة شخصٍ ما عندما يكون منتظرًا شيئًا حماسيًّا ليحدث.

وبينما كنت أنتظر أمام المطعم، شعرتُ بنفس الإحساس الغريب المدوِّخ تقريبًا الذي أشعر به كلما فكرتُ في لورا ولقائها.

في هذه العشية السبتمبرية المتأخرة، كان وسط هلسنكي أشبه بمنصة مسرح مبتلَّة تمامًا، الشوارع تتهلل جاعلةً المطر يبدو أسود ورماديًّا، والأبنية ليست إلا واجهات، حتى تلك التي تشع فيها مصابيح اختيرت مواقعها بدقة من النوافذ، وأشرطة معبر المشاة تلمع بلا معنى مثل ميدان تزلج، وكل ما حولنا دردرة الماء وطرطشة البِرَك.

قلتُ لنفسي: «موعد»، وزفرتُ في المطر بينما أحتمي تحت كُنَّة، «لا معنى لهذا البتة».

ولا سيما في هذا الوقت، وأنا أمامي حظيرة لأبحث عنها، مكان حيث إما يُعلِّق المدينون أو يقررون بدء مصارفهم الخاصة. في الواقع، لست أعرف حتى ما سيعنيه إيجاد الحظيرة. لا أعرف ما سأُحرز. لا خطة لدي. ومن المرجح جدًّا أيضًا أنني، حتى إن تدبرتُ تحديد موقع المكان فعليًّا، سأكون قد...

- تأخرتُ، (قالتها لورا، وأردفت) أعرف ذلك، أعتذر.

كانت قد اندفعت إلى تحت الكُنَّة من خلفي. افترضتُ أنها ستأتي من ناحية محطة حافلات كامبي، لأنها المكان الذي ستتوقف فيه حافلتها، أي إن كانت قادمة من المنزل سالكةً أكثر الطرق مباشرةً من المحطة إلى مكان لقائنا. لا أفهم لمَ قد يفعل أي شخص أي شيء آخر.

- آمل أنك لم تنتظر طويلًا.

- لستُ أعرف حتى كم الساعة.

حتى أنا تفاجأت.

أغلقت مظلتها، وهزت شعرها وأرخَت وشاحها. وراحت تنظر إلى المطعم خلفي: «يبدو لطيفًا».

أدرتُ رأسي ونظرتُ في الاتجاه نفسه. مرت نادلة ترتدي بلوزة بيضاء ساطعة وتنورة سوداء ضيقة وتحمل عدة قنانٍ من النبيذ. وبدا الناس

الجالسون إلى الطاولات أشبه بشخصيات مسلسلات أمريكية من أناس قد يزورون متنزه مغامرات ويستدينون مالًا مني.

- لست أدري. لم آتِ إلى هنا قبلًا.
- إذن لمَ اخترته؟
- بالنظر إلى مراجعة معدل التقييمات، والمسافة من موقفَي حافلتينا، والطقس السائد، واليوم من الأسبوع، والوقت من السنة، وولعك بالطعام الحِرِّيف، وحقيقة أن غاية الموعد هي محاولة ترك انطباع في الشخص الآخر، بدا هذا الخيار الأمثل.

قالت لورا: «الأمثل...»، وابتسمَت كأنني قلتُ شيئًا مسليًا. كانت ابتسامتها كفانوس دافئ تحت المطر، «هذا يبدو شاعريًّا».

- أظن ذلك أيضًا.



دُللنا إلى الطاولة المخصصة لشخصين المحجوزة باسمي، بجوار النافذة عند الطرف القصي من الغرفة الطويلة. كانت الطاولة منخفضة تقريبًا تلقاء الشارع، إضافةً إلى أن المطعم نفسه تحت مستوى الطريق بقليل، لذا لم يكن بوسعنا أن نرى من المارة إلا ما دون خصورهم، وأحيانًا يكون من المستحيل تخمين أي وجه يعود لأي ساقين. لو كنا محض ساقين، لكان من السهل علينا تنكير أنفسنا. لم أقل هذا جهارًا، فما زلتُ أشعر ببعض الدوخة، وأشعر أن فمي ولساني، وكامل فكي، متيبسون تيبسًا غريبًا، لكنني في الوقت نفسه جاهز على نحو مخيف للانفتاح وقول كل ما يمر في رأسي من دون تفكير. عليَّ التركيز على النظر في عينَي لورا من دون أن أضيِّع نفسي فيهما، لأقدر على سماعها والإنصات لها في الآن نفسه. كان شعرها مثل شجيرة وردٍ مُزهرة، وخداها يتوهجان، وثمة بهجة واغتباط استثنائيان في عينيها. وتلبسُ بلوزةً بيضاء عليها بقع سوداء، مُزرَّرة حتى الرقبة.

ظهر نادل وسألنا ما إن كنا نرغب بشيء نشربه بينما ننظر في لائحة الطعام، فطلبت لورا مشروب الجن والتونيك، وطلبت مثلها. لا يروق لي الجن

والتونيك، لكن هذا لا يهُم حقًّا الآن. وأيضًا، فإن أي مشروب قد يرطِّب فمي القاحل يمثل خطوة من الصحراء باتجاه واحةٍ مُرحِّبة. لأن هذا ما أشعر به: كأنني أخوض فجأةً في الرمل. كانت لائحة الطعام قصيرة قصرًا رحيمًا، وأبهجني أنها مرقمة. ثمة أربعة أو خمسة أنواع من لوائح الطعام، ذات الأطباق الخمسة، أو الثمانية، أو الأحد عشر، أو الستة عشر. عزمنا سريعًا على اختيار ذات الثمانية، فلعلنا نحتفل لكننا لا نريد البقاء هنا طوال الليل. وحالما غادر النادل، رفعتُ كأسي، وقلت: «تهانيَّ».

كنتُ قد فكرتُ مليًّا وطويلًا في ما سأقول، وبدا هذا إلى حد بعيد أكثر الخيارات عقلانية.

- أشكرك.

نقرنا كأسَينا، وأوقفتني لورا قبل أن تلمس الكأس شفتي، وسألت مبتسمة: «من دونك... لا أعرف... أعلينا شرب نخب الرياضيات؟».

ثم شربَت، وشربتُ أيضًا.

كان طبقنا الأول جرابًا ورديًّا صغيرًا، بحجم كوز صنوبر مقسوم نصفين، مملوء بمادة رغوية مالحة مُريبة وعديمة الوزن جوهريًّا. بدا أنه راق للورا، وأسعدني ذلك، لكن لا يمكنني قول المثل عن حساباتي فيما يخص الفرق بين تكلفة المواد الخام وتكاليف الإنتاج والسعر النهائي. قررتُ تنحية هذه الأفكار جانبًا، لكن للحظة فقط. ثم قالت لورا دون مقدمات: «لقد أخذتُ قرضًا أيضًا».

ربما ظهر على وجهي المدى الفعلي لدهشتي. وتابعَت: «وكذا فعل الجميع. بقية أفراد الطاقم. لكن هذا ليس سبب أخذي القرض، بالطبع».

بدأتُ أفهم عن ماذا تتكلم. متنزه المغامرات. المصرف الذي افتتحتُه.

فسألتُ في دهشة صادقة: «الجميع؟».

أومأت برأسها: «أجل».

- صار الجميع فجأةً محتاجًا إلى بعض المال إضافي؟

- لقد قلتَ بنفسك إن استدانة المال من مصرفنا هي الشيء العقلاني الذي يجب فعله.

قلت: «إنه عقلاني بالفعل...»، وبدأت أتلعثم، ذلك أنني فكرت في نفسي: *إنه عقلاني إن لم يكُن بمقدورك الحصول على نفس المبلغ المالي بكلفة أقل من مكان آخر، وهذا بدوره يعني عدم إدراكهم أنه...*

قاطعتني لورا قبل أن أتمكن من إضافة أي شيء آخر: «بالضبط. إنني حقًّا في حاجة إلى ذاك المال، فرحلة تولي المدرسية وجهتها فرنسا، وأريدها أن تحظى بالفرص التي لم أحظَ بها قط، وأيضًا، سفر تولي مكلفٌ لأن علينا أخذ كل مشكلاتها الصحية بالحسبان. إنها تتكلم عن هذه الرحلة منذ وقت طويل، وتتوسل إليَّ لأسمح لها بالذهاب. أعرفُ أنها كانت تحلم بها. جميع أصدقائها ذاهبون، وشعرتُ بالسوء لتفكيري أنها قد لا تتمكن من الانضمام إليهم. لكنها الآن صارت قادرة، وإنني سعيدة للغاية من أجلها. هذا أهم من جداري بكثير».

وفي تلك اللحظة، جلب النادل الطبق التالي إلى الطاولة. على صحن أبيض كبير، امتد شريطان طويلان داكنان ارتفاعهما نحو نصف سنتيمتر، وفوق الشريطين ثمة باقة مجهرية من أزهار غابة مجهرية، وحولهما دائرة من سائل أحمر قانئ متخثر رقيق كخيط خياطة.

تابعَت كلامها: «لم أكُن لأُمنح قرضًا في أي مكان آخر. لقد حظيتُ ببعض... حسنًا، إن أجوري تُنفق على تكاليف المعيشة، والطعام، و... فلنقل فقط إن الأيام الأخيرة من الشهر دائمًا ما تكون على ميزان دقيق. ولا أملك فلسًا في مدخراتي أيضًا. لم أكُن بارعة في تدبير المال القط، واضطررتُ إلى التعلم بالطريقة الصعبة».

انبجسَت كلماتها الأخيرة مثل دُفقة ماء من صدعٍ في سد. كان واضحًا أن لورا مُحرَجة، فقد قالت الكثير، ولو فعلتُ المثل لكنتُ في الموقف مفرط الإرباك الذي أضطر فيه إلى إرجاع الشريط والتحقق ثانيةً من كل شيء قلته. ثم ابتسمَت مرة أخرى، لكن ابتسامتها لم تكُن خفيفة كما كانت قبلًا، بل صارت تحملُ صبغةً جديدة.

- لا أعرفُ لمَ أخبركَ بهذا الآن... ربما بسبب الصحبة الرائعة، والبيئة الرائعة، والطعام الرائع.

بدَت مُحرَجة مرة ثانية، أو هذا ما افترضتُه على الأقل حتى أدركتُ أنه شيء آخر تمامًا. مر الإدراك فيَّ مثل ومضة ضوء، فحاولتُ ذهنيًّا صوغه كلامًا. لعلها ترى صحبتي حقًّا كما أرى صحبتها، أنها تحمل تأثيرًا فيها، أنها تُربِك أفكارها وتصرفاتها بطريقة غير متوقعة، إلى درجة ما على الأقل. ثم جاءَت فكرة أنها قد تكون معجبة بي بالفعل، وهذا يؤثر فيَّ بطرق أكثر من غير متوقعة. حاولتُ ألا أفكر في كم من أغاني الحب، التي اعتدت رؤيتها جيَّاشة ولطيفة لطفًا مُغثًّا، صارت تبدو فجأةً تفهُّمًا متماسكًا جدًّا للحالة الحالية من العلاقات. أشادت لورا بالطبق، أما أنا فلم أتذوق إلا الفطر الاعتيادي تمامًا وحاولت تجنب التفكير بسعر الكيلوجرام. في هذه اللحظة، لا يهمني. الصحبة الرائعة.

شققنا طريقنا أكْلًا عبر شتى التركيبات التذوقيَّة، التي ضمت كلٌّ منها نحو ملعقة من الطعام. كان تقديم الأطباق ملتزمًا بالأنماط الهندسية القياسية، ووزنها بوزن الصحن تقريبًا، أما أخف الأطباق -أرنب بري مُدخَّن وحُمَّاض أرخبيلي في هيئة شبه خفيَّة- فلا بد أن وزنه لم يتجاوز وزن سَبلةٍ من شارب الأرنب المذكور. لكنها راقت للورا، ويروق لي أنها راقت لها. راحت كؤوس النبيذ تتضاعف أمام أعيننا، ذلك أن كل طبق كان يأتي مصحوبًا بلطخةٍ من خمر موصًى به، لكن من الصعب شرب النبيذ مع الطعام وقتما يختفي الطعام في لحظة لمسه، فصار أمام كلٍّ منا صف من كؤوس النبيذ. لم يدنُ اختلاف مذاقات النبيذ مما قد يقترحه وصف النادل المُسهِب وقصصه عن خلفياته، إذ قُدمت لنا جمهرةٌ من الصفات -لاذع وبلُّوطي ومعقد ودافئ وتُرابي ولحيم وصارخ والعشرات غيرها- وجرعة مُشبعة من الترهات المشبوهة عن كَرم عضويٍّ صغير في شمال شرق إيطاليا. ثم أدركتُ أن قصد أمسية مبالغ في أسعارها كهذه ليس تحديد عيوب منطق النُّدُل أو محاولاتهم خداعنا، بل هو ببساطة الجلوس متقابلين والبقاء على هذا النحو لفترة مطوَّلة من الزمن.

قالت لورا بعد أن ابتلعنا ملعقة يتيمةً من موس الروبيان، مُنهيَين بها صحنينا: «أشعرُ أنني أستعيدُ ثقتي بنفسي. لم أكُن مدركة حتى كم كنتُ مكبوتة، ولم أعرف أن الرسم سبيل مساعدتي، وهو ما سبب الكبتَ في المقام الأول. لا يسعني تصديق أنني أقول هذا، لكن نموذجك الرياضي يساعدني

بحق على التفكير في الأمور من زاوية مختلفة. إنه يفتح أمامي منظورًا جديدًا تمامًا، من مناحٍ مختلفة كثيرة».

كان صوت لورا خفيضًا لكنه متّقد، ثم رشفت رشفة نبيذ، وظلت تنظر عبر حافة الكأس في عينيَّ مباشرةً. عجزت الإضاءة الخافتة الوثيرة عن إخفاء أن وجهها، بل كيانها بأكمله، بات يجمع بين قساوة جديدة والسعادة والإيجابية التي أعرفها من قبل. بدت حقًّا كأنها اتخذت منعطفًا من نوعٍ ما. يمكن للرياضيات أن تصنع المعجزات، أعرف ذلك. لكن لسبب ما، يصعب عليَّ تصور أن كل هذا يعود إلى الأرقام. لا أعرف لمَ. ربما خبرتي الحياتية العامة وعشرات الآلاف من الحسابات التي أجريتُها تخبرني أن يقظة رياضياتيَّة كهذه امتيازٌ للقلة، لا للكثرة. ابتسمتُ لأن لورا تجعلني أبتسم، وابتسمَت هي كذلك.

ثم قالت، منحنيةً إلى الأمام بعض الشيء: «يبدو أن الأمور تسيرُ في مجراها الصحيح. كل أنواع الأمور».



بحلول موعد وصول التحلية الثانية (ثلاث توتات عُلَّيق، وقطرة قَطر وهرم هزيل من رغوة الفانيلا)، بدأنا مناقشة الجدار الثاني الذي سيُرسم عليه تاليًا. أخبرتني لورا أنه سيكون مستوحًى من توفي يانسون.

- لكنه لن يكون بأسلوبها، بل بأسلوبي، غير أنه مُستوحًى من توفي وموضوعاتها إلى درجة أنني سأضعها في المنتصف وأحيطها بما تعنيه لي وما تجعلني أعمالها أفكر فيه: الحرية، والجمال، والبحر... والحب.

ظلت الكلمة الأخيرة معلقة في الهواء، محشورةً بيننا، هناك، فوق صفوف كؤوس النبيذ، في نقطة التقاء أعيننا. كنتُ أتساءل عما إن كان يجب عليَّ إرخاء ربطة عنقي. فكرة أن الحرارة المحيطة في المطعم قد ارتفعت على امتداد العشية غير محتملة، لكنني أشعر بذلك بالتأكيد، فقلتُ ما أفكر فيه: «ستكون مذهلة. كل شيء ترسمينه... يلمسني. لاحظتُ ذلك في الأتينيوم أيضًا.

أعجبتني زنابق الماء في البِركة الفرنسية. أعجبني النوابغ الفنلنديون، ولم تكُن عندي فكرة أن ثمة هذا الكم من الطرق لرسم الموت، والأسى والتعاسة، وفي نسق كهذا من الألوان الكئيبة. لكنني لم أحبها. أما أنت... عندما رأيتُ أعمالك، أقصد، رسوماتك... أحببتـــ... أحبــ.. ك».

لستُ واثقًا أنني شربتُ أكثر مما ينبغي، لكنني أشعر بالدوار، وأتعرق، وأقول أشياء لم أنتوِ قولها، وبحلول هذا الوقت صرت مؤمنًا بحزمٍ في أن النفقة المالية الضخمة لهذه الأمسية وكل أعراض التسمم الكحولي المهادن صغيرة صغرًا لا متناهيًا أمام الغبطة التي جلبتها عليَّ. أشعرُ كأنني ضعتُ رغم أنني جالسٌ في مكاني.

ربما لاحظت لورا هذا، ذلك أنها أسندت مرفقيها على الطاولة، وصار وجهها الجديد -الذي أجد قراءته أصعب من أي وجهٍ سابق- أقرب إلى وجهي من أي وقت مضى في هذه الأمسية. وعندما باغتتني بالسؤال أخيرًا، كان صوتها مشوبًا بشيء جديد وغير معروف أيضًا: «وما الذي كنتَ تفكرُ في فعله بعد العشاء؟».

19

لم أُقبِّل أحدًا في القطار المكوكي من قبل، وقد صيَّر ذلك الرحلة أسرع بكثير من المعتاد ولم يُتِح لي الوقت للانتباه إلى المحطات.

بالطبع، ليست هذه إلا ملاحظات سطحية سجلتها بعد ما جرى، حالما صرنا نتسكع بالفعل عبر مساء كانيلماكي.

بطريقة غريبة، شعرتُ أن شفتيَّ تضطرمان، وجسدي في الوقت نفسه خفيفٌ كريشة ومشدود كقوس نبَّال. كانت لورا تمشي بجواري، أو بدقة أكثر، تمشي معي، وكتفها ملتصقة بي. كنا في طريقنا إلى منزلي، ورغم شعوري بأكثر المشاعر استثنائية في عقلي وجسمي، بقيتُ متذكرًا التلفُّتَ حولي.

كنت أبحث عن السيارة رباعية الدفع. رحتُ أنظرُ بحذر إلى مواقف السيارات، وزوايا الطرقات، والممرات، محافظًا في أثناء ذلك على قضاء ثانية أو اثنتين مُعاينًا كل شخص، وكل جسد يعبرنا. افترضتُ أن أيه كيه سيبرز بحجمه، والرجل العظاءة بقوامه عديم الكتفين، لكنني لم أرَ السيارة، ولم أرَ الرجلين أو أي شخص آخر قد يهدد حياتي الليلة تحديدًا. ولصالح موعدنا، قررتُ أن هذه علامة جيدة.

فتحت الباب الأمامي وصعدنا السلالم صامتَين، ثم وصلنا إلى باب شقتي، ففتحتُه للورا ودخلتُ خلفها. ساعدتها بخلع معطفها، وأخبرتها بمكان الحمام، ثم مشيتُ إلى المطبخ ومنحتُ شوبنهاور وجبته المسائية الصغيرة. بعد أن أتممت ذلك وسمعتُ لورا ترحض المرحاض وتغسل يديها وتفتح باب الحمام، لم أعُد أعرف ما أفعل. لكن في هذه المرحلة، بدا أن جسدي يعرف بالنيابة

عني. تبادلنا القبل في غرفة النوم سابحين في ضوء القمر، أمام معادلات جاوس تمامًا. وبطبيعة الحال، رأيتُ المعادلات، لكنني لم أشعر بالإعجاب الراسخ الموقَّر لها ولم أتهيَّبها كما كنتُ قبلًا. لم أرَها آنذاك إلا رموزًا، وبعد برهة لم أرَها رموزًا حتى.

خلعنا ملابسنا حالما صرنا في غرفة النوم، ومن ناحيتي على الأقل، كانت تلك مهمَّة غير منظمة البتة، كأنني لا أعرف كيف أخلع قطع الملابس أو بأي ترتيب، فنزعتُ ربطة عنقي آخرها. تعقَّدت العملية بأكملها بسبب حقيقة أنني أشبه بقوس النبَّال آنف الذكر، مشدود وجاهز للإطلاق، استمرت قبلاتنا حتى شعرتُ أن فمينا عند درجة الغليان، وقبلاتنا مباراة مصارعةِ ألسنةٍ طويلة ورطبة وساخنة حد الانصهار. ولم يكن هذا منفِّرًا كما يشي به وقعُه، فالإحساس بالغ العذوبة حقًّا، لكنه لا شيء مقارنةً بإحساس ملامسة جلد لورا العاري لجلدي.

كان الشعور مُسكرًا، لكنه في نفس الوقت مُحررٌ كل التحرير. بدا أن يديَّ تعرفان إلى أين يُفترض بهما المُضي، وما الذي يفترض بهما إيجاده، وكيف تتصرفان في ظل الظروف الراهنة. وعند افتراق فمينا، كنا نطلق أصواتًا، من صنفٍ أفضِّل ألا أطلقه في النهار. ثم تحرَّكت لورا جانبيًّا، دافعةً إياي برقةٍ لأستلقي على ظهري، وراح شعرها الجامح يداعب صدري ومعدتي، مُسريًا رعشات تعدو على طول عمودي الفقري. والتصقت بي، وبعد ذلك، نسيت أن عينيَّ حُطَّتَا على معادلات جاوس قط. لم يكُن بوسعي رؤية شيء إلا سقف غرفة نومي، مُضاءً بشريط ضوء القمر الساطع من غرفة الجلوس، ولم أرَ السقفَ بحقٍّ حتى.

كلما اقتربنا من الثقوب السوداء، تباطأ الزمن أكثر وتكثَّفت المادة، وعندما أوشكتُ على السقوط في الهاوية خلف أفق الحدث، مستعدًّا لعَيش القدر الذي ينتظرني داخل الثقب الأسود، حيث سأُطحن إلى ذرةٍ أصغر من رأس الدبوس وأُدمج بالظلام اللانهائي هناك، أدركتُ أن عليَّ انتزاع نفسي من هذه الحالة التي لا تُغتفر والعودة ناحية الجاذبية كما نعرفها.

بطريقة ما، تمنيتُ لو أن نادلنا كان هنا ليشهد هذا، فمذاق لورا أطيبُ من كل الأطباق والأنبذة التي ذقناها سابقًا في هذا المساء. وبالحكم من خلال

الأصوات التي أصدرتها وأنصاف جُملاتها المتكسِّرة، استخلصتُ أنها لا بُدَّ تشعر أيضًا بارتياحٍ لأننا لم نختَر لائحة الطعام ذات الأطباق الستة عشر، إذ كنا لنظل في المطعم حتى الآن لو فعلنا. وصلت نسبة التكلفة إلى الفائدة الآن إلى مستوًى آملُ أن كلَيْنا يمكنه أن يكون أسعد معه.

بعد ذلك، ارتصصنا ثانية، وهنا أتى توتر قوس النبَّال أُكله، ذلك أنني قدرتُ على الأداء بحماسةٍ مُرضية. لستُ كثير الخبرة فيما كنا نفعله، لكن ربما لستُ في حاجة إلى أن أكون، فدرجة صوت لورا، وطريقة جذبها إياي إليها، وقبضها عليَّ بأصابعها غارزةً أظافرها في مختلِف جوارحي، أشارت بقوة إلى وجود احتمال كبير في أنني أنجح جزئيًّا على الأقل في مهمتي الحاليَّة.

أدَّينا بضع تشكيلات من طرق اختبار واحدنا للآخر، ولم تكُن التغيُّرات كبيرة، بل بدت أقرب إلى حركات تصحيحية، كما تُضاف أرقام عشرية لعملية حسابية بناء على الكيفية المضبوطة التي يُراد إظهار رقم ما بها. أطلقت لورا صيحة طويلة ومجلجلةً وعميقة، كعرضٍ للاستسلام والنصر متزامنين، بينما لاحظتُ شخيرًا لم يكُن مألوفًا قبل ذلك الحين ينبعث من حلقي، صوتًا استمرَّ لسبب فِزيولوجيٍّ غير مفسَّر وقتًا أطول بكثير من الهواء في رئتي.



كان بوسعي سماع لورا تتنفس بجواري، وشعرتُ أن ثمة شيئًا ما أكثر حقيقيةً في ذلك، شيئًا أهم من أي شيء سواه الآن. لستُ أدري من أين خرجت كل هذي المشاعر الجديدة، هذه الأفكار والملاحظات الغريبة. وفي الوقت نفسه، بدأ جلدي يبرد. كان اللحاف متكومًا عند أقدامنا، فجلستُ بعض الشيء وعثرتُ على زاوية اللحاف ثم جذبته ناحيتنا، فسألتني لورا: «أتظن أن وقت الانقلاب والبدء بالشخير قد حان؟».

كان سؤالها عقلانيًّا تمامًا، فالوقت متأخر جدًّا، وثمة صلة مباشرة بين وضعية النوم المثالية وجودة نومنا، لكن ذلك ذو أهمية ثانوية في هذه اللحظة. أخبرتها أنني لا أريدُ أن أصاب بالبرد، ولا سيما في ضوء أنشطتنا التجارية.

قالت: «هذه عبارة لم أسمعها قبلًا»، واستدارَت على جانبها رافعةً نفسها على مرفقها، فصار وجهها فوق وجهي، قريبًا حد أنني، ثانية، أشعر بوهجه، وابتسمَت، «لكن لا يبدو أنك موشك على سؤالي قضاء الليلة هنا».

قلت: «إن القطارات المكوكية لا تعمل الآن، لذا ستوفرين مبلغًا كبيرًا من المال إن بقيتِ حتى الصباح»، وشعرتُ أن كل ما قلته خاطئ. إنه صحيح بالطبع، وسيكون الفعل العقلاني، لكنه لا يعبر عما أشعر به حقًّا أو ما أريدُ قوله. نظرتُ إلى لورا: «لا يوجد شيء أريده الآن أكثر من بقائك بجواري، حتى يسعني... الإحساس بك».

خرجت الكلمات من مكان غير معتاد، ولم تكُن نتيجة للتفكير النقدي ولا العمليات الحسابية، لكنها رغم ذلك الكلمات التي أردتُ قولها. فكرتُ فجأةً: «ربما من الأفضل قول كلمات كهذه مستلقيًا على ظهري، لأنها تجلب الشعور المدوِّخ نفسه الذي كنت أعانيه مؤخرًا». ابتسمت لورا، وأحكمَت احتضاني أكثر، ثم همسَت: «من حسن الحظ أنني طلبت من يوهانا الاعتناء بتولي الليلة. كنتُ آمل أن تقولَ شيئًا من هذا القبيل».

20

كانت السماء خاليةً من أي غيمة، والهواء الرائق مُثقل بقرصة سبتمبر، وشمس الصباح سخية سخاءً غير اعتيادي لهذا الوقت من العام، إذ شعرتُ بالدفء على الجانب الأيسر من وجهي بينما أمشي من محطة القطار باتجاه متنزه المغامرات. بدا الصباح كاملًا من كل النواحي، كما لو أنه قد اختبر أيضًا شيئًا لا رجعة فيه، تغييرًا تامًّا مصيريًّا عن محاولته الأخيرة. وبطبيعة الحال، أدركتُ أنني اليوم أرى كل شيء عبر فِلترٍ ما. كان الأمر كأنني خارج من جسدي بعض الشيء، والشعور باعث على الانتشاء ومُحطِّم للأعصاب في الآن نفسه، وملأ صدري بسالةً وشيئًا ما قد أسمِّيه سعادةً حتى. لكن في نفس الوقت، شعرتُ أنني مددتُ نفسي عاريًا وعُرضةً لشيء ما يزال غير محدد، كأنني مددتُ يدي إلى الظلمة من دون أن أعرف ما أنتظر إيجاده.

كان الشعور العام جذلًا رغم ذلك، كأنني قد ربحتُ منافسة سرية لا يعرف بها إلا الذين تلقوا دعوة سرية. شيء يشبه هذا. تشق السيطرة على هذه الأفكار أو توجيهها. إنها مختلفة عن أفكاري الطبيعية، وفي الحقيقة، ليست أفكارًا البتة، بل أقرب إلى تدفُّقات طاقة غريبة، وومضات برق، وصاعقات رعد رقيقة. مشيتُ سريعًا في خطوات واسعة رشيقة، ورحتُ أفكر في التغير الجذري لمفهومي للموعد الغرامي، وإن كان في نواحٍ معينة فقط. بلى، أود الخروج في موعد آخر، لكن مع لورا هيلانتو فقط. وفي خلاف ذلك، ظلت فكرتي عن المواعيد نفسها: لن أحاول إعادة استحضار حميمية الليلة الماضية مع أي شخص. فبالنسبة إليَّ، ما يزال ذلك يبدو لعبًا باحتمالات ضئيلة.

وصلتُ إلى حافة مرأب متنزه المغامرات متأخرًا جدًّا، لكن لا يهم، فلدي قوة مكتشفة حديثًا، سأعوض الـ...

خفقت ريحٌ باردة في قميصي وسترتي. شعرتُ أن ربطة عنقي تضيق رغم أنني لم ألمسها، وكنتُ واثقًا أن زرقة السماء فقدت بعضًا من إشراقها حتى، وأن الغيوم عثرت على الشمس وحجبتها عن قصد.

لا شيء يُعتم صباحًا كمرأى محقق الشرطة. كان أوسمالا واقفًا في منتصف قطر مرأب السيارات تقريبًا، تمامًا في البقعة حيث اعتاد علمُ يُومي فَن الضخم الرفرفة في الريح. بالطبع، ليس يرفرف الآن لأنه، بحسب ما فهمت، ما يزال في الغسيل بعد أن سقطت السارية، ولم تصل السارية الجديدة بعد. رآني أوسمالا بالفعل، ولوَّح لي، فلوَّحتُ له ومشيتُ ناحيته.

بوقوفه في وسط مرأب السيارات بسترته الرمادية وسرواله الجينز الفاتح غير الملائم، تماهى مع محيطه كما تتماهى تماثيل جزيرة القيامة، ولا أعني بذلك أن لا أحد يعرفُ من أين جاء أو من نحته في الصخر، بل أن ثمة تجهُّمًا تمثاليًّا معينًا وغموضًا يشوبه. كان الصباح البارد قد قرص أذنيه وأرنبة أنفه تاركًا إياها حمراء كسيارة الإطفاء، وأضفى ذلك تفصيلًا مُريحًا على نحو مفاجئ على ملامحه الجامدة الخشنة.

تكلم عندما صرتُ في مرمى السمع: «لقد سقطت السارية».

كانت معلومة لا جدوى منها البتة، فأنا مالك متنزه المغامرات هذا وأوسمالا يعرف ذلك.

- أعرف. لقد طلبنا واحدة جديدة للتو.

حدق أوسمالا إلى ما بقي من السارية، وتأمله لوقتٍ طويل. ثم استدار على مهل، وأجال عينيه في جميع أرجاء المرأب، ودار حول نفسه في 360 درجة، وقال أخيرًا: «لم تسقط من تلقاء نفسها. انظر إلى الكسر، يمكنك أن تعرف ذلك من زاويته. ثمة نُقرة وعلامة اصطدام. سيكون من الصعب خبط شيء بهذه الطريقة بالخطأ. حتى بالنسبة إلى شخص يرى الركن رجوعًا مسألة أكثر تعقيدًا من الغالبية».

قلت: «لقد اخترنا واحدة جديدة و...»، وسكتُّ قليلًا.

فسألني أوسمالا: «من أسقطها؟».

أجبته بصدق: «لا أعرف».

- أليس واضحًا على كاميرات المراقبة؟

أخبرته أن هذا الجزء من المرأب نقطة عمياء، بسبب الكاميرا المعيوبة التي لم تُنصَّب جيدًا، وأن الرحلة من الطريق إلى هذه النقطة المحددة تمر في وسط النقطة العمياء. إما أن أوسمالا بدا مستغرقًا في التفكير وإما أنه كان يتظاهر بذلك. وبالحكم من خلال درجة الاحمرار على أنفه وأذنيه، أحسبُ أنه ينتظر وصولي منذ بعض الوقت.

- أيمكنك التفكير في أحدٍ قد يرغب بإسقاط سارية علمك؟

- لا، لا يمكنني.

- ألا تظن أن هذه رسالة من نوعٍ ما؟

- رسالة؟

- شخص ما يريد تذكيرك بشيء ما.

هززتُ رأسي ونظرتُ إلى الجذع المعدني. وقلتُ، صادقًا: «هذا لا يذكرني بشيء».

فمثل أوسمالا، كنتُ قد تساءلتُ عن احتمال وجود رسالة مضمنة في إسقاط السارية، وإن كانت موجودة، فأنا عاجز عن قراءتها، ذلك أن إسقاط السارية في النهاية ليس فعلًا حصيفًا تمامًا.

سألني: «أتتذكرُ الصورة التي أريتك إياها؟».

أخبرته أنني أتذكر.

- أعساه منخرطًا في تخريب السارية؟

فكرتُ في خلدي: *إلا إن تسلق خارجًا من الثلاجة، ومشى إلى المرأب، وداس على دواسة الوقود، وأسقط السارية، وعاد إلى الثلاجة بعد ذلك.*

- لا أعرف. إن أرجحية ذلك ضعيفة جدًا.

- ما الذي يجعلك تقول هذا؟

- الأمر فقط أنه... حسنًا، لقد أخبرتَني أن الرجل مجرم محترف، وهذا يبدو أقرب إلى صنيعة هواةٍ في نظري.

سمعتُ كلماتي كأن شخصًا آخر قالها، وأدركتُ أن هذا ما حدث بالضبط. فمن جهة، لقد عُطبت السارية عمدًا، لكن من جهات عديدة أخرى، كان هلاكُها شيئًا أقرب إلى نشاطات افعلها بنفسك[1]. وإذا بالمسألة تصير واضحة وضوح الشمس.

- لكنني لستُ هنا بسبب السارية.

لقد تعلمتُ ما يكفي لأعرف أن هذا هو أسلوب أوسمالا: تغييرات خاطفة في مجرى الحديث في محاولة لمغافلة الناس. وأعرف كيف ينبغي أن أستجيب.

- أثمة معلومات جديدة عن وفاة أخي؟

قال: «ليس على حد علمي»، ولم يبدُ عليه أدنى ارتباك إزاء محاولتي التحادثيَّة لتغيير مسار الحوار، «كانت قضية واضحة المعالم تمامًا، وعذرًا على العبارة. ما مدى معرفتك بطاقمك؟».

- لم يمضِ على وجودي في متنزه المغامرات إلا...

أومأ برأسه قائلًا: «بالطبع»، ثم تابع: «من الصعب في وقتٍ قصير كهذا أن تعرف أحدًا حق المعرفة، أن تصير على معرفة حميمية به، إن صح التعبير».

لم أقُل شيئًا، وأخذ أوسمالا يتأملني بنفس الاهتمام التوَّاق الذي كان مُدخرًا منذ برهة لجذع السارية.

- لكن هل كلمك أخوك قبلًا عن أفراد الطاقم؟ أأخبرك سابقًا عمن وظفهم، أو علق تعليقًا عن كيفية جريان عملية التوظيف؟

قلت، وبصدق مرة أخرى: «لا. لم نتكلم عن هذا... أيضًا».

- وماذا عنك؟

- ماذا عني؟

---

(1) افعلها بنفسك (DIY) هي طريقة بناء أو تعديل أو إصلاح أشياء دون مساعدة مباشرة من الخبراء والمحترفين. (المترجم)

- أفتحت الموضوع معهم؟ أأجريتَ، لنقُل، تقييمات أداء للطاقم وتعرفتَ إليهم بتلك الطريقة؟ هذا الصنف من نهوج القيادة شائع جدًّا، كما فهمت.
- لم أحظ حقًّا بالوقت الكافي... ربما بعد أن آلفَ...

أومأ أوسمالا: «بالضبط، يسمونها القيادة التشاركية، حيث يجلس رب العمل والموظفون معًا، يتكلمون، ويفسحون مجالًا للآخر ليتكلم ويُنصَت إليه، ويعبرون عن مكنونات صدرهم، يتحدثون عن حيواتهم وحاجاتهم. كما سمعت».

توجستُ شيئًا غريبًا جدًّا في نبرة صوت أوسمالا. كنا واقفَين في وسط مرأب سيارات هائل، هناك تحت السماء الرائقة الطلقة، وشعرتُ رغم ذلك أنني في غرفة صغيرة جدًّا وسيئة التهوية. ربما غرفة ذات جدران زجاجية.

قلت: «إنني متأخر بعض الشيء»، واتخذتُ خطوةً حذرة ناحية مدخل متنزه المغامرات، «إن لم تكُن لديك مشكلة...».

فأومأ ولوَّح بيده قائلًا: «نداء الواجب. بكل تأكيد».

وبدَت إشارته كأنه يدلني على الطريق إلى الباب الأمامي.

21

كانت الحظيرة التي عُلق الرجل فيها حمراء وضخمة وتتربع بجلاء بعيدًا عن بقية الأبنية في المزرعة، ومن وجهة نظري، أرى أن امتداد الغابة حتى الجانب الجنوبي تقريبًا من الحظيرة أحد العوامل الإيجابية، بالإضافة إلى أن الغابة الآن ظليلة ومحمية بسبب موقع الشمس. كنتُ منقطع النفس بعض الشيء إثر المشية الطويلة السريعة، وما أزال غير واثق تمامًا بما عليَّ أن أفعله تاليًا. شريط حراجي عرضه بضعة أمتار هو كل ما يفصلني عن حيِّز من الأرض المكشوفة، ومن هناك، ثمة نحو خمسة عشر مترًا حتى نهاية الحظيرة. خلف الزاوية، في وسط البناء، رأيت بابًا تُرك مفتوحًا بالقدر الكافي لتمر قطة أو كلب، أو خنزير صغير. أو رجل نحيل، جسده ممتد بعض الشيء من الأنشوطة. التقطتُ أنفاسي، وأوكأت كتفي على شجرة تنوب مسنَّة وحاولتُ استجماع أفكاري. وثمة الكثير لأستجمعه بالتأكيد. كانت الغابة تعجُّ برائحة الخريف.

رغم ما يبدو عليه هذا من تناقض بالنظر للظروف، فقد كانت بضعة الأيام الأخيرة أسعد أيام حياتي. أشعلت تلك الليلة الساهدة التي قضتها لورا معي فيَّ نارًا، نارًا لم أعرف حتى أنها موجودة قبل الآن. لم تقتصر هذه النار على عالمي الداخلي، ولا أعني بذلك أنني تحولتُ فجأةً إلى صنفِ عِذاب الحديث ومرهفي المشاعر من أمثال بيرتيلا، أو أنني صرتُ أشدُّ عضلات ذراعيَّ وظهري باستمرار مثل كريستيان، بل لاحظتُ ببساطة أنني أتكلم بطريقة مختلفة بعض الشيء، وأتحرك بطريقة مختلفة. ببساطة شديدة، صار عندي

يقين أرسخ بالأمور. وفي كل مرة أرى لورا، يُزكي ذاك اليقين، وتلك النار، واحدهما الآخر ويدفِّئه.

كانت لورا ترسم جدارياتها بوتيرة أسرع، وفي كل مرة أمرُّ أمام الجدران التي تعمل عليها، تغزوني الدهشة والافتتان، وفي كل مرة، أُضطر إلى شدِّ نفسي شدًّا لأبتعد. وليس أن لورا تبقيني، فهي مركزة على رسمها إلى درجة أنها في بعض الأحيان تنسى الرد على تحيتي.

تنشقتُ عبير الغابة إلى عمق رئتيَّ، وأعدتُ نفسي إلى موقعي خلف الحظيرة، إلى الظهيرة الخريفية الباردة، إلى ما أفعله، وسبب فعلي إياه.

كان المصرف قد منح بالفعل كل القروض التي تسمح بها الميزانية، وريعُ المتنزه في مستوى مناسب، لكن هذا ما يزال غير كافٍ، فالمال مشكلة متنامية. وبطبيعة الحال ليست المشكلة الوحيدة.

عليَّ فعل شيء بخصوص فيلم نظام المراقبة. لحسن الحظ، تُمحى الأفلام التي يزيد عمرها على الأسبوع تلقائيًّا، وإيسا لا يتفقد الأشرطة روتينيًّا من دون سبب وجيه. لقد ذابَت المطاردة وفعل الدفاع عن النفس الذي ارتكبته بأذن الأرنب في الهواء منذ وقت طويل. وبحسب معرفتي، فإيسا لم يُشاهد الفيديوهات التي تُظهرني أُخفي الجثة في الثلاجة أيضًا، ذلك أنني كنتُ لألاحظ هذا في سلوكه عندما جلسنا في البيئة الكثيفة الغازية لغرفة التحكم، وراح يشرح أي كاميرات تغطي أي مناطق من المتنزه. سألني حينئذ عن سبب اهتمامي بالأشرطة، ومنحته إجابة صادقة: أنني قلقٌ حيال أمن المتنزه.

فاتحني كريستيان مرة ثانية بموضوع الإدارة العامة، لكن أسلوبه تغير هذه المرة، فلم يعُد عدوانيًّا أو ضيق الخُلُق كما من قبل، بل اكتسى وجهُه ابتسامة كانت، وإن بدَت إكراهية، واسعة وكشفت أسنانه البيض بياضًا مذهلًا. أخبرني أنه وجد دروسًا أسطورية وسالبة للعقول. وعلاوةً على ذلك، بدا مختلفًا اختلافًا صادمًا في قميص أنيق سماوي اللون. لم نحظَ بوقتٍ للخوض في التفاصيل -إذ أخبرني أنه سيرجع إليَّ حالما يتكلم مع مرشده، أيًّا كان ما يعنيه- لأن هاتفه رن، مقاطعًا إيانا، وأيضًا، كنتُ مضطرًا إلى متابعة المناقشة مع مينتو كيه.

كانت رائحة الجن وأقراص المينثون وسجائر البول مول التي تغلف مينتو كيه تزداد قوة كل يوم، وبالستائر المسدلة والموسيقى الداوية والأضواء الشبيهة بأضواء الحانات، بدا مكتبها أشبه بملهًى ليليٍّ. في الصباحات، يكون صوتها كاشطًا حد أن بوسعه صنفرة شجرة تنوب شاهقة، ولا حاجة للقول إنها تريد زيادة ميزانية التسويق ثانيةً. فتساءلتُ -جهارًا- أين ذاب استثمار تسويقنا الأخير، ذلك أن شيئًا لم يتجسد سوى صندوق ملصقات ومنشورات واحدٍ تافه يُعلن عن عمليات المتنزه المصرفية، فقالت مينتو كيه إنني بوضوحٍ لا أعرف شيئًا عن استراتيجيات التمييز التجاري طويلة المدى، والتركيبات السكانية الرئيسة المستهدفة، وتفاعل المؤثرين. ما زالت هذه المسألة أيضًا دون حل.

من المسائل الأخرى غير المحلولة مسألة ثلاجة المقهى، فيوهانا تراقب المقهى كأنه مقهاها الخاص، وبطريقة ما، هو كذلك فعلًا، وكنتُ لأرى هذا أمرًا حسنًا في ظروف أخرى. يبدو زبائننا أكثر من سعداء بجودة طعامنا ومخبوزاتنا وكميتها، وأنا أيضًا راضٍ كل الرضا عن شطائر فخذ الخنزير والجبن المُشبِعة التي أكلتها هناك. لكن ما رأيته في آخر مرة أخذت فيها شطيرة عقَّد الأمور إلى حد ما، إذ ظهرت أقفال على كل الثلاجات. قالت يوهانا إن ذلك للحد من هدر المثلجات، فبالإضافة إلى السرقة العرضية، يرفع فتح غطاء الثلاجة وإغلاقه بلا جدوى من حرارة المحتويات. ينبغي للأشياء المثلجة أن تبقى مثلجة. وفوق كل هذا مطالبة الرجل العظاءة بخمسين ألف يورو.

ما أحتاج إليه هو وقت مستقطع، ولهذا أنا هنا. قراري مبني على التفكير الرياضي البحت. متى ما واجهتُ مشكلةً في المراحل الأخيرة من عملية حسابية معقدة، أرجع إلى ما هو أهم، أي المشكلة الأصلية، فلا جدوى من محاولة حل مشكلة منفردة، إن كان لب المشكلة ما يزال مستعصيًا وإن كان من الواضح أن هذا اللب يحتوي مفتاح المشكلة بأسرها.

وهذه جوهريًّا علة مجيئي تحت غطاء الأشجار، إذ لم أُرِد سلوك الطريق الطويل وصولًا إلى المزرعة لأجد نفسي وجهًا لوجهٍ مع الرجل العظاءة. لم أتمكن من رؤية السيارة رباعية الدفع في أي مكان. هو ليس هنا. لكن مَن هنا؟ لم أرَ أي دلالات حركة في الفناء. كان المنزل مبنى سابق الصنع من

طابقين، بلون أصفر فاتح ومحاكاة مدمجة لبيوت المزارع التقليدية، وباب الكراج الأبيض مُغلق.

تحركتُ. مشيتُ من الغابة إلى الفناء، ثم دنوتُ من المنزل والشرفة، ولم أكُن واثقًا تمامًا بما يمكنني شمُّه في الهواء. بالطبع، ثمة الغابة الرطبة، وحفيف الرياح الشمالية الشرقية، والحقول المفتوحة على الجانب الآخر، لكن ثمة شيء حلو أيضًا. صعدتُ درجات الشرفة، ورأيتُ الجرس على الجدار، وحالما أوشكتُ على ضغط الزر الأبيض المدور بسبابتي، أجفلني شيءٌ ما، فرجعتُ غريزيًّا ناحية حافة الشرفة، وكدتُ أسقط.

ثم أخذ الباب يفتح وحده. أشياء كهذه لا تحدث وحسب. ثم سمعتُ صوتًا من الداخل: «ادخل يا هنري».



كانت رائحة كعكات القرفة الطازجة كما أتذكرها تمامًا في المقاهي والمخابز. جلسنا إلى طاولة عشاء خشبية متينة، وفي وسط الطاولة كومة من لفافات القرفة إحداها في صحن بجوار فنجان قهوتي البورسليني، وعلى الجانب الآخر للطاولة، جلس رجل أطول مني، ووجهه العريض الشبيه بالمجرفة محمر بعض الشيء.

قال: «كنتُ أجربُ وصفة جديدة، لكنني أظن أن الفارق الأكبر هو أنني بدأتُ باستخدام الطحين العضوي. إنه يؤثر في الطعم بحق. يقول بعض الناس إنهم لا يشعرون بالفرق، وإن لا فرق يشكله نوع الطحين المستخدَم، لكنني أختلف معهم أشد الاختلاف، فإما الطحين العضوي وإما لا شيء. ما رأيك؟».

كان الرجل الضخم يتكلم عن الخَبز بنفس الصوت الذي يوزِّع به أحكام الإعدام. ولم أرَ جدوى من سؤاله كيف عرف أنني كنتُ أمشي ناحية المنزل أو اللحظة الدقيقة لوصولي إلى الباب، فقد عرف.

التقطتُ الكعكة وقضمتُ قضمة. كانت النافذة الجانبية تنفتح على مشهد شاعريٍّ ريفيٍّ من حقول وغابة، والكعكة طريَّة ودافئة وتذوب في الفم. مضغتُ تحت مُراقبة عينيه، وحالما بلعتُ لقمتي، أخبرته أن الكعكات نجاحٌ شاهق.

- وماذا عن الطحين العضوي؟

لم أحتَج إلى التفكير طويلًا في هذا.

- طحين عضوي أو لا شيء.

- هاك بضعة أسرار إضافية صغيرة: مُدةُ خَبزٍ أقصر بقليل وكمية إضافية طفيفة من الزبدة. يحتاج تركُ العجينة نيئة بعض الشيء في منتصفها إلى الشجاعة. ويجب أن تكون القرفة طازجة. كُل، كُل، كُل.

أكلتُ، وأضفى المسدس الأسود في يد الرجل الضخم اليمنى المتكئة حافزًا معينًا إلى طلبه. كانت كعكة القرفة هائلة، كثيرة، وأوشكتُ على التوقف، لكن الرجل الضخم أشار لي بإيماءة من معصمه ومسدسه أن عليَّ الاستمرار بالمضغ. وهكذا وجدتُ نفسي في بيتٍ ريفيٍّ مزيف في وسط الريف الفنلندي الجنوبي أحشرُ وجهي بتهديد السلاح في كعكة قرفة وزنها نصف كيلوجرام، بحجم قبضتين.

لم نتكلم. لا يمكنني التكلم وفمي ملآن وفكاي يلوكان بالطبع، لكن الرجل الضخم ظل صامتًا أيضًا. كان الثقب الأسود الصغير لبوز مسدسه موجَّهًا إلى صدري مباشرةً، ولا يمكنني سماع شيء سوى صوت أكلي. وبعد ما بدا أبديَّةً، ابتلعتُ أخيرًا آخر كسرة من الكعكة ومسحتُ فمي، ثم راح واحدنا ينظر إلى الآخر.

- إذن؟

أجبتُه: «لذيذة»، بينما أفكر أنني ربما ينبغي لي محاولة استخدام المصطلحات الصحيحة، «درجة حرارة الفرن المناسبة بالضبط، والقوام مزبَّد وقشدي، والطحين العضوي يجمعُ كل المقومات جمعًا مثاليًّا».

نظر إليَّ الرجل الضخم كما قد ينظر لرجل حكيم: «أعني أنك لا بد تود قول شيء ما، نظرًا لأنك قطعتَ كل المسافة إلى هنا».

أومأتُ: «صحيح».

هذا بالفعل هو سبب مجيئي، وإما سأؤخذ إلى الحظيرة الحمراء، وإما إلى بركة الرجل العظاءة المفضلة، وإما سأتمكن من مشي الكيلومترات الثلاثة عودًا إلى محطة الحافلات على قدميَّ هاتين.

قلت: «إنني أعاني مشكلة مع موظفي الرتب الوسطى»، محاولًا مراقبة وجه الرجل الضخم، وتقدير رد فعله بطريقة أو بأخرى، «وهي مشكلة لها أثر وخيم فيما اتفقنا عليه أنا وأنت».

- بقولك موظفي الرتب الوسطى، تقصد...
- لا أعرف اسمه. جئتُ إلى هنا المرة الماضية في سيارته رباعية الدفع. أما صديقه، التيرانوصور، فيعمل تحت اسم أيه كيه.

ضحك الرجل الضخم ضحكة وجيزة انتهَت سريعًا. كانت عيناه بدرجة لونية ما بين الأزرق والرمادي، وأشبه بخدشين، كأنه قضى سنينًا يتخازر وانتصر الخَزَر على وجهه في آخر الأمر. أخذتُ نفسًا عميقًا، وأخبرته كيف صعدتُ في رباعية الدفع، وكيف انتهى الأمر بوجهي مقعدًا لامرأة عارية، وأخيرًا -والأهم- كيف يريدُ موظفُّه خمسين ألف يورو من المال الذي يرجع بالحق إلى الخبَّاز الكبير بنفسه. لم أقُل جزئية الخباز، لكنني بخلاف ذلك أخبرتُه كل ما حدث.

جلسنا بعد ذلك صامتين ثانيةً. أملتُ ألا يعني الصمت أنني سأضطر قريبًا إلى أكل المزيد من كعكات القرفة. لا يمكنني ذلك. فمعدتي ملأى بالسكر والزبدة والطحين العضوي آنف الذكر حد أنها تؤلمني.

- قعدَت على وجهك؟
- تقنيًّا، لم يكُن ذلك ما أسميه قعودًا، فقد... أنزلَت نفسها فقط. لوقت قصير. كأنها امتطت سرج دراجة هوائية، لكنها بعد بضع ثوانٍ تعبَت منها ونزلَت.

فكر الرجل الضخم في هذا لوهلة، ثم قال، وبدا كأنه يحادث نفسه بدلًا عن محادثتي: «هذا سيبهجك. كُل هذا الخَبز. كعك، كعك، كعك. سيُحدث هذا تغييرًا لطيفًا».

فقلت، مُتحرقًا إلى إعادة المحادثة إلى مجاريها: «لم أجد ذلك محفِّزًا أي تحفيز، وخمسين ألف يورو...».

فقاطعني: «لقد فهمتُ هذا الجزء»، وقد عاد نفسه ثانيةً. حسنًا، نفسه التي قابلتها سابقًا. ثم استوى في جلسته في كرسيه، مُبقيًا مسدسه موجهًا ناحيتي طوال الوقت.

- ألديك خمسون ألفًا؟ إضافية؟
- ماذا؟ قطعًا لا.
- كيف يُبلي المصرف؟
- الوقتُ مبكر جدًّا على الإجابة بدقة، مع أننا قد تجاوزنا كل التوقعات في عدد القروض الممنوحة.
- إذن، فالمال يتدفق ولكنه لا يرجع.

صار صوت الرجل الضخم مُخيفًا الآن، كما أظن. مخيفًا بمعنى أنه ظل مُحايدًا تمامًا بينما يُدلي بشيء يخالف مصالحه المالية. فقلتُ، بصدق: «في هذه المرحلة، وهي متوقعة، يكون جعل العمليات تمضي قدمًا...».

- هل سدد أحد قرضه؟

لا توجد إلا إجابة واحدة لهذا السؤال: «لا. لكنني لم أتوقع أن يفعلوا ذلك أيضًا. فموعد الدفعات الأولى الأسبوع القادم».

- ماذا عن متنزه التسلية؟
- متنزه المغامرات. إنه يحقق ربحًا. بشق الأنفس.
- إذن، بإيجاز: الشركة الأم تُبلي بلاءً حسنًا، والمصرف قد انطلق انطلاقة واعدة؟
- هذا تقدير مناسب للوضع الحالي.

وهو تقديري كذلك.

لكن هذه المحادثة تحمل لهجةً لست أفهمها كل الفهم، وفيها ما هو غير متناغم تمامًا. أمامي مستثمر رأس ماله يضمحل ومستقبله المباشر لا ينطوي إلا على المزيد والمزيد من المخاطرة، لكن لا يبدو أنه قلقٌ أي قلقٍ حيال ذلك. مهما يكُن، لا وقتَ لدي أضيِّعه في الجلوس والتفكير في المسألة. ما يزال عليَّ الاهتمام بـ....

قاطَع سلسلة أفكاري قائلًا: «بالنسبة إلى موظفي الرتب الوسطى، فلنقُل فقط إنني سأنظرُ في الأمر».

- ماذا يعني هذا؟
- إن لم يكُن لديكَ خمسون ألف يورو، فكيف ستدفع له خمسين ألف يورو؟
- لا يمكنني.
- وما سيحدث آنذاك؟
- سيُري هذه الصور لك و...

أوشكتُ أن أقول: «وللورا»، لكن لا علاقة لها بالصور أو بهذا الموقف أو بهذا الرجل، فتابعتُ: «ولقد رأيتَها بالفعل، بطريقة ما، لذا لا يملك شيئًا يبتزني به».

- أنوي إخباره بذلك.

ذُهلت. أكان كل شيء بهذه البساطة حقًّا؟ ثم اتضح الأمر لي.

فسألت: «وما سيحدث بعد ذلك؟».

- سيحدث ما يجب أن يحدث. سينجو الرجل الأقوى. وكما تعلمتَ اليوم، عليكَ أن تأكل ما تراه أمامك.



لم يعرض الرجل الضخم توصيلةً ولم أطلب منه، فمشيتُ أولًا كيلومترًا ونصفه على الطريق الترابي، ثم كيلومترًا ونصفه على مسار الدراجات المتصدِّع حذاء الشارع العام. أرخى المساء سدوله مُعتمًا الظهيرة، وتراصَّت الأشجار لقاء السماء. لم أكُن أحمل هاتفي معي، إذ تركته عمدًا في متنزه المغامرات، وكان شعور ذلك غريبًا، كأن الاتصال بالعالم الخارجي قد بُتر من جذوره. لكن في هذه اللحظة ناسبني هذا تمامًا، ذلك أنني أحتاج إلى التفكير، أو، وبصورة أدق -وهي صورة لم أدركها حتى صرتُ في الحافلة وأخذت الغابات الجهومة والضواحي المتعاظمة دائمة التوهج تدوِّم تدويمًا لا نهائيًّا خلف النافذة- التفكير في ما يزال عليَّ حسابه.

22

كانت لورا ترسم جداريتها الرابعة في الجانب الشرقي من متنزه المغامرات، وتتحرك أمام الجدار مثل ملاكم، فتتراجع عنه خطوة ثم تعود إليه لجولة أخرى من اللكزات واللكمات. وكان الأطفال يصرخون، ورائحة الطلاء تمتزج بأريج رغيف اللحم المنسَّم من كيرلي كيك.

أخذ الوقت يمر بينما أخطُّ مجموعة من الخطط. حاولت تارةً تقرير ما سأفعله بشأن الرجل العظاءة، وتارةً حاولت إيجاد معبر رياضي يقودني عبر كل شيء، لكن لم يبدُ أنني لاقيت مستوى الوضوح الذي أحتاج إليه. باستثناء وحيد: أعرف أن الرجل العظاءة يتبعني، يتحيَّن الفرصة المواتية، وينتظر اللحظة المناسبة لينقض. أعرف أنه قريب مني، رغم أنني لا أحوز دليلًا تجريبيًّا لإثبات ذلك.

كل شيء يتحرك كأنه مُسَرَّع. الوقت يمر. ورغم ذلك، لا يفعل الوقت أي شيء آخر أبدًا. إنه طريق باتجاه واحد. في أحد تعريفات الوقت التي قرأتها في مكان ما -التقدم المستمر والقطعي في جوهره للوجود والأحداث من الماضي إلى المستقبل عبر اللحظة الراهنة- جذبت انتباهي كلمة «قطعي». ولهذا السبب وحده، يجب أن يرافق الزمن ملصق تحذير.

وجدتُ نفسي أتوه في هذا النمط من الأفكار أكثر وأكثر، ومهما أجريتُ من عمليات حسابية يبدو كل شيء عقيمًا. في هذه الأثناء، كنتُ قد لاحظتُ أن ثمة مشكلات في حساباتي، أو إن لم تكُن مشكلات في حد ذاتها، فهي على الأقل مشاعر بطء، وقلة وتركيز وبلادة عامة. أمور كهذه جديدة عليَّ وغريبة جدًّا.

وقفت خلف لورا، لكنني لم أعرف لمَ عجزتُ عن حمل نفسي على الكلام. كانت تعمل على جدار دي ليمبيكا. تأتأتُ أخيرًا: «مرحبًا».

استدارت بسرعة، وبدت متفاجئة قليلًا، فحاولت التصرف كما تصرفنا قبلًا: انحنيتُ بعض الشيء ناحيتها، جاهزًا لعناقها ومنحها قُبلة، لكنها لم تنحنِ ناحيتي، فكانت قبلتنا محرجة، نقرة ناشفة على الخد، وحملتُ مسؤولية العناق وحدي، ولاحظتُ أن العناق من طرف واحدٍ ليس طبيعيًّا ولا مُحفِّزًا.

- لقد طلبتُ من المنظفين إجراء فحص دقيق للردهة الأسبوع القادم، فقد واجهتنا مفاجأة أخرى في قلعة الوثب، إذ تفوح من الزلاقات في الدب الأكبر رائحة حليب بائت. ستُنظَّف جيدًا.

صارت نبرتها فجأةً عملية للغاية، ونظرَت أولًا إلى قلعة الوثب، ثم إلى الدب الأكبر، لكنها لم تُلقِ نظرةً إليَّ حتى، فقلت تلقائيًّا: «جيد».

ثم تابعَت كلامها، وتبينتُ أن صوتها نفس ما كان عليه في أول يوم عملنا معًا: «سننظف الكعكة الحلقية أيضًا، فجدرانها دبقة في بعض الأماكن إلى درجة أن الأطفال قد يعلقون».

قلت، وقد صرتُ فجأةً أعمل بنظام الطيار الآلي تقريبًا: «أشكرك. أشكرك على اعتنائك بالمتنزه».

- إنها وظيفتي.

- صحيح.

ثم لم يتكلم أحدنا لوهلة. وراحت سكين باردة تشق معدتي. شعرتُ أنني منفصل عن جسدي، كأن لا شيء يثبتني. ولم يكُن شعورًا مبهجًا كل الإبهاج.

- كنتُ أتساءل عما إن كان يمكننا بعد حينٍ أن...

فقالت وقد استدارت لتواجه الجدار تمامًا: «سأظل هنا طيلة المساء. وستأخذ يوهانا تولي إلى السينما. عليَّ إنهاء هذا القسم».

- ربما بعد ذلك...

- وسأبدأ مبكرًا غدًا.

- لعل غدًا...

- ولدى تولي درس رياضةٍ مساءً.

وبقولها ذلك بدأت الرسم ثانيةً بحركات سريعة ودقيقة توضح أنها تجيد ما تفعله. كنتُ ما أزال واقفًا، لكنني شعرتُ أنني أنجرف أبعد وأبعد عنها، كأن البحر يبتلعني أو الفضاء الخارجي.

قالت: «سأكون منشغلةً كل الانشغال في بضعة الأيام القادمة...».

وألقَت نظرة خلفها، كأنما ليست في اتجاهي. رأيتُ وجهها، وشفتيها. متى كانت آخر مرةٍ تبادلنا القبل؟ لن أسألها؟ عادت لورا إلى رسمها ووقفتُ في مكاني لوهلة. كأن ريحًا ثلجية تعصف عبر الردهة. رنَّ هاتفي. عليَّ المغادرة. ولسببٍ ما، شعرتُ أن المغادرة صعبة فيزيائيًّا. لكنني غادرتُ بأي حال وقلت: «إلى اللقاء إذن».

التفتَت لورا، وإن لم تدُر حول نفسها تمامًا. ومرت نظرتها عليَّ، ثم قالت بجفاف: «إلى اللقاء»، وبدت نفس نبرة الصوت التي قد يستخدمها أحدهم عند مغادرته متجرًا ما.



لاحقًا في ذاك اليوم، وبعد أن أغلق المتنزه أبوابه، رحتُ أجوب الردهة وأنظر إلى لوحات لورا. كنتُ وحيدًا، وبوسعي اشتمام الطلاء الجديد، وثمة ألمٌ غريب في أحشائي. في البداية، تصورتُ أنه لا بد بسبب رائحة الطلاء القوية، لكن سرعان ما أبصرتُ أن هذا ليس ما في الأمر. كانت الجدران جميلة، لكن بينما أنظر إليها يأخذ شيءٌ ما بالنمو داخلي، حيرة متذمرة جديدة تكبُر كل دقيقة وأشعرُ في آخر الأمر أنها قبضة باردة لأسنان جُرذ.

كان الوقتُ متأخرًا حد أن الحافلة التي أستقلها عادةً إلى محطة القطار قد أنهت عملها الليلة، فاضطررتُ إلى المشي أكثر من كيلومترٍ إلى المحطة التالية. لم يكُن ثمة حركة سير، فالوقت متأخر، وفي هذا الجزء من البلدة تغلق آخر المحلات أبوابها في العاشرة تمامًا، أي منذ ساعة. كان ممر الدراجات خاليًا تمامًا في كلا الاتجاهين، وثمة شريطٌ أرضيٌّ ضيق يفصل بين ممر الدراجات والشارع، وبما أن المشهد هاجعٌ ومهجور، شعرتُ أن بإمكاني

السير في وسط الشارع تمامًا. سيقصِّر ذلك رحلتي، ويمثل مخاطرة جسيمة من حيث السلامة الطُّرُقية، لذا من البدهي أنه ليس السلوك العقلاني. لكن كما حدث مرارًا مؤخرًا، راحت أفكار كهذه تطير في دماغي مثل طيور مندفعة مجهولة: تظهر من اللامكان، وتخفق بأجنحتها مرةً أو اثنتين، ثم تختفي.

بدأ ممر الدراجات ينحدر نزولًا، ورأيتُ موقع عملٍ أمامي، إذ ثمة تقاطع ومعبر سفلي تحت الطريق السريع قيد البناء. كان الكثير من التراب قد حُفر ونُقل إلى الجانب، وفي بعض الأماكن ثمة كومات من الطين، وفي غيرها أخاديد ملؤها الماء. كنتُ أمشي تحت مصباح الشارع، في أسطع نقطة من الضوء الفلوري، وقتما سمعت صوت محرك. لاحظتُه لأنني سمعته مختلفًا عن السيارات على الطريق السريع، إذ داهم الصوتُ أذنيَّ من اتجاه خاطئ بعض الشيء، فاستدرتُ ورأيتُ سيارة تسير بسرعة عالية.

كانت السيارة -وهذه المرة ليس فيها إلا رجل واحد- تسير على طول ممر الدراجات متجهة ناحيتي.

يمكن أن يحدث الكثير في بضع ثوانٍ. بالطبع، لا يمكنني حساب كل شيء بدقة، لكنني عرفتُ من فوري أنه إذا ما تحركت مركبة وزنها ألف كيلوجرام بسرعة مئة كيلومتر في الساعة، فستمثل على البشر نفس الخطورة التي تمثلها مطرقة على بعوضة. لا يوجد وقتٌ كافٍ للتحرك إلا في اتجاه واحد.

وثبتُ إلى يميني وغصتُ في ربوة مُعشبة على السد. كانت الربوة في الواقع جزءًا من موقع البناء، وقدرتُ ارتفاعها بأربعين سنتيمترًا تقريبًا، بزاوية تقترب من أربعين درجة. يجب أن يكون ذلك كافيًا.

تبعتني السيارة إلى السد واصطدمت عجلتها الأمامية بالربوة، ثم طفق المحرك يهدر، وارتفعت العجلة عن الأرض، فتسطحتُ انبطاحًا على التراب كأنني أحاول حفر طريقي إلى جوف الأرض. شعرتُ بالعجلة تكشطُ ظهري بينما تطيرُ السيارة من فوقي، وأحسستُ أن عمودي الفقري سينقصم نصفين، وأن جلد ظهري موشكٌ على التمزق. كان الصوت أشبه بمحرك نفاثٍ يطيرُ فوق رأسي تمامًا، وفي هذه اللحظة هذا كل ما يهم: أن تبقى السيارة فوق رأسي.

أدرتُ رأسي حالما عبرتني السيارة، ورأيتُ مباشرةً أن شيئًا ما قد أصابها، ذلك أن العلاقة بين العجلة والربوة مرتبطة ارتباطًا مباشرًا بسرعة السيارة وكتلتها، ولا حاجة إلى أي حسابات هنا كذلك، فها هي ذي النتيجة أمامي.

اهتزت السيارة، ثم انقلبَت على ظهرها وراحت تنزلق بسرعةٍ داقَّةٍ للأعناق. حتى إنها بدَت تتسارع، وأخذت تتزحلق كأنها مزلجة خيالية هائلة، قاطعةً كل الطريق إلى موقع البناء، ثم توقفَت هناك بقوة ودقة توحيان بأن ذلك ما كانت تُصوِّب ناحيته منذ البدء.

ولاءمت الحفرة السيارة ملاءمة مضبوطة تقريبًا، فقد هبط سقف العربة فيها مُرسلًا رشاش ماء وتوقفَت السيارة بغتةً كأنما ثبَّتها مغناطيس عملاق. نهضتُ -على أربعٍ في البداية، ثم على ركبتيَّ، وأخيرًا وقفت- وحاولتُ استيعاب ما أرى. كان محرك السيارة قد توقف، وانطفأت أضواؤها. وعاد كل شيء هادئًا كما كان منذ لحظة. في الحقيقة، كل شيء كما كان عليه منذ لحظة. باستثناء أنه، على بُعد خمسين مترًا أمامي، ثمة سيارة مركونة رأسًا على عقب، مثل خنفساء عملاقة قُلبت على ظهرها ودُفعت إلى بركة طين.

كان ظهري يستعِر، داخلًا وخارجًا، وقلبي يخفقُ مسعورًا حد أنني اضطررتُ إلى بلع ريقي وإجبار نفسي على التنفس، وللحظة، لم يسعني فعل شيء سوى الوقوف في مكاني حتى أدرك، حاشدًا قوة إرادتي، أنني ما أزال حيًّا وأن الخطر الراهن قد زال. محدقًا طيلة الوقت إلى السيارة، وعاجزًا عن معالجة ما أرى.

ثم عدوتُ ناحية السيارة. حدث الأمر غريزيًّا، فقد كانت ساقاي تؤلمانني، ومتيبستين إثر الأثر التلويِّ للأدرينالين، وكلما اقتربتُ من السيارة، ازداد إدراكي لمثالية ملاءمة الحفرة لامتداد المقصورة وعرضها، إذ ثمة أخدود بالكاد يبلغ عرضه خمسة وعشرين سنتيمترًا على كلا الجانبين، ويضيقُ في نهايتيه أكثر حتى. دنوتُ من حافة الحفرة ونظرتُ إلى الأسفل. في البداية، لم أتبيَّن تمامًا ما الذي أراه تحت الماء، لكنني فهمتُ بعد ذلك.

ذراعٌ في بذلة رياضية سوداء لها ثلاثة شرائط على كُمها تهزُ قبضتها ناحيتي. أيه كيه خلف المقود.

لم ينفتح باب السائق، بالطبع، فالحفرة عميقة وضيقة، وتنغمرُ سريعًا، والماء يتدفق من فوق حوافها الحادة. كان أيه كيه عالقًا في السيارة، تثبته المخدة الهوائية وحزام الأمان بحزم في مكانه، وما يزال يُبدي احتجاجاتٍ ضدي. أظن أنه يفعل ذلك منذ حاول دهسي أول مرة. ثم لكمَت قبضته الماء لكمة أخيرة. واختفت في أعماق الحفرة، أبعد مما يبلغه ضوء مصباح الشارع.

مشيتُ حول السيارة، ولم أرَ ركابًا آخرين، كان أيه كيه وحده في سيارة بي إم دبليو. ثم نظرتُ حولي: لا حركة سير، ولا حتى شخصًا واحدًا، علامة انزلاق طويلة وعريضة فقط، تبدأ على ممر الدراجات، ثم فوق الحصباء، وفي آخر العلامة تمامًا، مثل النقطة تحت إشارة التعجب، يرقد حطام السيارة المقلوبة.

آلمني ظهري ألمًا ممضًّا حد أنني صرتُ مضطرًّا إما إلى الاستلقاء وإما البدء بالتحرك. فكرتُ في ذلك للحظة، فلم أرَ ما قد يعود به استلقائي بجوار الحفرة من نفع لأيه كيه أو لي أو لأي شخص. فأخذتُ بضعة أنفاس عميقة، وبدأت المشي.

23

- لقد كسر الصبي ساقه.

كان وجه إيسا متألمًا، كأن الساق المكسورة ساقه، وقد ركضَ إليَّ واضطُّر إلى التقاط أنفاسه، وبدا أن ساقيه تعملان جيدًا.

كنتُ أحمل في يدي درجةً مكسورة من قلعة الوثب، فوضعتها على الأرض وتبعتُه عودًا إلى الردهة. لقد وصلتُ إلى العمل للتو -متأخرًا بعض الشيء، ثانيةً- بعد ليلة بالكاد مرَّها النوم، وفي بضع شذرات النوم التي تدبرتُ نيلها، ابتُلي عقلي بسيناريوهات كابوسية تطاردني فيها سيارات ألمانية باهظة وقبضات ضخمة غاضبة ترتفع من حفر البناء الملأى بالماء. آلمني ظهري في كل خطوة خطوتها، كأن أحدهم كان ينهال عليه بهراوة مرارًا وتكرارًا. لكن مع ذلك، قررت اليوم التركيز على العمل البدني، لسببين. أولًا: أملي أن يُركِّز هذا أفكاري، أما الثاني فأكثر عمليةً، وهو أن فنيَّ الصيانة خاصتنا ما يزال يغطي غياب فينلا في مكتب التذاكر ولا وقت لديه ليصلح الدرجة المكسورة.

سألت، مكافحًا لمواكبة إيسا: «ماذا حدث؟».

- أخشى أنه انهار في بروتوكولات المراقبة. لقد تسلق هذا الفدائي الصغير الجدار رفقة مدافع الترومبون وسقط عنه. ربما كان يحاول إقصاء العدو بقوة نارية متفوقة. إنها جهوزية فتى كشافةٍ جديرة بالإعجاب، لكن القوات الاحتياطية كانت في حالة فرار.

- هل اتصلتَ بسيارة إسعاف؟

- أجل، لكنني أخبرتهم أن لا داعي للعجلة.

كنتُ واثقًا أنني سمعتُ خطأً، فالردهة تغص بالصرخات والزبائن الراكضين الطافحين بقوة الصباحات الجديدة.

- ماذا؟

كرر إيسا كلامه، وسمعتُ الشيء نفسه ثانية.

- لمَ بحق الرب؟

- لقد نفذتُ ضمادًا ميدانيًّا سريعًا، وقدَّمت أم الضحية وأبوه مساعدة في الإسعاف الأولي أيضًا.

بعد المرآة الموزة، انعطفنا يسارًا ووصلنا إلى المنطقة حيث يمكن للأهل الانتظار والاسترخاء، ثم عثرنا على الحجرة الصحيحة، ورأيتُ الطفل مستلقيًا على إحدى الكنبات، وفي ضوء كل ما جرى، بدا الصبي في أتم السلامة، فيما عدا الندبة ودموعه البكَّاءة الفيَّاضة. أما عن الأهل...

جأر الأب بينما وثب واقفًا: «من المسؤول عن هذا؟».

كان قريبًا من عمري، وله شعر أسود قصير لامع مُسرَّح جانبًا في قسمة يمينيَّة متزمتة، ويرتدي كنزة زرقاء داكنة على صدرها شعار يُظهر جسمًا ظليلًا يلعب البولو. ولأم الطفل شعر طويل أشقر وكنزة بيضاء ذات ياقة مُدورة طويلة يُكمل الجسم الظليل عليها نفس ضربة البولو غير المنتهية. كان وجهها أحمر، وعيناها كذلك، وبدَت هائجة.

سألتُ بحُسن نية: «مسؤول عن ماذا؟».

قال الأب: «عن ساق يوليوس»، وأشار إلى ساق الصبي.

لأعطي ذا الحق حقه: لقد أدى إيسا عملًا جيدًا، فالضمادات مربوطة بإجادة حول الساق، وتحتها قسم مستقيم من إحدى بندقيات الترومبون يلعب دور جبيرة.

فبدأتُ القول: «إن كان يوليوس قاصرًا، ويبدو أنه كذلك، إذن أحسبُ أن والديه هما المسؤولان عنه وعن ساقه...».

هز الأب رأسه كأنما قد سمع أكثر التصريحات إبهامًا على الإطلاق.

- أريد رؤية المدير.

- أنا المدير.
- وأريد حضور الشرطة أيضًا.

فقال إيسا، قبل أن أحظى بفرصة للرد: «لقد غادرت الشرطة للتو».

فاستدرت، وسألتُ أنا والأب معًا: «ماذا؟».

قال إيسا: «المحقق الذي كان هنا يكلمك قبلًا...»، ومن وضعية رأسه ونبرة صوته، عرفتُ أنه يوجه هذه الكلمات إليَّ. أدركتُ أيضًا أن عليَّ إسكاته فورًا، ذلك أنني فكرتُ في أوسمالا من فوري. لقد كان هنا هذا الصباح. لا بد أنه يعرف بالفعل بأمر حادثة الغرق على ممر الدراجات.

قلت: «شكرًا لك يا إيسا»، وعدتُ بانتباهي إلى والدَي يوليوس، «أهم ما في الأمر أن يوليوس بصحة وعافية».

فزعقت أمه: «لكنه ليس بصحة وعافية، أليس كذلك؟».

- إنه كسر وحسب.
- كيف يمكنك قول شيء كهذا؟

فقلت، بأمانة ثانيةً: «إنها حقيقة. ليس في خطر مميت».

هدَر الأب: «خطر مميت؟ أتعني أنه كان ممكنًا ليوليوس أن يموت؟».

فقلت، في إشارة إلى تجاربي الحديثة واستنادًا إلى مبادئ الرياضيات الأكتوارية: «يوليوس، وأنت، وأنا. يمكن لأي شخص أن يموت في أي مكان. والأمر مرجح أكثر في بعض الظروف من سواها، لكن تظل الحقيقة أن ذلك ممكن الحدوث لأي شخص في أي مكان وزمان».

حالما أنهيتُ جملتي، حدثت ثلاثة أمور معًا، فرغم حقيقة معرفتي أنني مُحق تمامًا وحتمًا وواقعًا، شعرتُ أنني قلتُ شيئًا لم يجدر بي قوله، وبدا أن الأب يرتعش، وازداد خدا الأم حمرةً. ثم أخذ إيسا يعدل ضمادات يوليوس. قلتُ في نفسي: *أين سيارة الإسعاف؟* وللحظة، لم ينبس أحد ببنت شفة، ثم انفجر كل شيء دفعة واحدة، فصاح الأب: «يريد الخنزيرُ أن يموت يوليوس هنا في هذا المتنزه! سأقاضي مقعدتك اللعينة وأصِل بمتنزهك الحقير إلى المحكمة. إنني لمتصلٌ بمحامي الساعة!».

أخرج الأب هاتفه لكنه لم يتصل بأحد، وركعَت الأم بجوار يوليوس، وأنشأت تُمسِّد شعره.

- إن عانى صدمةً من أي نوع...

قال إيسا: «لقد تلقى ضربة في ساقه وحسب يا سيدتي».

فانفجرت الأم بالبكاء. وزمجر الأب: «ستسمع خبرًا منا، أيها المحتال».

الآن بدأ الغضب ينتابني أنا، فالادعاء مجحف وغير مستند إلى حقائق كليًّا.

- لستُ محتالًا.

فصرخ الأب: «أوه حقًّا؟»، وأشار ناحية اللافتة عند المدخل، «أهذا ما تدعوه مرحًا وألعابًا لكل العائلة اللعينة؟».

- إننا نُعلم الزبائن بالقواعد أيضًا، ونحظر تحديدًا تسلق جدران الألعاب.

فقالت الأم بصوتٍ غشَّته الدموع: «إن يوليوس روحٌ حرة، ألست كذلك يا عزيزي؟».

وقال الأب: «لا يحق لك أن تُملي عليَّ أو على ابني ما يمكننا أو لا يمكننا فعله»، وقد صار صدره ملامسًا لصدري تقريبًا.

- يبدو أن عليَّ ذلك، فالقواعد تسري على الجميع على حد سواء، وهذا هو المبدأ الأساسي للقواعد. وإلا فستعمُّنا الفوضوية، وهذا خيار أسوأ بصورة جلية.

كان الأب موشكًا على فتح فمه ورفع يده اليمنى وقتما رأيتُ مجموعة رجال يرتدون الأبيض خلفه. انتقل اهتمامنا إلى الرجال لابسي الأبيض، الذين أنشؤوا يعملون بسرعة ودقة، ذلك أن الموقف لا ينطوي على شيء قد يزيد نبضهم ولو نبضة إضافية حتى.

بعد برهة، كان يوليوس قد حُمل إلى سيارة الإسعاف، وبدا هادئًا تمامًا وسعيدًا. جثم والداه على جانبيه، ومن نبرتي صوتيهما افترضتُ أنهما يمنحان المسعفين تعليمات وربما يتهمانهم بالإهمال الوظيفي بالفعل.



عاد إيسا إلى غرفة تحكُّمه، وقررتُ العدول عن إصلاح الدرجة في قلعة الوثب حاليًّا، فقد أزعجتني زيارة أوسمالا الصباحية، لكن لا أعرف ما الذي يمكنني فعله حيالها. ثم فكرتُ في أن أقل ما يمكنني فعله هو التأكد من أنه قد غادر المتنزه. أما زالت سيارته مركونة في الخارج؟ مشيتُ إلى البهو، عابرًا كريستيان الذي كان يتكلم في هاتفه، وخرجت. خطوت بضع خطوات تحت السماء الزرقاء الرائقة وسمحتُ لعينيَّ بجَوب المرأب من جانب لآخر. لا أظنني رأيتُ سيارة أوسمالا السيات شديدة الخضرة والجديدة نسبيًّا في أي مكان، وسرعان ما شقت برودة أواخر الخريف طريقها تحت قميصي، ولم توفر ربطة العنق فوق القميص الكثير من الدفء أيضًا، ولفحَت الريح ندب العجلة على ظهري. فنظرتُ حولي مرة أخيرة، ثم عدتُ إلى الداخل.



أنهى كريستيان مكالمته بينما أدنو من مكتب التذاكر، وابتسَم، وكانت ياقة قميص بزَّته الأزرق كزوج من الصفائح التكتونية، ضخمة وصلبة ومهيبة، وشعره المقصوص مُسنبَل باستخدام الجِل.

وقال: «يوم خلَّاب، أليس كذلك؟».

رددتُ باقتضاب: «أهلًا»، ذلك أنني لا أحمل في جعبتي أي صفات تفضيل لوصف هذا اليوم، «أرى أن فينلا لم تأت ثانيةً».

لستُ أعرف لمَ أسأل حتى. ربما الأمر متعلق بحل لغزٍ أكثر منه بسؤال رب عملٍ مهتم. ولاحظتُ أن كريستيان لم يعُد مُحرجًا من السؤال.

- إن مفتاح نجاح موظف المبيعات هو التفاني الحقيقي. لستَ تبيع مجرد مخفوق حليبٍ أو كوكتيل هوفر أو أيًّا يكن، أنت تبيع نفسك. النجاح حالة ذهنية.

ابتسم كريستيان، ثانيةً، وربما لم يكُف عن الابتسام قط. استغرقتُ دقيقة قبل أن أدرك ما جرى بالضبط، وكانت فكرتي التالية هي أنني خلقتُ وحشًا. لقد أخذ كريستيان كلامي عليَّ، وحضر تلك الدورات بالفعل: طريق الصيرورة مديرًا عامًا ينشقُّ أخيرًا.

ثم تابع قبل أن تسنح لي الفرصة بالكلام: «وكنتُ أفكر، لمَ لا نوسِّع هذه القروض بكفاح أعتى؟ لو كنتُ المسؤول، لكان الأمر أ ب ج د: أتمَّ البيع بجدٍّ دائمًا. علينا توسيعها، أليس كذلك؟».

وأشار لي ناحيةِ مِنصَبٍ صغير مُسندٍ إلى نهاية طاولة البيع. كان المنصب يدعو الزبائن إلى نفع أنفسهم بقرض يوم دفعٍ قصير الأجل بمعدل فائدة معقول. فأخذتُ المنصب ووضعته خلف الطاولة، بعيدًا عن مرمى الأنظار.

وقلتُ: «لن نوسِّع أي شيء الآن».

لاحظتُ أن نغمة صوتي أقرب إلى الفجاجة، وعندما استخدمتُ مفردة كريستيان، كادت تصير سخرية. ولا يكاد ذلك يكون مفاجئًا، فقد حاول شخصٌ ما دهسي بسيارة، حرفيًّا ومجازيًّا.

بدأت القول: «كريستيان»، وقد صارت نبرة صوتي أكثر استرضائية الآن، بعد أن أدركتُ أنه لم يبقَ أمامي إلا خيار واحد: عليَّ إيجاد بيرتيلا الداخلي خاصتي وإطلاقه، وعليَّ فعل ذلك الآن، «إن الرحلة إلى النجاح الداخلي العميق متوائمة مع تطوير التآزُر الإيجابي للفريق، ومن تلك النقطة ما هي إلا قفزة وجيزة إلى النجاح الأمثل في ثالوث العقل والجسد والروح. غالبًا ما يكون الحل عمليةً من التبدُّل العاطفي، الذي يرتبط بدوره تكافليًّا بتواتر التفاعل الذي نوظفه لنجلب أفضل الديناميات الافتراضية المتبادلة. أخمِّن أنه ما يزال ثمة مساحة للتطوير وعامل تأقلم شمولي في رحلتك ناحية وعي شخصي مكتمل لذاتك التجارية. ومن الناحية الأخرى، فإن هذا يمنحك فرصة لاستكشاف فرص احترافية أخرى ضمن مجال إدارة الموارد، فتعلُّم ما يخص أهمية الذات ليس محض منحنى تعليمي خطِّي سيكولوجي أو عاطفي تراكمي، كما تعلم».

نظر واحدنا في عينَي الآخر، ولم أكُن لأرمش أولًا، ثم أخفض كريستيان نظره في آخر الأمر وأخذ بالتململ. انفتح الباب الأمامي بعد ذلك، وبدأ الزبائن يفيضون إلى متنزه المغامرات، وبدأ كريسيتان يخدمهم.

24

في طريق العودة إلى مكتبي، أخذتُ أفكر في لقائي بكريستيان وما يعنيه حقيقةً، وأعرف ذلك حق المعرفة.

كنت أماطل كل شيء، أطيل كل شيء. أعرف أن بوسعنا التكلم عن اللانهاية في المصطلحات الرياضية، لكن في هذا العالم وهذا الواقع، لكل شيء نقطة لا يتجاوزها. لكل شيء نقطة انهيار. وبوسعي الشعور باقترابي من تلك النقطة. الشعور محيرٌ أشد ما يكون لأنني عاجز عن معرفة ما يجري بالضبط. كل شيء من القروض حتى أذن الأرنب متوازن خير توازن، ومشدود كوتر كمان، ولا يمكنني في الوقت الراهن احتمال أن يبدأ أي شيء بالتدهور.

توقفتُ عندما وصلتُ إلى بابي. لم أعرف في البداية السبب، فكل شيء كما تركته البارحة بالضبط بعد أن رتبتُ الغرفة ونظمت الأشياء التي تركها يوهاني، ويمكنني رؤية أن كل كومة أوراق موضوعة حيث ينبغي أن تكون بالضبط. لكن مع ذلك، فقد حُرك شيء ما في هذه الغرفة، ربما رُفع ووضع ثانيةً ببساطة، لكن التوازن قد عُكِّر. لطالما لاحظتُ الأشياء الشبيهة بهذا. ففي عملية حسابية تمتد على طول ورقة، تختلف النتيجة اختلافًا كليًّا إن غيرت رقمًا واحدًا أو رمزًا حتى. لكن في الدقيقة أو الدقيقة ونصف الدقيقة التالية لم أتبيَّن ما الذي تغير، لذا مشيتُ إلى خلف طاولتي وجلست.

شعرتُ بعد لحظة أنني قد لا أقف ثانيةً أبدًا. لم أعرف ما إن كان السبب الإجهاد أم لا. ربما بدأ وزن المزلجة المجازية التي أجرُّها ببساطة شديدة يفوق المُحتمل. ربما توليفة الديون، ومعاناة تجاوزها، والجثة في الثلاجة،

والمحاولات المتعددة لقتلي، والجثة الأخرى المحاصرة في بِركة من مياه المطر، وريبي المتعاظم إزاء كل شيء تقريبًا، أكثر مما يمكنني مجابهته. ومع ذلك، ذكرتُ نفسي أنني أكتواريٌّ، وأنني معتاد على المنطق وإمكانية التنبؤ، وبكلمة واحدة: على العقل. لكن سرعان ما تبعت الفكرة أخرى، وهي أنني أكتواريٌّ بجرح عجلة على ظهره وحكم إعدام يتوعَّده. وأعرف أن الرجل العظاءة هو من أرسل أيه كيه ليجدني.

ورغم أن أيه كيه حاليًّا يزخم محرك البي إم دبليو خاصته على طول ممر الدراجات في صعيد أعلى من الوجود، ما يزال على أوامر الرجل العظاءة أن تُنفذ. أعرف أنه في مكان قريب، وعلى الأرجح يراقبني الآن. وفي هذه اللحظة على الأقل، لا يمكنني التفكير فيما ينبغي لي فعله حياله. تذكرتُ كلمات الرجل الضخم جيدًا: سينجو الرجل الأقوى. ولستُ أشعرُ أنني بالغ القوة الآن.

لكن ثمة شيء واحد يمنحني القوة، والأمل. لورا. ربما كنتُ أسيء فهمها في بضعة الأيام الأخيرة، لعلها لا تريد إلا التركيز على شغلها لأنها، مثلي، تريد إنجاز لوحاتها بأفضل صورة ممكنة، تريد منحها كل ما تملكه. إن كنتُ أحاول حل معادلة احتمال شرطية معقدة على نحو خاص، فلا وقت لدي للقُبلات الفرنسية التي تدوم دقيقة أيضًا. أما بعد ذلك، فلا مشكلة البتة، ما دام الشخص الآخر لائقًا وكنا قد بلغنا شكلًا ما من الاتفاق على المسألة.

ما يزال بإمكاني الإحساس بليلتنا المشتركة على جلدي. عندما تزحف الذكرى عليَّ، تصير الصور في ذهني محسوسة على نحوٍ شادهٍ، ولا يمكنني فهم منطق عملياتي الفكرية في أنني كلما قلَّت رؤيتي للورا، زاد تفكيري بها. هذا ليس منطقيًّا. وفي الوقت نفسه، أسمعها تقول عني كل تلك الأشياء التي لم يقلها أحد قبلًا. ظاهرةُ تذكُّر محادثاتنا حرفيًّا ليست جديدة عليَّ، لكنني الآن لا أجد نفسي أنصت إليها وأعيد تشغيلها للتأكد من حقائق معينة فقط، بل لأسمع كل ما فيها إلى جانب الكلمات: اللطف، والرقة، وشيء ما يخبرني أنها تراني كما أنا تمامًا ويعجبها ما تراه.

لعل لورا مشغولة وحسب حقًّا، فلديها بضعة جدران وابنة لتهتم بها. ومع ذلك، يفيض ذهني صورًا لنا ونحن نستيقظ في سرير إيكيا نفسه، ونشتري شقة مشتركة بثمن معقول للمتر المربع ونسبة منطقية للسعر إلى الجودة

والموقع، ونسافر في عطلة تقررت في آخر لحظة إلى مكان ما حيث تستعر الشمس على صخور جرداء ويمتد بحرٌ بلون أزرق الكوبالت، ونمشي يدًا بيد عبر الصباح الخريفي المنعش من محطة الحافلات إلى متنزه المغامرات.

تذكرتُ في الوقت نفسه أحداث الصباح. فقد أقبل شوبنهاور إلى المطبخ وبلبلني بطريقة لم أتوقعها. تمطَّى كما يتمطَّى منذ سنوات: مدَّ ساقيه أقصى ما يمكنه، وقوَّس ظهره، ثم أهبط نفسه إلى تمطٍّ أمامي، واستقام بعدها وهز ساقيه. ثم أدركتُ أنه، ومثل سميِّه، ظل على حاله في حين كنتُ أنا من تغيَّر. لم يكُن عليَّ إلا تذكر الأحداث الأخيرة ليبدو لي بوضوح تام أنني كنتُ أتصرف ما لم أتصرفه قبلًا قط، وأشعر بما لم أشعر به قبلًا قط. لقد تغيرت حياتي، وسرعان ما أدركتُ أنها ربما تغيرت للأبد. بينما ظل شوبنهاور في هذه الأثناء يسير على خطِّه القديم نفسه. لم أُثر المسألة، بل داعبته وقلت إنني أفهمه. وتساءلت في نفس الوقت عن إمكانية كون روتيناتنا نفسها ما يكشف مقدار تغيُّر كل شيء.

عدَّلتُ جلستي خلف كرسيَّ، ونظرتُ إلى الساعة واتخذتُ قراري. سأكلم لورا اليوم. قد تكون هذه المشاعر متبادلة رغم كل شيء. وفي خضم الريبة والحيرة، من الجيد أن يحظى المرء بشيء مشرق وواضح يركز عليه، مثل عملية حسابية مضبوطة حُققت عبر عمل مُثابر مُكثَّف.

فكرتُ في سفينة من دون مرساة، ثم بواحدة لها مرساة، وسألت نفسي: «عندما تهب العاصفة، أيهما أفضل؟».

شغلتُ حاسوبي واعتزمت معاينة الغرفة بعينين صافيتين لاحقًا، وقتم لاحظت حركة في الرواق وقف بعدها سامبا على باب مكتبي.

- مرحبًا.

قلتُ: «أهلًا»، وأمكنني سماع مفاجأتي لرؤياه في صوتي.

لم يحاول سامبا بدء محادثة معي قط، وكنتُ افترضتُ أن ذلك لا بد لأنه -لكونه مُعلِّم حضانة وذا شخصية شبابية- يستمتع بنمطٍ من الاستقلال يتجاوز معظم موظفي المتنزه. نظر من فوق كتفه سريعًا، وومض قرطه الفضي، ثم عاد بعينيه إليَّ قائلًا: «ألديك خمس؟».

أومأتُ برأسي وقلت: «بلى»، بعد أن فهمت ما يعنيه، «خمس دقائق. اقعد».

قعد سامبا وبدأ بتنظيم الأساور في معصميه، وراحت الوشوم الملونة على ساعديه العاريَين تتراقص هنا وهناك. تبينتُ ميكي ماوس، وملاكًا من صنفٍ ما، وشيئًا يشبه خوذة فايكنج، وحملتْ بطاقة اسمه خمسة قلوب، واحد لكل حرف منه. كانت هذه أول مرة يطأ سامبا فيها مكتبي، وفي الحقيقة، إنها أول مرة نكون فيها وحدنا. انتظرتُه حتى رتَّب أساوره ومجوهراته ونفسه ليخبرني سببَ مجيئه، لكنه لم يقل شيئًا، بل قعد ينظر إليَّ وحسب.

ثم سألني في آخر الأمر: «أكل شيء على ما يرام؟».

فأجبت: «ما قصدُك؟» وقد حيَّرني سؤاله بصدق.

قال: «تبدو متوترًا نوعًا ما»، ورفع كتفيه بعض الشيء، «لكنني أفهم ذلك، فالموت يُظهر مدى هشاشتنا».

سألته: «الموت؟»، وعجبتُ كيف يعرف سامبا بخصوص حادث السيارة في ممر دراجات موقع البناء.

- أخيك.

قلت: «بلى صحيح»، وأملتُ ألا يكون وقع صوتي كشخص يرى وفاة أخيه حدثًا بسيطًا، «بالتأكيد. لقد كان وقتًا... مفاجئًا، وكما تقول، هشًّا».

قال: «هذا سبب آخر لرغبتي بالانتظار»، ومرة ثانية، لم يكمل فكرته.

- وماذا تنتظر؟

- أردتُ مراعاة حقيقة أنك قد شهدت خسارة هائلة وأن التأقلم مع عمل جديد صعب بلا شك. ولستُ من صنف الشبَّان الذين يقتحمون المواقف الجديدة مثل ثيران في دكان خزف أو ممن يريدون أن يكونوا في مقدمات كل الطوابير. إنني مؤمن بفضائل القوة الناعمة.

ثم وقفة ثانية. منحني هذا برهةً لأفكر فيما أعرفه عن قوة سامبا الناعمة، والإجابة هي قليل جدًّا. أعرف أنني ارتحتُ لاعتنائه بأمر حضانة الأطفال، وركن المغامرة ونشاطات أخرى من دون أن يشعر أن عليه إخباري بذلك. بإدراك الأمر متأخرًا، أخال أنني افترضتُ تلقائيًا أنه الموظف الوحيد في المتنزه الذي ينجز حصريًّا العمل الذي يتلقى راتبًا لقاءه. لا أعرف كيف

ستكون إدارة شركة فيها آلاف الموظفين وكلهم يرغب بأداء وظيفة غير التي يتقاضى راتبها، لكنني أعرف أن التلاعب بشركة بحفنة من الموظفين فقط أمر شبيه بحل أكثر الأحجيات النظرية الرياضية تعقيدًا.

لم أنتوِ هذه المرة مساعدته في إنهاء وقفته، وربما أدرك سامبا هذا.

- لقد لاحظتُ أن كُثرًا من طاقم المتنزه مُنِحوا فرصًا جديدة في الأيام الأخيرة، وهذا أمر حسن، فتعلم أشياء جديدة يمنحنا ثقة بالنفس، وزيادة الثقة بالنفس تشجع تجربة أشياء جديدة، ما يقود بدوره إلى تعلم مهارات جديدة. إنها دورة إيجابية. تراها في الأطفال، وفي البالغين أيضًا. إيسا بدأ بالحديث عن أشياء غير فيلق البحرية، وكريستيان يحضر دروس إدارة، ولورا ترسم، ويوهانا تحاول وصفات جديدة. كنتُ أتابع هذا التطور. هذه القيادة العظيمة. لقد طرحتَ نهجًا جديدًا تمامًا، وهوَّيتَ المكان بحق. وجد الجميع وجوهًا جديدة لعملهم.

سكتَ قليلًا، ثم قال: «الجميع تقريبًا».

هوَّيتَ *المكان*. حاولتُ صرف الفكرة. لم أكُن واعيًا بصورة خاصة لدورتَي إيسا ويوهانا الإيجابيتين، لكنني بدأتُ أفهم تدريجيًّا ما يقوله سامبا. إنه يريد شيئًا ما، وليس ذلك إلا طبيعيًّا، إذ يبدو أن الجميع يريدون شيئًا ما فوق ما يملكونه بالفعل، فسألته: «ماذا يجول في خاطرك؟».

بدا سامبا كأنه يزِن الأمور ذهنيًّا، وأخذت أصابع يمناه تعابث أساور معصمه الأيسر.

- يوم أطفال. هنا في المتنزه.

نظرتُ إليه: «يوم أطفال؟».

- بلى. بأحرف كبيرة. ربما أسبوع أطفال حتى. لكن يمكننا البدء بيوم.

- أليست هذه الغاية الكلية للمتنزه؟ أن اليوم الذي يُقضى هنا هو يوم أطفال بالمعنى الحرفي للكلمة؟

هز سامبا رأسه: «انغماس. قلب الأدوار».

أقام سامبا وقفة أخرى باتت مألوفة. فقلت: «لم أفهم»، وصدقًا لم أفهم.

- سيتطلب هذا شجاعة.

- جيد جدًّا.

- أنت على الأرجح لا تفكر في هذي الأمور، إنما تجلس هناك في كرسي المدير طيلة النهار في سلام وسكينة، بعيدًا عن كل شيء.

لم أقل شيئًا، فأومأ سامبا: «حسنًا. ليوم واحد، وأفضل أن يكون أسبوعًا، يصير الأطفال بالغين، والبالغين أطفالًا. إنها عملية قلب أدوار. والدخول في دور شخصٍ آخر، هو الانغماس. ليوم واحد، وأفضل أن يكون أسبوعًا، يتسنى للأطفال سَن القواعد، وخبز الكعك، والمراقبة، وحتى طلاء الجدران إن أرادوا، ويمكن للبالغين اللعب».

لم أقل شيئًا.

- تخيل طفلًا يجلس هنا في كرسيك، طفلًا يكون الرئيس ليوم، وأفضل أن يكون أسبوعًا.

عملتُ بنصيحة سامبا وحاولت تخيُّل السيناريو. تصورتُ طفلًا يعقد اجتماعًا مع الرجل العظاءة. طفلًا ينبش في الثلاجة ويكتشف البالغ المُجمَّد. طفلًا مدينًا للرجل الضخم.

- أرأيت؟ تزداد الفكرة جموحًا كلما فكرت فيها!

- صحيح.

بدَّل سامبا مجلسه في الكرسي، واستقام أكثر، وأنشأت الأصابع العابثة بالأساور تتحرك بسرعة أشد.

- بحسب ما أرى، يمكننا الشروع في هذا بسرعة فائقة. لقد صممتُ بالفعل بعض المواد الأساسية لكلا الأطفال والبالغين. يرى الكثير من البالغين الدخول في عالم أطفالهم شاقًّا على نحو مفاجئ، فقد فقدوا القدرة على اللعب. بالطبع، يرجع هذا جزئيًّا لأنهم خائفون من...

قلت: «لا»، مدركًا أنني أقاطعه وهو في حالة تدفق كامل.

- لا، ماذا؟

كررتُ: «لا»، وتوقفت. لا يمكنني إخباره بأي شيء مما يجري حقًّا في المتنزه أو خلف الأبواب المغلقة.

ثم قلتُ بأكثر نبرة استرضائية تدبرتُ حشدها: «لا يوم أطفال، على الأقل ليس الآن».

حدث تغيُّر مباشر في لغة جسد سامبا، فالاصطدام بجدار بعد كل تلك الحماسة يؤلم حقًّا، أعرف ذلك. بدأ وجهه يحمر، وبرق بارق انزعاج في عينيه.

- لمَ لا؟

- لأنه... غير ممكن حاليًّا فقط.

نظر إليَّ كأنني أهنته شخصيًّا، ويبدو أنني فعلت.

- لا يفترض بالرسم على الجدران أن يكون ممكنًا كذلك.

- ما علاقة ذلك بالأمر؟

- إنك خائف من اللعب، لكنك غير خائف من المَرَح مع المجرمين.

- عفوًا؟

- كالكثير من البالغين، إنك خائف من اللعب...

قلتُ بسرعة: «أجل فهمت هذا الجزء. لكن ما قصدك بالمجرمين؟ هل ظهر أولئك الأشخاص هنا في المتنزه؟ هل اقتربوا منك؟».

خزر سامبا عينيه، كأنما ليشحذ صورتي التي تبدأ باتخاذ شكلها. وسأل: «أي رجال؟ إنني أتكلم عن لورا».

بطبيعة الحال، لا أعرف ما شعور أن ينهار برج سكني عليَّ، لكن لبرهة وجيزة، راودتني إلماعة عن المشاعر التي لا بد تغمر الأرض قبل أن يرتطم كل شيء بنصف ثانية. لم أقل شيئًا، بل ركزتُ بدلًا من ذلك على البقاء جالسًا في كرسيَّ والمحافظة على تعابيري وجلستي.

- بالفعل.

كان ذلك كل ما أمكنني استقطابه من قول.

تابع سامبا، وبدَّل الإسورة المتوترة، وطبعًا، الإصبع المتوترة: «بالطبع، لا أعني أن السجن نفسه يحمل أي شخص على الشك بطريقةٍ ما، فأنا أؤمن حقًّا بإمكانية تغيُّر الناس. الكل يستحق فرصة ثانية. وهذا سبب مجيئي للتكلم عن يوم الأطفال، أو أفضل أن يكون أسبوعًا، ما سيفتح...».

قلت مقاطعًا إياه: «فلنعد إلى زميلتك».

أعرف أنني في وضع حرج. كنتُ متهيجًا، لكنني حاولت قصارى طاقتي لأحرص ألا يظهر ذلك. من الواضح أن سامبا يفترض أنني أعرف شيئًا لم يكُن ليخطر في بالي لو عشتُ ألفًا. ثم تابعتُ: «كل ما يجري هنا سِري. أؤكد لك ذلك. لا أحمل في أعماق قلبي إلا ما هو فيه خير للمتنزه».

هذه ليست الحقيقة الكاملة، لكن ما تقوله العبارة صحيح. نظر سامبا إليَّ، وكانت إعادة لمباراة التحديق التي خضتها وكريستيان في وقت سابق. وليس أمامي من خيارات الآن أكثر مما كان آنذاك: عليَّ أن أنتصر. سكت سامبا سكتته الأطول حتى الآن، وقال أخيرًا: «لنتكلم بأمانة، ثمة حقيقة أنها عندما وظفها يوهاني، كسرت الصف نوعًا ما. أعرف هذا لأنني اقترحتُ شخصًا ما للمنصب، وهو زميل دراسة قديم عنده أفكار إبداعية عظيمة حقًّا فيما يخص تدريس الفن للأطفال والبالغين، وكان قد تخرج للتو بشهادة دكتوراه في علوم التربية. لكن آنذاك، ومن دون سابق إنذار البتة، عيَّن يوهاني لورا، وهي خريجة فنون جميلة تبيَّن أنها كانت قد خرجت من السجن للتو. لم تكن تهمتها القتل أو أي شيء من هذا القبيل، لكنها ارتكبت أخطاء مالية خطرة جدًّا، أو أيًّا يكن المصطلح الصحيح: التخلف عن الديون، الاختلاس، الاحتيال، التهرب الضريبي، لستُ واثقًا بكل شيء، لكنه شيء من هذا القبيل. ولأكون صريحًا بالكامل، لا أعرف كيف يؤهل هذا أيهم للعمل في متنزه مغامرات أو كيف كان يوهاني قادرًا على تعليل قراره. بالطبع، تتمتع لورا بجانب فني بحق يزدهر الآن ألمع ازدهار، وهو مثال إيجابي جيد لكلنا. وهذا سبب مجيئي لمحادثتك بخصوص يوم الأطفال، أو أفضل أن يكون أسبوعًا، لأن كل طاقم العمل إلاي يُسمح لهم بتحقيق آمالهم وأحلامهم...».

سألتُ: «هل ناقشت هذا مع لورا؟»، مقاطعًا إياه ثانية. لا يمكنني تمالك نفسي، فهو يتكلم كما يركض عدَّاء ماراثون، كيلومترًا تلو الكيلومتر، وساعة تلو الساعة، بسرعة ثابتة، وحاليًّا لا صبر عندي لهذا.

- يوم الأطفال؟

- السجن.

بدا سامبا متفاجئًا، وبدت المفاجأة صادقة.

- لا أظن أنني رأيتُ قط نظرة ببرود ما رأيته، أو سمعتُ صوتًا ببرود ما سمعته، وقتما مضى رجل يزور المتنزه مع أولاده إلى لورا وقال شيئًا يشبه: هيه، من الجبد رؤيتك وقد خرجتِ. كنتُ وبضعة زملاء واقفين بالقرب وقتما حدث الأمر، وما قالته للرجل... واهٍ، أفضل ألا أكرره. كان مقشعرًا للأبدان. وأفترض أننا في ذلك اليوم تعلمنا أنه من الأفضل لبعض مواضيع المحادثة أن تُترك وشأنها.

سألته، محاولًا أن أظل مهتمًّا ولكن محايدًا، رغم أنني في داخلي أرغب بهزِّه وإجباره على إخباري بكل شيء بسرعة وفي الحال: «هذا الرجل... كيف كان شكله؟».

- رجلًا... عاديًّا نوعًا ما. حسنًا، ربما ليس عاديًّا إلى ذلك الحد. أرجح أنه، على الأقل، لم يكن ليرى نفسه عاديًّا. كان متعجرفًا بعض الشيء، مزهوًّا بنفسه قليلًا.

وبعد هذا، توقف سامبا ثانيةً، واجترحتُ أنني لا يمكنني طرح المزيد من الأسئلة. أظن أنني تعرفتُ كيمو، لكنني لا أعرف أي أهمية قد يحملها ذلك. وأيضًا، كنت محتاجًا إلى إخراج سامبا من مكتبي، إذ شعرتُ بثقل الجدران، وبالتكسُّر المتسارع للأرض والسقف، وبقوتي تنساب مني. بتُّ أعرف سبب إجهادي ولمَ يبدو أنه يتنامى، ويغمرني، مندفعًا من الظلمة التي اكتنفتني طوال الوقت، وإن كان يعمبني شعاع الشمس العرضي في بعض الأحيان.

- فيما يخص يوم الأطفال، أعدك بأنني سأمنح الأمر تفكيرًا إيجابيًّا للغاية.

- ماذا يعني هذا؟

- يعني أنني سأحاول إيجاد طريقة تمكننا من إحداث ذلك.

وعنيتُ ذلك. إن تمكنتُ من إيجاد حل لمشكلات المتنزه، فسأكون أكثر من سعيد لمنح كرسي المدير العام مؤقتًا لابن ست سنوات.

ولأول مرة في الاجتماع، ابتسم سامبا.

- كما قلت، أنت نسيمُ هواء منعش في هذا المتنزه. ولك لمسة الملك ميداس، كل ما تمسُّه يزهر.

25

هشمت الصرخات طبلتَي أذنيَّ، وشقَّت أذنيَّ، إذ عبرتني مجموعة أطفال من كلا الجانبين. بدَت إضاءة الردهة ساطعةً أكثر من أي وقت مضى. كل شيء صارخ، ومتوهج، وبارز بإفراط، وبالتالي قبيح. كانت زعقات الأطفال مثل آلاف من المسامير تكشط سبورة، ورائحة المقانق المطهوة في الفرن المنسَّمة من المقهى تُذكِّر بمتنزه كلاب بعد ذوبان الثلج. أما التلال الحديدية للدب الأكبر فتتقدُ صقيعًا وعربات قطار الكومودو، التي تبدو في العادة كأنها تتحرك بسرعة حلزون، صارت أشبه بخدمة نقل سريع محترمة. هوشة المتنزه العامة، والصوت المتواصل، والاتساق المتفاوت للأصوات الصاخبة، كلها اتخذ شكلًا فيزيائيًّا، مثل عصفات تهب من كل الاتجاهات، ثقل يمكنني إحساسه في كل جزء من جسدي.

اضطررتُ في آخر الأمر إلى التوقف، وأدركتُ أن هذا جيد. كانت لورا تحادث شخصًا ما، رجلًا في نحو عمري، يومئ باستمتاع عظيم ويشير إلى جدران لورا. من جمبع الجوانب، بدا كشخص لا يسعه تصديق عينيه، وأفهمه، فأنا كذلك أعاني مشقة في تصديق ما أراه. لستُ أدري ما إن كان هذا رقمًا قياسيًّا عالميًّا في الرسم، لكن شيئًا بهذه الجسامة قد حدث. لقد تمَّت الجدران، وإنها لمذهلة.

تراجعتُ شيئًا ما وبقيت واقفًا في المنطقة الأشبه بالجسر بين مدافع الترومبون والكعكة الحلنية. كان عدد من الأهالي يتكئون على الدرابزين أيضًا، ويبدو عليهم أن يومًا في متنزه المغامرات قد لا يكون أكثر ما حدث لهم إثارةً قبلًا، ولورا والرجل يتكلمان بإسهاب.

أخذ الرجل يبدِّل بين الإشارة بعصبية إلى مختلِف الجدران، وطي ذراعيه فوق صدره، والإيماء برأسه ردًّا على أيٍّ كان ما تقوله لورا. وأخيرًا تصافحا، ودار الرجل حول نفسه بضع مرات، ثم وجدت عيناه ما تبحثان عنه وانطلق في ذاك الاتجاه. من المرجح جدًّا أن وجهة نظرته هي واحد على الأقل من الأطفال الزاعقين زعيقًا جهنميًّا.

عندما اقتربتُ من لورا، كانت تمسح بخرقة بيضاء الزاوية اليسرى العلوية النيليَّة من جدار أوكيفي، موليةً ظهرها لي، ولابسة سروال عمل أسود وكنزة حمراء، وشعرها الشبيه بشجيرة العليق منفلت وهائج. لعلها شعرت باقتراب شخص ما، ذلك أنها استدارت وأنا على بعد بضع خطوات فقط منها. كان محياها مغتبطًا، بل حتى فخورًا، لكن لوهلة فقط، إذ تغير كل شيء في جزء من الثانية.

قالت: «أهلًا».

وأجبتُ: «مرحبًا».

نظرَت يسارًا في البداية، ثم يمينًا، ولم تبدُ مبتهجة بخاصة لرؤيتي. على الإطلاق.

- لقد تمَّت الجدران. تهانيَّ.

- بقي بضع لمسات فقط، لكن... شكرًا لك.

كل ما سمعتُه قبلًا من لطفٍ وأُلفةٍ في صوت لورا قد زال، ناهيك بالدفء.

قلت: «يبدو أنها راقت لشخص ما»، بينما أفكر في أفضل طريقة للمتابعة.

- من؟

- الرجل... منذ قليل... الذي...

- بلى، ذاك، صحيح، بالطبع. إنه صحفي من جريدة هيلسنغين سانومات. كان هنا مع أطفاله ولاحظ الجدران. سيعود في الغد ليلتقط صورًا لها ويُجري مقابلة للصحيفة.

- هذا رائع.

- سأعترف بأنه مفاجئ بعض الشيء.

نظرَت لورا في عيني، ورددتُ نظرتها. كان وجهها محايدًا وجامدًا، رغم أننا قريبان من بعضنا بعضًا، كأن تآلفنا السابق قد اختفى. من الصعب تخيل ذلك، فمنذ وقت قريب نسبيًّا، كنا نتبادل القُبل على القطار المكوكي، من بين كل الأماكن.

- أكان ثمة ما تريد السؤال عنه؟

باغتني السؤال. فأومأتُ، رغم أنني لم أعُد واثقًا أن ثمة أي مغزًى من هذه المحادثة، أو أي محادثة.

- في الحقيقة... لا أعرف.

قالت لورا: «بما أنك هنا»، ونظرت في كلا الجانبين كأنها تعبر الشارع، «إذن ربما من الأفضل أن... ثمة شيء أود قوله».

ارتفع صياح الأطفال وصارت أصوات متنزه المغامرات بحرًا عاصفًا من خلفنا، كأننا واقفون على شاطئ تذروه الرياح ويحاول واحدنا استيضاح ما يقوله الآخر.

وأنشأت تقول: «هذا ليس سهلًا»، وطفقت تلوِّي الخرقة بين أصابعها، «كان ينبغي لي أن... أخبرك... قبلًا».

شعرتُ بدفقة ارتياح مباغتة، فلورا تتكلم أخيرًا عما هيَّجني كل هذا الهياج في المقام الأول. هذا من أجل الأفضل، هكذا يمكنها إخباري بطريقتها الخاصة، ولن أضطر إلى السؤال. فقلت مشيرًا لها بإيماءة مشجعة: «لا يمكن أن يكون سهلًا. أنا أفهم حقًّا».

بدَت متفاجئة حِصةً من كلماتي.

- لا، ليس كذلك. من الـ... من الجيد أنك تفهم. أنا وأنت... حظينا بوقت عذب.

فأضفتُ: «وقت عذب جدًّا».

قالت: «أجل».

لكنها قالتها بطريقة سريعة هادئة، كما قد يقول المرء شيئًا لينتهي منه وحسب. جعلني ذلك أشعر أن عليَّ قول شيء ما أيضًا، لكن لا يمكنني الآن

التفكير إلا بمتابعةٍ لتعليقي السابق، شيء على غرار «وقت عذب جدًّا جدًّا جدًّا»، وشعرتُ بأن ذلك خاطئ لتشكيلة من الأسباب.

تابعَت: «لكن، العذوبة لا تفي بالغرض وحسب. كيف تراني أصيغُ هذا: أنت وأنا... أظننا على دربين مختلفين».

- هذا بدهي. أنت فنانة وأنا رياضي، وصرتُ مديرًا لمتنزه...

- لا، ليس ذلك ما قصدتـ... ليس سهلًا قول هذا.

شابَت صوتها نبرة جديدة بلا ريب، كأن جزءًا ما منها يتألم، ألمًا ممضًّا، لكنها لا تريد إظهار ذلك، والآن انتابني شعورُ أنني على متن قطار يندفع ناحية شيءٍ مُنهار، على الأرجح جسر طويل. كان الشعور غريزيًّا، ذلك أنني حتى حينها لم تكُن لدي فكرة أنني على متن قطار من أي صنف.

- أعني أننا، في هذه المرحلة من حياتي، ومن حياتك، نسير في اتجاهين مختلفين. هذا ما أعنيه.

لمسَت نظارتها من دون أن تحركها حقًّا، وقالت مستعجلةً قولها، بصوتٍ صار مُجبرًا إلى حد ما: «حسنًا، عليَّ أن أنطقها وحسب. ما أحاول قوله هو أن... ما كان بيننا قد انتهى».

نظرتُ إليها، ما زالت تبدو الشخص الذي عرفتُه منذ دقيقة، ولم يسعني فعل شيء سوى قول ما أفكر فيه بأمانة: «لستُ أفهم».

كانت قد استدارت، ورأيتُ دمعةً تنسابُ على خدها.

- آسفة.

شعرتُ ببرجٍ سكنيٍّ آخر ينهار فوقي، ومرة ثانية، كانت الزعقات المنبعثة من الردهة لا تحتمل. وطفق ذهني يُنجز عدة أعمال دفعة واحدة. شعرتُ أنني أخطأت في حساباتي خطأً حاسمًا، وكل ما جرى بيننا -مونيه، وموعد العشاء، ومحادثاتنا وتفسيراتي لهذه المحادثات، والقبلات المسهبة على القطار، وليلة الحميمية المقبلة المدبرة بالغة التتامِّ والتوازن- أضاف إلى ذلك. أيًّا كانت الطريقة التي أتَّبعها، لا يبدو الأمر منطقيًّا، ففي كل مرة أحسبه، ينتهي بي الأمر رفقة نتائج مختلفة اختلافًا جمًّا. وأكثر ما أقلقني هو أنني، على ما

ظهر، فقدتُ القدرة على المتابعة في أي اتجاه ربما بدا معقولًا منذ لحظات، فوقفتُ في مكاني ببساطة وراقبتُ دمعةً أخرى تسيل على خد لورا.

قلتُ: «انتهى؟»، رغم أنني لم أكُن واثقًا لمَن أقول ذلك.

أومأت لورا ولم تقل شيئًا، وأخذت شفتاها وخداها يرتعشون بصورة تكاد لا تُلحظ.

لستُ واثقًا كم وقفنا تلقاء بعضنا بعضًا، لكن في وقت ما تحركنا معًا، هي استدارت ناحية أوكيفي، وأنا بدأت أمشي عودًا إلى مكتبي. مشيتُ عبر الردهة الداوية، محترزًا ألا أدوس أيًّا من عملائنا، وبلغت مكتبي أخيرًا، ثم جلستُ في كرسيَّ حتى وقت الإغلاق.

أقفلت المتنزه وأطفأت الأضواء، ثم طلبتُ سيارة أجرة لتلاقيني عند البوابة الأمامية. كان هذا ضد مبادئي لسببين: ميزانية سفري الشهرية محسوبة بدقة، ورحلة سيارة الأجرة ستُشوِّه الأرقام بكفاءة، وأيضًا، للقيادة من الباب إلى الباب أثر وخيم في تمريني اليومي. لكن الحجج المناصرة لهذه الرحلة المؤقتة في سيارة مرسيدس بنز مقنعة. لقد انفجر شيء ما داخلي، تاركًا فوهة بركان خامدة خلفه.

26

في صباح تسجية مرمدة يوهاني، استيقظتُ قبل أن تدق الساعة السادسة.

كنت قد ظللتُ في المنزل، لكنني قضيتُ اليومين ونصف اليوم الأخير في ضبابة، ضبابة كثيفة خانقة. وإضافةً إلى ذلك، لاحظتُ أن بإمكاني الاهتمام بمعظم الأمور العملية من حاسوبي المحمول على طاولة مطبخي أو من هاتفي، وحتى الترميمات المقبلة للدب الأكبر، التي عالجته عبر تبادل رسائل البريد الإلكتروني مع كريستيان وباعة الآليات، والمقاولين والمتعهدين. بدا أن كريستيان يرتقي إلى مستوى تحدي الإدارة العامة عند أدنى فرصة حتى، فيفعل الفعل الصحيح، ويتصرف كما ينبغي للمرء التصرف وقتما تظهر الفرصة أمامه: يقبض عليها بكلتا يديه. وليس ذنبه إن لم تكن مبادئي الخاصة على ذاك القدر من الجاذبية الآن.

اتكأت على المغسلة، والإبريق يفقفق ويبقبق، وأرسلتُ نظري من النافذة. كان الوقت بين الظلمة والنور، ذاك الوقت من النهار حينما يمكن للمرء رؤية أشكال في المشهد من دون معرفة ما إن كانت ظلالًا أم حقيقة، أشياء محسوسة أم نتاج مُخيلته وحسب. رقد حاسوبي المحمول مغلقًا على الجانب البعيد من طاولة المطبخ كأنه يبث شيئًا سامًّا ما. كان يدفعني بعيدًا، ويقاومني عندما أحاول الاقتراب، خالقًا حقلًا طاقيًّا حول نفسه، فقاعةً، والشعور قويٌّ بصورة خاصة في هذا الصباح.

أكل شوبنهاور طعامه، وجلس موليًا ظهره لي في الفسحة بين المطبخ وغرفة المعيشة يغسل وجهه، وراحت يداه تعملان بجدٍّ على كلا الجانبين.

ماذا لو كان محقًّا طيلة الوقت في أن هذا الجهد المفرط عقيم دائمًا وأنه من الأفضل في هذه الحياة التركيز على ما يحمل الأهمية العليا والمضي قدمًا بهدوء وقتما يقترح أحدهم أي شيء عدا الأكل والنوم والمراقبة المتقطعة من على الشرفة، وأن لا شيء ينتهي أبدًا بصورة مختلفة عما انتهى عليه دائمًا: بكفاح وهزيمة ووحدة وموت نهائي؟

قطَّعتُ رغيف خبز الجاودار، وحمَّصتُ شريحتين، ووضعتُ بعضًا من شرائح الديك الرومي المخفَّض سعرها فوقها، ثم صببتُ ماءً ساخنًا في كوب وجلستُ إلى الطاولة. فتحتُ الجريدة ورأيتُ الصورة مباشرةً: لورا متموضعةً أمام اقتباسها الفني لتوفي جانسون، فقلبتُ الصفحة وعثرت على المقال الذي امتد على صفحة مزدوجة كاملة مع ثلاث صور. عرَّف النص بلورا وعملها، ولم يذكر السجن. كان هذا خسَّةً مني، استشففتُ ذلك، لكن العديد من مشاعري في هذه الأيام جديد، وإلى درجة ما على الأقل خارج عن السيطرة. في أكبر الصور الثلاث، كانت لورا متكئة على الجدار، والجدارية المستوحاة من أعمال توفي جانسون من خلفها تبدو كأنها تستمر إلى اللانهاية. كانت قراءة المقال تترك عند المرء انطباع أن لورا مبتدئة، وأن هذا الجدار البالغ طوله كيلومترًا هو أول ما رسمته قط. آلمتني مجردُ رؤية الصورة، وصارت الضبابة أغلظ، وأخذت بالتكاثف حول صدري ومعدتي وصولًا إلى مساحتها الخاصة الباردة المتذمِّرة، التي تكبُر كلما طال نظري إلى الصورة. فطويت الجريدة، ونظرتُ من النافذة للحظة بينما أمضغ الخبز المحمص، ثم أخذتُ فنجان شايي، وانتقلتُ إلى الجانب الآخر من الطاولة وشغلتُ الحاسوب. وبعد لحظة، اضطررتُ إلى تثبيت نفسي بالطاولة كي لا أسقط عن كرسيَّ.

لقد تحدثت المعلومات. لم يدفع أيٌّ من الذين سحبوا قروضًا، لا المبلغ الأصلي ولا الفائدة. ولا شخصٌ واحدٌ. كانت أرباح المصرف من دورته الأولى صفرًا، لا أكثر ولا أقل. أنشأتُ أحدق إلى الأرقام، لكنها لم تتغير. هذا يعني أن أحدًا لم يلتزم باتفاقنا المعقول والمنصف جدًّا. بدا أن لا أحد يرى قرض يوم الدفع بفائدة ضئيلة جدًّا اتفاقية مزدوجة. لم يُجبر المنتَج -الذي سمَّيناه القرض الصائب، والذي وضحت نشرة معلوماته المقتضبة المبنية على الحقائق بأبسط مصطلحات ممكنة مدى ندرة

فرصة كهذه حقيقة- الناس على التعاون مع القواعد. تذكرتُ سريعًا أنني وقتما أنشأتُ المصرف، كان خطر أن أحدًا ما قد لا يسد قرضه قائمًا، لكن العقل -والرياضيات- أوجبا أن غالبية الناس سيدفعون دفعاتهم في موعدها، لأن أحكامنا وشروطنا أفضل ومعدل فائدتنا أقل من منافسينا. إنها رياضيات بسيطة، وقد أُثبتت عمليًّا. ورأس المال الأصلي... صار في جيوب المدينين الآن. أو-كما أدركتُ سريعًا- لم يعُد هناك حتى على الأرجح، فالخيار ذو الاحتمال الأعلى، أنه قد تبدد، ضاع، رُحض في المراحيض حول العالم.

هذا كله غير عقلاني. ومع ذلك... إنها النهاية.



في هذه الظهيرة الجهومة المُرذَّة، كانت مقبرة مالمي شبه خلوٍ من الناس. كان يوهاني ليهزأ قائلًا: «هذا لأن الجميع ميت»، أعرف ذلك. لكن يوهاني صامت. إنه رماد بين ذراعيَّ. وصلت المرمدة، ويوهاني بداخلها، إلى المقبرة في سيارة نقل الموتى السوداء خاصة دار الجنازة. حملت المرمدة في حَنيَة ذراعي اليمنى، وكانت ثقيلة ثقلًا مفاجئًا، ثم تبعني موظف من دار الجنازة على مسافة مؤدبة: شاب صغير في السن يرتدي قبعة ونظارة شمسية، على الرغم من الطقس. مشينا مشية طويلة نسبيًّا، وبدَت المظلة في يدي اليسرى أكثر توقًا إلى التحليق بعيدًا من البقاء في يدي وحمايتي من المطر.

انعطفنا عدة انعطافات بزاوية تسعين درجة، ثم توقفنا، ثم خطونا بضع خطوات حذرة عبر المروج المخضَّلة ووصلنا إلى حفرة صغيرة في الأرض. كان التراب حول الحفرة غضًّا وموحلًا. ألقيتُ نظرة خلفي، فظهر الرجل الهادئ المكتسي السواد بجانبي من فوره تقريبًا، فناولته المظلة وحملها فوق رأسي. كانت المرمدة مربوطة بحبل لففتُه حول يدي اليمنى، ثم بدأتُ بإنزال المرمدة، لكن ليس بعد.

توقفت، وشعرتُ أن كل شيء توقف أيضًا. رفعتُ بصري لأرى آلاف القبور، والمطر المائل، والجدار الحجري الشاهق، والطريق السريع من خلفه، وجذوع الأشجار التي سوَّدها المطر، والأكاليل المثقلة بالمياه، وشمعة يتيمة

في فانوس كأنها آخر بقعة ضوء في العالم. ومن ثم -لأن كل شيء جامد- رأيت حركة. على بُعد نحو ثلاثين مترًا أمامي وإلى اليمين، تحرك شخص يرتدي معطفًا مطريًّا، وانعطف وظل واقفًا في مكانه. كانت قلنسوة المعطف مُغطيةً رأسه. لعل الرجل وجد أخيرًا القبر الذي يبحث عنه. أو ربما...

انتابني شعور مفاجئ بأنني أنظر إلى ظهر الرجل العظاءة. الوقفة نفسها. وأبعَدَ قليلًا، رأيت مجموعة من الناس تمشي باتجاهي تقريبًا. رفعتُ نظري ثانيةً إلى القوام الوحيد، فبدا لي أنه انتبه أيضًا لوصول المجموعة، فبدأ يتحرك مبتعدًا، وذكَّرتني رشاقة تلك الخطوات بالرجل العظاءة كذلك، لكن الجسد اختفى خلف السياج قبل أن يسعني التأكد. غيرت مجموعة النائحين اتجاهها، ونظرتُ إليهم جانبيًّا، فرأيتُ أحدهم يحمل مرمدة. من الجائز كل الجواز أن الشخص الذي جاؤوا يبكونه قد حماني. أنقذ الميتُ الحي.

لكنني لم أمنح المسألة جولة تفكير ثانية. الظهيرة مكفهرَّة ورمداء، وبذلتي منتقعة. أنا هنا لأدفن أخي. كان الحبل مشدودًا والمرمدة تهبط إلى مهاد الأرض. وصلت المرمدة إلى قاع الحفرة، إلى المكان الذي لن ترجع منه أبدًا. فتخليتُ عن الحبل، وتخليت عن شيء آخر أيضًا. لستُ واثقًا إن قلتُ هذا جهارًا أم لا، لكنني على الأقل قلته ذهنيًّا ليوهاني، الذي لن أراه ثانية أبدًا في أي هيئة فانية: عجزتُ عن فعلها.

عجزتُ ببساطة عن إنقاذ متنزه المغامرات، وعجزتُ حتى عن إنقاذ نفسي. لم يكُن الأمر ممكنًا وحسب. أخبرته بصراحة أنني عاجز عن التفكير بأي شيء آخر، وعاجز عن احتمال أي شيء آخر. وكيف ظننتَ قط أنني قد أقدر على إنجاح الأمر باستخدام المنطق البسيط، حسنًا... لا منطق في الأمر. لا منطق في شيء. ولا يوجد منطق في أي مكان لأنه لا يبدو أن أحدًا يحتاج شيئًا كهذا.

انظر حولك يا يوهاني -ليس في الأسفل هناك، ليس في المرمدة المعتمة أو تلك الجدران الطينية، بل أعلى قليلًا، إن كنتَ في هيئة أخرى في مكان ما أو بلغتَ صعيدًا أعلى من الوجود- وسترى أن لا شيء مما يحدث هنا ناجع بأي طريقة أو شكل أو صيغة.

انظر إلى العالم. كان شوبنهاور محقًّا طوال الوقت. لا يسعد إلا من لم يولدوا. الحياة ليست قرضًا، بل هي احتيال على الدفع. إنها مشروع، يستمر وسطيًّا خمسًا وسبعين عامًا، وهدفه الأوحد تعظيم غبائنا. ومع ذلك، هذا بالضبط ما يبدو أننا نشتهيه. انظر إلى الخيارات التي نتخذها: إن كنا أصحَّاء، نسقم أنفسنا بتدخين السجائر، وشرب الكحول، والإفراط في الأكل. وإن أردنا إحداث تغيير اجتماعي، نصوِّت لخيارات تُزيد وضعنا سوءًا. وعندما ينبغي لنا التفكير في ما هو عقلاني، يبدأ الناس بالتكلم عما يحسُّونه. وأهم شيء أن نحرص ألا يحدث شيء عقلاني بالصدفة. أنجح الأشخاص هم أولئك الذين يتكلمون بأقل عقلانية ويلومون كل من سواهم على ذلك. واحد زائد واحد لا يساوي اثنين يا يوهاني، بل بحسب اليوم وهوية المتكلم يمكنه أن يساوي أي رقم لعين تريده. ويفترض بي النجاح في عالم كهذا، باستخدام المنطق.

أخذتُ نفسًا عميقًا. كنتُ شبه واثق أنني لم أنطق علانية. وقفتُ على حافة الحفرة وهلةً إضافية، أتتبع قطيرات المضر بينما تختفي في الأرض. لقد اتخذتُ قراري. عدنا إلى مرأب السيارات، حيث أخذ الرجل مندوب دار الجنازة سيارة نقل الموتى السوداء وأخذت سيارة أجرة بيضاء.



عندما عدتُ إلى المنزل، أزلقتُ بذلتي المبللة على علاقة، ونظفتُ حذائي، وحضرتُ بعض الشاي ثم جلستُ إلى حاسوبي. فتحتُ متصفحًا لا يكشف عنوان بروتوكول الإنترنت خاصتي وبريدًا إلكترونيًّا لا يكشف هويتي. تذكرتُ أن يوهاني علَّمني كيفية فعل ذلك، كيفية العمل على الإنترنت من دون ترك أثر. آنذاك، ظننتها محض بدعة أخرى، أحد آلاف الأشياء التي تتزاحم على اهتمام يوهاني. لكن في ضوء الأحداث الأخيرة، أتساءل عما إن كان البقاء مجهولًا على الشبكة أكثر من هواية بالنسبة إليه.

مهما يكن من أمر، تحتاج هذه الرسالة إلى أن ترد من شخص سواي. تحتاج إلى بدء تفاعل سلسليٍّ حتى أنا سأنورط فيه. صارت الرسالة جاهزة للانطلاق، لكنني لم أضغط على «إرسال» بعد. سأفعلها في الصباح. أريدُ أن أكون هناك عندما يحدث الأمر.

متلقي الرسالة هو مفتش المباحث بينتي أوسمالا من وحدة الجريمة المنظمة والاحتيال في هلسنكي. ما زلت أحوز بطاقته. تنص الرسالة على أن ثمة إشاعة تقول إن واحدة من ثلاجات مقهى متنزه المغامرات قد تضم جثة شخص ربما يهمُّ الشرطة.

27

كان صباحًا رائقًا أعمَت فيه الشمس الخريفية الدنيَّة في الأفق عينيَّ وأدفأت وجهي بينما خرجتُ من سيارة الأجرة، وهذا إجراء أمني مفروض ذاتيًّا قررتُ اتخاذه. كان مرأب السيارات خاليًا، والساحة المسفلتة تفوح منها رائحة مطر الليلة الفائتة. بدا متنزه المغامرات أصغر بطريقة ما. بالطبع، ما يزال صندوقًا عظيمًا يملأ مجال بصري من الشمال إلى الجنوب، لكنني لم أشعر الآن أنه متسلِّط جدًّا، ومتجبِّر جدًّا. لم تعد له تلك السيطرة عليَّ، إذ لم أعُد أحمله على عاتقي. لقد تغير شيء ما، في مكان ما. فكرتُ في إمكانية أن هذا الشيء هو أنا. تفقدت الوقت على هاتفي، لقد أُرسلت الرسالة منذ أربعين دقيقة.

داخل المبنى، صادفتُ كريستيان مباشرةً تقريبًا. كان قادمًا من جهة غرفة الموظفين يمشي باتجاه بهو الدخول. ابتسم عند مرآي من فوره ابتسامة عريضة للغاية، فشعرتُ أن ابتسامتي واهية، وسرعان ما اختفت عندما فتح فمه ليقول شيئًا ما، لكنني تدبرتُ مبادرته: «قد تكون الإدارة العامة أقرب مما تظن».

فتوقف، وسألني: «بجدية؟».

- أوه، بلى.

بدا في غمضة عين غارقًا في العاطفة.

- حبٌّ قاسٍ، صحيح؟ طرائقك قاسية، لكنك تعرف ما الذي تفعله. إنك رئيس جيد.

منحته بضع تربيتات على الكتف ورأيتُ الدموع تنبعُ في عينيه، ثم تابعتُ طريقي. لم أهتم بتصحيح سوء فهمه للموقف أو بشرح أن قيادتي الحالمة من المرجح أن تصير قريبًا موضوع تحقيق الشرطة.

دخلتُ غرفة تحكُّم إيسا، وكان الهواء فيها بكثافة الجيلاتين تقريبًا وتفوح منه رائحة كبريت قوية حد أن تنفسها يؤلم حتى أعمق تجاويف دماغي، فدار في كرسيه ثم وقف باستعداد وقتما رآني وسألني: «أتود كرسيًّا؟».

فكرتُ في نفسي غريزيًّا أنْ لا، فلستُ واثقًا أنني سأمشي ثانيةً أبدًا إذا ما جلست، وبصرف النظر عما ينتظرني، إن فكرة الفناء في سحابة من الغاز البشري تبدو أشبه بـ... مضيعة، من مناحٍ كثيرة.

- لا، أشكرك. أردتُ قول إنني أُعظِّم ما تفعله وأحترمه. شكرًا لك على كل عملك النبيل.

هز رأسه: «أنا من يتوجب عليه شكرك. لقد جلبت صرامةً جديدةً إلى المتنزه. إنك تتحمل المسؤولية، وتقود بالقدوة. أول من يخوضون القتال، كما يقولون في البحرية. أشعر أن بإمكاني الاسترخاء بعض الشيء أخيرًا. حتى إنني بدأتُ ركوب الدراجة إلى العمل. إنني أبقي سيارتي السكودا هنا في المرأب، أثمة مشكلة في ذلك؟».

أجبته سريعًا: «قطعًا لا».

بركنها خلف المبنى، بالكاد تكون سيارة إيسا الستيشن واغن المطلية طلاءً مموهًا تطفُّلًا. انتابني شعور بغيض جدًّا بأن وجهي يهمُّ بالذوبان، وكنتُ مدركًا أن هذا مستحيل واقعيًّا، لكن تعطُّشي للأكسجين أكثر من حقيقي.

- تابِع كما أنت. لا معنى لإرهاق نفسك. لا معنى البتة.

عدتُ إلى الردهة ومشيت عبرها رفقة شعور غريب بالكآبة. لم أكُن لأتصور قط النظر إلى هذه الزلاقات أو إلى مسار الهجوم في قلعة الوثب والشعور بغلبة العاطفة. لوحتُ لساميا، فلوَّح لي بحماسة رافعًا إبهاميه رضاً. يوم الأطفال أقرب مما يتصور.

وصلتُ إلى جناح المكتب لأجد مينتو كيه في مكتبها، وجبهتها مسندة إلى طاولة المكتب حرفيًّا. كانت تلبس بذلة نسائية -كالعادة، سوداء وضيقة-

ويداها البرونزيتان بكل خواتمهما الفضية تستريحان بجوار رأسها. فاحت من الغرفة رائحة جِن وسجائر وكولونيا رجالية لاذعة بصورة واضحة، التي بالتأكيد لا يمكن أن تنبعث من ميتو كيه. سألتها: «أكل شيء على ما يرام؟».

فوثبَت منتصبة، وفي البداية، بدت كأنها قد وصلت للتو إلى كوكب جديد، لكنها عادت نفسها القديمة بعد ثانيتين.

قالت: «لقد كنتَ محقًّا»، من دون صباح الخير أو أي مجاملات أخرى وسحبت سيجارة من علبةٍ على الطاولة، «أحيانًا تكون الطريقة التقليدية الخيار الأفضل، إذ لستَ مضطرًّا إلى التواصل مع كل شخصية مؤثرة. بأي حال، بعض الشخصيات المؤثرة أوغاد وحسب».

- كنتُ أقصد بخصوص محدوديَّة ميزانية التسويق خاصتنا...

قالت: «عزيزي...»، وأشعلت سيجارة وجَّهتها ناحيتي، «بالضبط. يروق لي تفكيرك. فائدة أكبر لمواردك المالية المتاحة. عندما كان يوهاني هنا، كانت الأمور خارج السيطرة بعض الشيء. لا أقصد الإساءة».

- صحيح...

ثم قالت، بصوتٍ يزداد شبهًا بمنشار كهربائيٍّ عتيق: «عزيزي، إن لك أسلوبًا جيدًا، فلنستمر بذلك. والآن إن لم تكُن لديك مشكلة، فسأُجري بضع مكالمات، وأحصل لنا على حسم صغير».

- بالتأكيد. من الرائع أن كل شيء يجري بحسب الأصول.

عنيتُ ذلك حقًّا. وبالكاد خرجتُ من الباب حتى سمعتُ صوت هسيس علبة مشروب تنفتح.



شغلتُ حاسوبي، وحالما صارت البرامج ذات الصلة جاهزة، شرعت بالعمل سريعًا. كانت خطتي تنطوي على أن أترك لخليفتي، كائنًا من قد يكون، مجموعة بسيطة وسهلة الاستخدام بقدر الإمكان من وثائق مسك الدفاتر، التي ستصمد أمام التدقيق الشديد. لقد أنجزتُ جُل العمل في الليلة الماضية، والآن لم يبقَ إلا الرتوش تقريبًا، وكما توقعت، بالكاد ثمة أي شيء

أفعله. كنتُ منذ اللحظة الأولى موسوسًا -ولافتقاري لكلمة أفضل، منهجيًّا- لذا اعتُني بهذا الجانب من المسائل بسرعة. استرخيتُ في كرسيَّ ونظرتُ حولي. ما زالت سترة يوهاني معلقة على الشماعة، لكن حتى تلك لم تعُد تبدو موشكة على التحليق مبتعدةً على ظهر شخص يغادر الغرفة بينما ينغلق الباب خلفه. كانت خاوية، مستسلمة لمصيرها.

كنتُ قد رتبتُ الغرفة، ورتبتُ الأمور تدريجيًّا بحسب النظام، حتى يتسنى لأيٍّ كان من ينتهي به الأمر في هذا الكرسي النظر إلى كومة رتيبة من الأوراق وطاولة نظيفة خالية. صرتُ جاهزًا.

وكأنما عمدًا، ظهرت يوهانا عند باب مكتبي ودقَّت على إطاره رغم رؤيتي إياها، فوقفتُ بسرور. كانت يوهانا أقل من كلَّمتهم من الموظفين، فمقهى كيرلي كيك قصة نجاح، وهي تديره بانتظام كسير عقارب الساعة. وإذا ما ساءلت أساليبها في بعض الأوقات، كانت تفسَّر دائمًا من وجهة نظر عملية. وثمة ما هو عمليٌّ للغاية فيها: يظهر أنها لا تفعل أي شيء لا هدف له أبدًا، حتى أصغر التحركات محسوبة بدقة. كان وجهها عابسًا، وجافًّا ربما، وكانت قوية ومفتولة العضلات.

- إنك مطلوب في المقهى، حسنًا، في المطبخ.

مشيتُ أمامها. فقالت بينما نمشي عبر الطرف الجنوبي للردهة: «شكرًا لك».

نظرتُ من فوق كتفي: «علامَ؟».

- على الحرية.

- إن مقهى كيرلي كيك قصة نجاح. أنتِ تديرينه أحسن الإدارة.

وصلنا إلى المقهى وتابعنا عبره إلى المطبخ.

- لا أقصد ذلك. أنت أفضل ما يمكن أن يحدث لهذا المكان أبدًا.

لا وقت لدي لأسأل عما تعنيه. دخلنا المطبخ، ورأيتُ مفتش المباحث أوسمالا وضابطين بالبزَّة الرسمية يرتديان قفازات مطاطية زرقاء فاتحة.

28

قال أوسمالا: «صباح الخير»، ملوحًا بيدٍ زرقاء.

كان واقفًا في المقهى، سترته مفتوحة وظهره للثلاجة؛ تقريبًا كأنه يحاول تخبئتها خلفه.

- صباح الخير.

- أتمانع أن ألقي نظرة في الثلاجة؟

لا حاجة للقول إن السؤال عرضيٌّ، فأوسمالا قادر على النظر أينما شاء، ومتى ما شاء. هذه وظيفته. أوشكتُ على الاستدارة ناحية يوهانا لأطلب منها إزالة الأقفال عن باب الثلاجة وقتما لاحظتُ أنها قد اختفت بالفعل.

فقلتُ أخيرًا: «تفضل بكل سرور».

أومأ أوسمالا للضابط عن يمينه، وظهر واضحًا أنهما قد اتفقا على الرقصة سابقًا. تقدم الضابط ناحية الثلاجة، وفتح الغطاء، وتموضع بجوارها، ثم استدار أوسمالا ناحية الثلاجة وانحنى لينظر داخلها، وماجَت موجة باردة عبر المطبخ.

أومأ أوسمالا للضابط الثاني، الذي موضع نفسه بجوار مفتش المباحث أمام الثلاجة، ثم بدأ أوسمالا بإعطاء الأغراض التي أخرجها من الثلاجة للضابط، الذي أخذ يرتبها في كومات على الطاولة المعدنية.

سمعتُ آنذاك صوتًا من خلفي يقول: «من الأفضل ألا تذوب».

فاستدرنا كلنا إلى الخلف، وبدت يوهانا جادة تمامًا، وبالطبع هي كذلك، فليست تعرف ما الذي حفظتُه في قاع الثلاجة. نظرتُ إلى أوسمالا، وكان يحمل كيسًا فيه ثلاثون كعكة بلجيكية سابقة الخبز.

قال ملوحًا بالمخبوزات ليوهانا: «ربما استُخدمت هذه في ارتكاب جريمة».

لم تبدُ مقتنعة البتة. عليَّ إخراجها من المطبخ. قررت أن ما يوشك أن يحدث هنا مسؤوليتي، ومسؤوليتي وحدي، فسألتُ أوسمالا: «أيمكنها الذهاب لخدمة الزبائن؟ ثمة طابور طويل في المقهى».

كان ما يزال يزن المخبوزات بيديه، وقال أخيرًا: «لمَ لا».

نظرتُ إلى يوهانا، وربما أخبرتها ملامحي أنها ربما يُفضل أن تغادر، فألقَت نظرة إضافية إلى الثلاجة، شاعرةً بالمهانة تقريبًا، ثم غادرت. واصل أوسمالا والضابط إفراغ الثلاجة، ولاحظتُ أن الضابط الآخر ليس يراقب الثلاجة، الجامدة، بل يراقبني، ذلك أنني على عكسها، لدي ساقان. كان قد تحرك بصمت، وبصورة غير ملحوظة، وموضع نفسه بيني وبين باب المطبخ، ولم يفاجئني ذلك.

فرغت الثلاجة من مكنوناتها تدريجيًّا، وبدأت أجنحة الدجاج بالظهور على طاولة البيع. بعد أجنحة الدجاج، ثمة طبقة سميكة من الهلاليَّات، التي أذكرها جيدًا جدًّا. لا يمكنني تذكُّر العدد الدقيق للهلاليات، لكنني واثق أن الرزمة التي يُخرجها أوسمالا الآن واحدة من الأخيرات. كنتُ محقًّا، لقد توقف. افترضتُ أنه الآن ينظر إلى طبقة ألواح البوليستيرين والطلاء الأبيض، وسيشوِّشه ذلك لبضع ثوانٍ على الأكثر. لكنه ظل في الوضعية نفسها وقتًا أطول بكثير مما افترضت، وعندما تحرك أخيرًا، تحرك بطريقة لا تشي بأنه قد اكتشف شيئًا غير عادي، وبدأ يخرج المزيد من أكياس أجنحة الدجاج من الثلاجة.

لم أعرف عدد أكياس الأجنحة التي خرجت من الثلاجة لأنني لم أتحلَّ بالقوة الكافية لعدها. ثمة الكثير. صار حجم أجنحة الدجاج المتراكمة على الطاولة يمثل حجم قاتل مأجور محترف تقريبًا. ثم انحنى أوسمالا إلى الأمام، وغار نصف جسده العلوي، العريض والضخم، في الثلاجة. سمعته ينقر ببراجمه على جدران الثلاجة وقاعها، ويمرر أصابعه على أجزائها الداخلية. وبالحكم من الأصوات التي يصدرها، بدا أشبه برجل خائب الأمل. لقد أوضح

البريد الإلكتروني مجهول المرسل الثلاجة المعنية، وينبغي لي معرفة ذلك، فقد كتبته بنفسي.

رجع أوسمالا عن الثلاجة أخيرًا، وقد اكتسى وجهه صبغة بين بنفسجي الكرز وأحمر مطفئة الحرائق، فقد تدلَّى رأسًا على عقب بزاوية أقل من عشرين درجة لعدة دقائق، وقال: «فلنرَ الثانية».

- بكل سرور.

لم أعرف ما أقوله سوى ذلك، له أو لنفسي. وإن قلتُ إن هذا لا يتماشى مع حساباتي فقولي أقرب إلى استهانة بالأمر.



كانت الثلاجة الأخرى ملأى بالبضائع المجمدة أيضًا، وأعني بذلك طعامًا مجمدًا. لم أخطئ الثلاجة.

أعدتُ توضيب الثلاجتين بنفس ترتيب إفراغ أوسمالا لهما ورأيتُ بأُم عيني أن الثلاجة التي ظننتها تحوي شيئًا مختلفًا تمامًا هي بالضبط كالتي أفرغتها ذات مرة: ثلاجة وحسب، لا أكثر ولا أقل. وبينما انتهيت، كانت أصابعي متيبسةً بردًا. أرسل أوسمالا الضابطين ببزتيهما الرسميتين في طريقهما، وأفترض إلى قضايا أكثر إلحاحًا من تلك التي تنطوي على كعكات بلجيكية مجمدة ومئات أجنحة الدجاج، ثم أعطى المطبخ نظرة شاملة أخرى لكنه لم يلمس شيئًا. أعرف عن ماذا يبحث، لكنني أعرف أنه لن يجده في أيٍّ من الخزائن أو فوق أي من الرفوف.

وسألني فجأةً: «أتذكر الصورة التي أريتك إياها؟».

أخبرته أنني أذكر.

- أرأيتَ الرجل منذ محادثتنا؟

قلت له: «لا»، هازًّا رأسي.

فخطا بضع خطوات رشيقة ناحية باب المطبخ، ثم استدار، وشد كُمَّي سترته عودًا إلى مكانهما، ومطط ظهره. وقد استعاد وجهه صبغته الرمادية القتَّالة المعهودة.

- لم تسأل عن ماذا كنا نبحث.

فقلت بصدق: «افترضتُ أنكم تعرفون عن ماذا كنتم تبحثون».

بدا أوسمالا يفكر في إجابتي، ثم قَبِلها: «بالفعل. وبالطبع، لا يمكنني إبداء أي تعليق إضافي».

ولا أنا يمكنني. أدركتُ ذلك عندما كنتُ أعيد توضيب الثلاجتين.

وفي تلك اللحظة، أخذ هاتفي يرنُّ في جيب سروالي، واعتبر أوسمالا ذلك إشارة، فاستدار، ودفع الباب فاتحًا إياه ثم اختفى في المقهى. رحتُ أراقبه عبر صدع الباب المتأرجح، كأنني أشاهد فيلمًا رعَّاشًا، بينما يمشي بتثاقل وعزم ناحية بهو الدخول ثم الباب الأمامي. أخرجتُ هاتفي ونظرتُ إليه، فرأيت رقمًا مجهولًا، لكنني قررت الإجابة، ظانًّا أنه من غير المرجح البتة أن أتفاجأ مفاجأة مشابهة مرة ثانية في يوم واحد. واتضح أنني قد أكون مخطئًا خطأً جسيمًا.

29

لم يعُد إيسا في غرفته، لكن مفاتيح سيارته ما تزال على طاولته، فحملتها وأسقطتها في جيبي وكتبت له ملاحظة أخبرته فيها أنني سأستعير سيارته السكودا لشأنٍ يخص أعمال المتنزه لبضعة الأيام التالية، وأنني سأدفع له ثمن الوقود. وحبستُ أنفاسي حتى عدتُ إلى الردهة وبدأت المشي ناحية الباب الخلفي.

رأيتُ التغير مباشرةً. لطالما كان هذا القسم من المتنزه منطقة أطفال فقط، لكن فيه الآن من البالغين بقدر ما فيه من الأطفال. كانوا إما واقفين في أماكنهم وإما يمشون بأناة ويشيرون إلى الجداريات، ثم يتوقفون أمامها ويرجعون بضع خطوات إلى الخلف ويتقدمون ثانيةً. بدا أن المزيد يصلون مع كل دقيقة تنقضي، وتشكلت حشود صغيرة أمام بعض الجداريات. لم أرَ لورا في أي مكان، لكنني انتبهتُ إلى أنني كنتُ آملُ أن تتمكن من رؤية حشود الناس الذين جاؤوا ليستبدعوا أعمالها. جعلتني الفكرة أشعر بالفخر والسعادة في آن معًا، فغادرتُ قبل أن تسوء مشاعري أكثر.

التزمتُ بقانون السير في كل تفاصيله، وحرصتُ أن أتفقد المرآة الخلفية بانتظام. لم أكُن ملاحقًا، واستغرقت الرحلة خمسًا وثلاثين دقيقة.

كان المبنى الصناعي الصغير باللونين الرمادي والأحمر النبيذي، إذ كان القسم الرمادي مصنوعًا من الأسمنت والأجزاء الحمراء النبيذية من الحديد المفلول، وعلى الجدار لافتة ضوئية غير مضاءة حاليًّا، تُظهر حبة فراولة شاحبة وكتابة متداعية بعض الشيء تقول توت وكونسروة جنوب فنلندا. بدا

الاسم خاطئًا قواعديًّا وغير مكتمل بطريقة ما، وكذا بدَا المحيط، وبلغ الطريق نهايته أمام مُجمَّع المصنع تمامًا. أوحت طريقة انتهائه بأن النية الأصلية كانت إتمام الطريق لا محالة، لكن أحدهم قاطع فعل الحفر، ورفع بصره وأدرك أنه لا يوجد سبب منطقي واحد للمتابعة. كانت الجنَّابيَّات على طَرفي الطريق الذي يقود إلى المصنع خالية، وعبرتُ في طريقي إلى هنا غابات ذات أشجار منوعة، وحقولًا وفسحات مُهملة. لم نكُن محاطين بطنين الابتكار، هذا ليس قلب مجتمع ناشئ مزدهر.

من الشارع، قُدت مسافةً قصيرة صعودًا إلى الفناء الأمامي للمعمل، حيث رأيت مركبتين أخريين: سيارة سوداء رباعية الدفع من طراز لاند روفر جديدة نسبيًّا، وسيارة أودي تبدو أكبر سنًّا بعض الشيء، نهمةُ بنزينٍ من الأيام الخوالي، فركنتُ سيارة إيسا خلف البقية، مشكلًا صفًّا منتظمًا، وخرجتُ منها. أخذت الشمس تتألق بين السحب الرمادية الكثيفة رغم صغرها، فكانت ساطعة في أوقات وفي أخرى كالحة. وفي تلك اللحظة تفرقت السحب، وكان تأثير ذلك كومضة كاميرا مفاجئة، فاشتعلَ المشهد، ذلك أن أشجار القضبان قد فقدت بالفعل نصف أوراقها، وما بقي على الأغصان مصفر وناشف، ومعظمه منكمش. كان المطر قد خطط الحصاة على الأرض وترك بركَ طين هنا وهناك، والمبنى في حاجة إلى بعض الترميم ووجه جديد من الطلاء.

في أعلى قلبة السلم القصيرة، انفتح بابٌ وخرج رجل مألوف إلى بسطة الدرج، وفي هذه المرة، أشك أنه منتوٍ استعراض مهاراته في الخبز. كان الرجل الضخم لابسًا سترة صيد خضراء، وصنفًا ما من سراويل المسير الطويل، ومنتعلًا زوجين من الأحذية المتينة الخاصة بالخروج في العراء. بجمع ذلك مع تعابيره ولون وجهه، كان المظهر الإجمالي مظهر شخصٍ موشكٍ على قتل إلكة، ومن المحتمل جدًّا أن يفعل ذلك بيديه العاريتين. انتظرني على قمة الدرجات وأبقى الباب مفتوحًا لي، فدخلتُ مباشرةً إلى الردهة الرئيسة للمصنع.

رأيت أوعية فولاذية طويلة أشبه بمقليات بطاطا عملاقة، وتمديدات أنابيب فولاذية، وبعض الأواني الأصغر، وشكلًا ما من خطوط السير الناقلة يشق طريقه متعرجًا بعيدًا عن الأنظار، ووفرة من محطات العمل المختلفة الأصغر

حجمًا، المحتوية على مجموعة من الموازين والمكاييل. فولاذ، وألمنيوم، ومطاط، وبلاستيك. فاحت من الفضاء رائحة كيماويات ورائحة توتٍ خفيفة أشد ما يكون. لقد استحضر الاسم على جانب البناء كل الروابط الصحيحة، فهذا مكان في جنوب فنلندا حيث تُحفظ الأشياء ويحدث شيء ما للتوت. كانت إحدى الآلات قيد العمل، وبإمكاني سماع صوت همهمة خفيض قوي.

نظرتُ خلفي، فأشار الرجل الضخم إلى الأمام، فمشيتُ ناحية ما افترضتُ أنه وسط المُجمَّع، ولأن الرجل الضخم لم يقل شيئًا وراح يتبعني وحسب، حسبتُ أنني أمشي في الاتجاه الصحيح. ثم صار صوت الآليات أقوى.

قال: «لدينا مشكلة».

- أي صنف من الـ...؟

صار بوسعي رؤية الآلة التي تضج، ورأيتُ شيئًا آخر أيضًا. كانت الآلة مطحنة من نوعٍ ما، أشبه بمكبس آليٍّ أصفر هائل، من الطراز الذي يستخدمه كثير من الناس كل يوم، وثمة رجل متصل بالآلة، رأسه داخلها.

ثم تكلم. قال من داخل الآلة: «لقد رجعتَ»، ودوى صوته كأنه منبعث من قعر بئر، «جيد. كما قلتُ، كان الربع الأخير مجرد نكسة مؤقتة، وحالما ننتقل إلى موسم التوت السحابي وعنب الثور، سنعيد عمل المربَّى إلى سابق عهده، فعندي مشترٍ ألماني ينتظر عنب الأحراج، وسيزورنا الأسبوع المقبل. سنبقي أنا وأنتَ معًا ألمانياً في مربى...».

كان الرجل يتكلم بسرعة شديدة حد أن الصدى شوَّش كلماته.

ثم قال الرجل الضخم: «هذا الصنف من المشكلات»، وأشار إلى الرجل المُلصق داخل مطحنة التوت. فأخبرته أنني لم أفهم تمامًا.

- السيناريو هنا مشابه تمامًا للسيناريو الخاص بك. هذا المصنع أشبه بردهة عبور للمال، أو على الأقل، هذه كانت الخطة. لقد أخذ هذا الرجل مالي، لكن المال لم يعثر على طريق عودته إلى الشركة. لقد أنفقه كله بنفسه. وعندما أرسلتُ واحدًا من موظفيَّ الأحرار ليسترد المال، صنع هذا الرجل لحم أُيَّل منه.

جاء الصوت من المطحنة: «الأمر كله سوء فهم كبير. المربى تجارة المستقبل. الأمر كله متعلق بالتشبيك...».

تابع الرجل الكبير: «وفوق هذا، اضطررتُ إلى التفريط بمرؤوسيَّ. كما تعلم».

نظر إليَّ بطريقة توحي بأنه يعرف بما يجري ومدركٌ تمام الإدراك حادثة الغرق التي حدثت على ممر الدراجات، ولم أقل شيئًا.

ثم أكمل: «وهذا ليس كل شيء، فأنا محتاج إلى المال. الآن».

لم أخطط لإخباره بأنني لستُ أفهم مرة ثانية، وأيضًا، أنا أفهم فعلًا ما يقول، كل كلمة منه.

قال: «ولهذا أنت هنا»، واتخذ بضع خطوات جانبًا، وقبض على لوحة تحكُّم بيدين مُقفَّزتين، وأدار شيئًا ما، ثم جذب شيئًا ما، فصار ضجيج المطحنة أصخب. ثم مشى عائدًا إلى أمامي.

- لستُ أفهم كيف...

قال، ناظرًا في عيني: «لديك المال».

دار تيار ثلجي عبري تمامًا، كأنني فتحتُ غطاء ثلاجة داخلي.

- في حقيقة الأمر، المصرف...

- ليس يجدي.

رغم أن المطحنة ما زالت تعمل، ويمكنني سماع صوت همهمتها، لكنني خلافًا لذلك اقتنعت بأن كل شيء توقف، لبضع ثوانٍ على الأقل. ولم أقل شيئًا.

قال: «لم يسد أحد المال الذي استدانه».

وتعرفتُ لهجته على أنها نفس اللهجة التي استخدمها في منزله وقتما هددني بمسدس وأجبرني على أكل كعك القرفة خاصته. كان الصوت محايدًا بصورة مشابهة، وهكذا كان أسوأ ما في الأمر أنه ملائم للمسألة في المتناول. ثم أضاف: «سأتفاجأ إذا ما دفع أحد ما الفائدة حتى. لا جدوى من الكذب، ذلك أن الكذابين ينتهي بهم الأمر في العصَّارة».

قال الصوت المكتوم: «هذه قطعًا ليست عصارة، فذاك شيء عفَّى عليه الزمن. إن تجارة العصير لا شيء بالمقارنة مع إمكانات النمو في المربى...».

استدار الرجل الضخم وركل طرف المطحنة. كانت حركة سريعة كشفت عن سخطه، رغم غياب أي دلالة عليه في لغة جسده، وبدا أن مُنتج المربى فهم الإشارة، فلم تعُد تُسمع مماحكة من المطحنة.

- عندي شركة تحصيل ديون جاهزة لبدء العمل. أملك جزءًا من الشركة. إنها تشتري القروض بالنقود.

- بوجود وكالة تحصيل، سيكون معدل الفائدة أعلى عدة مرات.

- أُقدِّر أن يكون أعلى عشر مرات.

- لستُ واثقًا بشرعية عمليات كهذه...

- فيمَ كنتَ تفكر؟ كل ذاك الهراء حول قروض عقلانية، ومعدلات فائدة عقلانية.

ظل مُحيَّا الرجل جامدًا، وربما لم أرَ شخصًا أكثر جديةً قط. تذكرتُ ما قالته لي لورا عن حالها المالي وعن حال بقية موظفي المتنزه. لقد سحبوا كلهم قروضًا، وبالتحديد بسبب معدل الفائدة المنخفض لأنهم لن يكونوا قادرين على مواكبة معدلات أعلى، ناهيك بمعدل أعلى عشر مرات. والآن...

- ستُجري التحويلات في غضون اليومين التاليَين. سيتدفق المال عبر المتنزه ثم عودًا إليَّ. أعرف أن بوسعك إنجاز هذا، أعرف أنك ستجد طريقة ما. كنتُ واثقًا بهذا منذ البداية. احرص على أن يبدو كل شيء في شؤون المتنزه المالية شرعيًّا. ما زلنا سنسحب الكثير من القروض لقاء رأس المال ذاك.

شعرت أن الجملة الأخيرة انسلَّت من شفتَي الرجل الضخم، بل كنتُ مقتنعًا بهذا. لم يقصد قول ذلك جهارًا، على الأقل ليس في هذه المرحلة، ثم استدار سريعًا، ونظر إلى قطب الفاكهة المحفوظة.

- وليكُن هذا مثالًا تحذيريًّا لك. إنه سبب آخر لوجودك هنا اليوم.

- ما الذي سيحدث له؟

- نفس ما سيحدث لك، إن فشلتَ في صون اتفاقنا.

لستُ أذكر الاتفاق على أي شيء، لكن وصلني انطباع أن لا معنى للجدال في هذه النقطة، إذ يبدو أن الاجتماع قد انتهى. اتخذت بضع خطوات إلى الخلف وألقيت نظرة إلى الباب، وعندما عدتُ بنظري إلى الرجل الضخم، كان يحمل المسدس نفسه الذي كان معه في مطبخه في خلال لقاء قهوتنا الوجيز.

- إلى أين تظن نفسك ذاهبًا؟

- عائد إلى العمل. ليست هذه مسألة بسيطة. ثمة الكثير للتفكير به.

وكل هذا صحيح.

فأومأ الرجل الضخم: «كلام معقول».

انتظرتُ لحظة إضافية، وقلت أخيرًا: «وظننتُ أن الاجتماع قد انتهى».

قال: «بالطبع»، وعاد إلى لوحة التحكم، والمسدس في يده طوال الوقت، «أعني الجزء الرسمي. والآن نظرًا لأني لا مرؤوسين لديَّ، وريثما أتمكن من تأمين بعض العاملين الأكْفاء، فدوري أكثر يدويَّة بكثير. وهو منعش بطريقة ما. أمور ملح الأرض».

فكرتُ في نفسي: *الآن بدا صوته يشبه ما كان عليه وقتما تحدث عن الخَبز. لهجته لطيفة، وتكاد تكون أمومية.*

- بالحديث عن المرؤوسين، لقد اضطررتُ إلى إعفاء صديقنا المشترك من مهامه، وفي نوبة هياج خفيف، فلنقل ذلك، أخبرني أنه يعرف بما فعلتَه بتابعيه الأمينين. أتصور أنه يشعر ببعض الغيرة إزاء كوني أعمل معك الآن.

نظر واحدنا في عينَي الآخر، ثم أدار الرجل الضخم رأسه واشتد صخب المطحنة ثانيةً. لم أكُن واثقًا إن كنت مُنحت الإذن بالمغادرة أم لا. كان الرجل الضخم قد ولَّاني ظهره، وفوهة مسدسه موجهة إلى الأرض، فبدأت الاستدارة بحذر وخطوت بضع خطوات أخرى ناحية الباب، وسرعان ما صارت خطواتي أرشق، وعيناي مركزتين على نافذة الباب المربعة، وصرت أرى بالفعل الظهيرة المكفهرَّة خلفه.

- تذكر. يومان.

30

كانت الدكة المعدنية في مقبرة مالمي باردة ورطبة بعض الرطوبة. جلستُ تحت شجرة بلوط ضخمة، وأمكنني تبيُّن شاهد قبر يوهاني وتلة التراب الغض حيث اختفت مرمدته في الأرض. لم أجلب زهورًا أو أي شيء آخر لأنني لم أعرف أنني آتٍ. يمكن القول إني كنتُ أقود السيارة التي جلبتني إلى المقبرة فقط. لم أتوقع أن يحوز يوهاني أي أجوبة، ولستُ أعرف كيف سأسمعها إن فعل، أو ما يمكنني إيجاده هنا ليغيِّر الأمور. ربما جئتُ لأكون في مكان ما وحسب، ولأفكر.

لم تكن الجثة المفقودة مشكلتي الوحيدة، إذ كنتُ مقتنعًا أن الرجل الضخم لا بد مسؤول بطريقة أو بأخرى عن اختفاء الرجل الميت، لكنني الآن مقتنع بالقدر نفسه أنه لو عرف حقًّا شيئًا ما حول تحركات الجثة ومستقرها لقال، فليس أسلوبه إسداء الناس خدمات بفعل طيبة قلبه، ما يذكرني بوكالة التحصيل خاصته وفكرة بيع ديون الناس.

لقد خطط الرجل الضخم لهذا منذ البداية، لستُ إلا وسيطًا، أداة وصل، ولا أملك أدنى شكٍّ في أن وكالة التحصيل ستكون أداة وصل أيضًا. يمكنني بالفعل تصوُّر وكالة التحصيل تسحب قرضًا لتشتري قرضي، وحالما يتدفق مالها عبر السجلات، يصير رأس مالها الوحيد هو القروض غير المدفوعة، فتفلس في آخر الأمر. وهذه هي الغاية منذ البداية، كما هي النية أن يفلس متنزه المغامرات حالما يُستنزف. لا بد أن الرجل الضخم كان منشغلًا بعصَّارة الفاكهة وخطابه المتصاعد حد أنه أفشى هذا السر تحديدًا سهوًا. لكنني فهمتُ ما يجري فورًا، وما قد يعنيه ذلك لمتنزه المغامرات: سيسقط في آخر الأمر

تحت ثقل ديونه وقروضه، ذاك المال الذي انتهى في مكان مختلف تمامًا عن تمويل نشاطات المتنزه. تنهدتُ، وخرج نفَسي بُخاريًّا في الوهج الطنَّان المنبعث من عمود ضوء مدوَّر كان قد دبَّ الحياة في نفسه للتو. نموذج عمل الرجل الضخم لا يترك شيئًا للمخيلة، وقد شرح النتائج العملية لذلك النموذج في الحظيرة وفي وقت أحدث في مصنع المربى.

عندما تعطلت مكابح المحدلة، انتهى بي الأمر مطحونًا. يمكنني تقبل ذلك. فقد ارتكبتُ أخطاءً في الأشهر القليلة الماضية. ضللتُ الأمور وأسأت قراءتها. وحقيقة أنني حيث أنا منطقية، بقدر ما يمكن للحياة بلوغه أبدًا. لكن هذا لا يدور حولي في النهاية.

ما يقف على المحك هو متنزه المغامرات وكل طاقمه. ووظائفهم. لقد سحبوا قروضًا لأنني أخبرتهم أنها معقولة، ووثقوا بي. فكرتُ في سامبا ويوم الأطفال خاصته، ولورا وابنتها تولي، وكريستيان وتعطشه الجديد للدراسة، وإيسا وتغيُّر نمط حياته، ويوهانا وتفرُّغها للمقهى. كل واحد فيهم يستحق ما هو أفضل من وعود محنوث بها، وإفلاس وخراب مالي. فكرت في يوهاني، وأحلامه، وأمانيه، وفوق كل هذا حماسته الطفولية وبراعته التي لا تكل. لا أعرف ما إن كان لهذه الأمور أي علاقة بالواقع أكثر أو أقل من ذي قبل، لكنني أريدها أن تزدهر رغم ذلك. أريد للمتنزه أن يزدهر. لكن لفعل ذلك، عليه أولًا أن ينجو.

أدركتُ شيئًا آخر أيضًا. في البداية، غابَت أهمية كلمات الرجل الضخم عن بالي، لكن للحظة فقط، فقد قال إن الرجل العظاءة يعرف بما فعلتُه لشريكيه، ولا يعني ذلك حادثة الغرق على ممر الدراجات وحسب، بل الثلاجة أيضًا. وهذا سبب آخر لسروري بتذكُّر تعليقه، فقد منحني بزرة خطة.

جلست على الدكة لوقت طويل، وأرخى المساء سدوله من حولي. ثم انطلقت.

31

رحتُ أتجول في متنزه المغامرات المهجور في نصف الظلام. كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة للتو، وتجولي غير ضروري، فأنا أعرف بالفعل أن المتنزه خالٍ وأن الأبواب مقفلة. للوقت الراهن.

كان البهو مضاءً، وبسبب العتمة في الخارج عجزتُ عن رؤية ما على الجانب الآخر من الباب، فنقرتُ المفتاح اليدوي، وانزلق الباب منفتحًا، ثم خطوتُ خارجًا. كان هواء الليل باردًا، والسماء الرائقة تمد يدها للنجوم، وموقف السيارات خاليًا، وقُدُمًا بعض الشيء، يمكنني رؤية الأضواء الأمامية والخلفية للسيارات المارة.

اتجهتُ يسارًا، ولففتُ الزاوية، ثم تابعت لمسافة قصيرة وانعطفت ثانيةً، ومشيتُ طول الطريق إلى الركن المقابل وما بعده، ثم قصدتُ الشارع ومشيتُ حتى التقاطع تقريبًا، ثم وبانحناء كامل عدتُ إلى الأبواب. لستُ أدري ما ينبغي لمشواري الليلي أن يبدو عليه، لكنني لا أهتم. بيت القصيد أنه، من أي زاوية ينظر المرء، سأُرى في المتنزه وحوله. ثم مشيتُ إلى الأبواب وعدتُ داخلًا. وتركتُ الأبواب مفتوحة ورائي.

في الركن المظلم للدب الأكبر، ثمة دكة يمكن للأهل استخدامها. جلستُ عليها وانتظرت، وأمكنني الشعور بالتيار القادم من الباب الأمامي على كاحليَّ. كنتُ أرتدي سروال بذلتي، وقميصًا وربطة عنق، ذلك أنني نزعت سترتي وطويتها على الدكة بجواري، ومفاتيح السيارة في جيبها.

قال الرجل العظاءة: «إنك بارع في نصب كمين بقدر براعتك في أي شيء آخر تقريبًا. لا أعرف ما الذي يراه الزعيم فيك».

رأيتُ حدوده الظليلة. كان يقف على بُعد خمسة عشر مترًا تقريبًا فقط أمامي، فقد تمشى إلى المتنزه بصمت وتدبر بلوغ هذا القرب من دون أن ألاحظه.

تابع كلامه: «إن كنتَ تود مفاجأة أحدهم، فهاك نصيحة: تحتاج إلى عنصر المفاجأة. أفهمت ما أقوله يا إمنتال؟».

فقلت: «آينتشاين»، ثم وقفت.

- ماذا؟

- آينشتاين. لقد كان عالم فيزياء، أما إمنتال فصنف جُبن.

فصرخ: «بحق الجحيم! أعرف ذلك. السؤال هو، أتفهم؟».

لا يمكنني أن أرى إلا حدوده الخارجية، وبالحكم من ذلك، كان يقترب مني ويهز رأسه.

- والآن اسمع وعِ.

صار كلانا يتحرك الآن، هو يدنو مني مباشرة، وأنا أشق طريقي ببطء ناحية الدب الأكبر.

- أأنت حقًّا بهذا الغباء؟ أهذه فكرتك عن الكمين؟ هذا الجحر؟

عشرة أمتار، تسعة، ثمانية... سكين. ومضَت سريعًا، ثم عادت إلى اختفائها في الظلال.

سألته: «كيف تعرف أنني وحدي؟».

- اسمع، يا صبي التوصيل، لا أعرفُ ما إن كنتَ قد لاحظت، لكنك فتحت الأبواب منذ أكثر من ساعة، وليس ثمة إلانا في مكبِّ القمامة المسمى متنزه تسلية هذا...

قلتُ مؤكدًا: «إنه متنزه مغامرات»، وحالما نطقتُ الكلمات اتخذتُ خطواتي الراكضة الأولى.

سمعتُ الرجل العظاءة يفعل المثل. انطلق كلانا راكضًا. كان يريد تنفيذ انتقامه من كثب وبصورة شخصية، فاندفعتُ خلف الزلاقات، وبلغت الفتحة بين قلعة الوثب والدب الأكبر وعدوتُ بأقصى سرعتي إلى المدخل. لكنني لستُ متجهًا إلى الأبواب، بل وجهتي أقرب بكثير: عندما يصل الناس إلى المتنزه، يحييهم بسعادة وببهجة. ابتسامته عريضة ومتفائلة دائمًا، وسناه الأماميتان مثل نصلَي مجداف بيضاوين ساطعتين. يلوِّح بيده بحماسة شديدة تجبرك على الاستجابة، رغم معرفتك أنه مصنوع من معدن وبلاستيك فقط.

أخذ الرجل العظاءة يدنو مني مع كل خطوة تقريبًا، ولم أضطر إلى الإبطاء البتة. ربما لم يكن يبعد عني إلا خمسة أمتار وقتما بلغتُ الحبل. عليَّ الإبطاء لأنتر الحبل نترة مكينة، ثم أعدِّل اتجاه ركضي بعض الشيء وأضع ثقتي في الفيزياء والرياضيات. كان بيني وبين الرجل العظاءة متران تقريبًا فقط وقتما بدأ الأرنب العملاق بالسقوط.

بالتسارع، ومعدل الكتلة والسرعة: أنجزت الجاذبية وظيفتها.

- أيها المسخ الأحمق اللعين مهووس الأرقام...

أصابت مئة وأربعون كيلوجرامًا من الأرنب البهيج الرجل العظاءة في وجهه مباشرةً، إذ اصطدم بالأرنب كما لو كان جدارًا. جدارًا لا ينصدع إلا ما ندر. محض جدار مجازي بالطبع، ففي الواقع، ليس إلا رجل وأرنب بلاستيكي عملاق يتصادمان بسرعة، ثم أعقب التصادم انهيار صاخب ساد بعده صمتٌ مطبق.

فتوقفت ورحتُ أنصت. كان الصمت أشبه بالبحر يجثم ساكنًا تمامًا، ومما لاحظته في التصادم بين الرجل والأرنب، استنتجتُ أن الرجل هو من أُجبر على التنحِّي، فرقد هامدًا على ظهره يحدق تحديقة فارغة إلى سقف متنزه المغامرات، بعيدًا عن الرجل الغاضب المهدد السبَّاب الذي كانه منذ لحظة فقط.

وبدا الأرنب تقريبًا كما كان قبلًا، إلا أنه عاد ناقصًا أذنًا مرة ثانية.



بقليلٍ من التعديل الهندسي، اتسع صندوق السيارة للرجل العظاءة. دوَّرتُ المحرك، وقدتُ على مهل إلى الطرف الآخر من البناء ثم رنوتُ إلى المدخل، كانت الأبواب مغلقة، وكاميرات المراقبة خاصة إيسا مطفأة منذ وقت طويل، والأرنب منتصب ثانيةً وأذنه مكانها. لعل تجربتي السابقة ساعدت في جعل نصب الأرنب وتنظيف آثاري عملية بهذه السرعة، ورغم قولي ذلك، لن تحتمل الأذن اشتباكًا آخر. استغرق تنظيفها وإصلاحها وإلصاقها في مكانها تقريبًا بقدر ما استغرق كل شيء معًا، لكنها بدت متصلة بشدة برأس الأرنب من جديد، وأشك أن يتمكن أي شخص بنظرة سريعة من رؤية أي دليل على اشتباك بالأيدي.

ثم نظرتُ إلى متنزه المغامرات وهلة إضافية، لا لأنني أود التأكد من أي شيء بعينه، بل لأنه قابع هناك ببساطة. تذكرتُ يومي الأول في العمل، وكيف وددتُ التخلص من المتنزه إلى الأبد، وكيف اعتبرت كل دقيقة أقضيها فيه مضيعة للوقت. كم كنتُ مخطئًا، وكم اختلف تفكيري الآن. صرت أرى شيئًا يستحق أن يُحمى ويجب أن يُحمى. أعرف أن الناس يستخدمون كلمة حب بكل أشكالها المختلفة وفي كل السياقات المختلفة للإشارة إلى كل شيء من مساحيق الغسيل إلى الجدات، من حبوب الموسيلي إلى مقاصد العطلات، لكن قلبي يضرب، وصدري يخبط، وعقلي يتميز غضبًا إزاء فكرة أن شخصًا ما يحاول تهديد متنزه مغامراتي. عليَّ قولها، وإن كان لنفسي فقط.



صار الطريق مألوفًا بحلول الآن. أخذت حركة السير تخفُّ مع ازدياد عدد المسالك، والليل يشتد حلوكًا، معتصرًا السيارة أكثر فأكثر. قادتني الأضواء الأمامية عبر المنعطفات والمنحنيات الآخذة بالإظلام، وعلى الطريق الترابي، تمكنتُ أخيرًا من القيادة بمفردي تمامًا. تعرفتُ التقاطع المعهود وأبطأتُ لأقترب، ثم اتخذتُ الطريق المودي بلطف إلى أعلى التلة، وعندما بلغتُه بدأتُ أقود نزولًا إلى الطرف الآخر موجهًا السيارة بعيدًا عن حماية الغابة، وسرعان ما تبيَّنتُ شكل الحظيرة أمامي وإلى اليمين.

أكنتُ معتقدًا حقًّا أن الرجل الضخم ليس في المنزل؟ هذه ليست أول مرة أظهر في زريبته الاستثنائية بصورة مفاجئة. إن كان في المنزل، يمكنني القول إني قدمتُ للمحادثة، ولن يكون الوقت من النهار مشكلة، فعملياته لا تلتزم بالممارسات التجارية القياسية بأي حال، وأشك أنه يهتم كثيرًا بساعات العمل. ولا سبب يدفعني لأُريه مكنونات سيارتي، فالرجل العظاءة في صندوقها، ملجومٌ أبدًا، ومن غير المرجح أن يهرب إلى الفناء ويفاجئنا.

في النهاية، هذا مثال كلاسيكيٌّ على الحكمة القائلة بأن على المرء أولًا استثناء المستحيل: وهو العودة في هذه الحالة. ثم عليه النظر في الخيارات المتبقية: ليس ثمة إلا اتجاه واحد، إلى الأمام بالقوة القصوى. يجب البدء بما يمكن حله، ثم يصير بالإمكان حل شيء جديد بغية التقدم إلى الأمام.

وجهتُ السيارة عودًا إلى الطريق الترابي. بعد برهة، انعطفتُ إلى الطريق المودي إلى الفناء، وكنتُ أقود تمامًا بنفس السرعة التي كنتُ لأقود بها لو أني قادمٌ في زيارة ارتجالية. شعرتُ أن الطرقات طويلة طولًا لا يُحتمل، ثم أخذت الأضواء الأمامية تنزلق فوق المنزل والفناء. فتحتُ النافذة، وأطفأت المحرك، لكنني تركت الأضواء مُشَغَّلة، وأنصتُّ. لم أسمع حتى حفيف الريح في الأشجار، ناهيك بأغرودة طير. كان الوقتُ متأخرًا في الخريف حد أن البعوض نفسه توقف عن الطنين. شممتُ رطوبة الأرض، ولمحتُ لمحة صيف عالقة فيها. إزهار متأخر. لذعة. وثمة شيء آخر أيضًا. كعك القرفة.

في منتصف الليل. أطفأتُ الأضواء الأمامية وانتظرتُ دقيقة. كان المنزل معتمًا، وظل معتمًا، فيما عدا ضوءًا واهيًا في النافذة اليسرى، التي أعرف أنها المطبخ.

لم أستغرق إلا بضع ثوانٍ لأتأمل ما أراه وأسمعه، ثم بلغتُ خلاصة مفادها أن لا بدائل: سأضطر إلى الدخول وتناول كعكة قرفة ضخمة أخرى في ما كانت لتشكّل عادةً ساعات نومي، وأغلب الظن تحت مراقبة الرجل الضخم، والرجل العظاءة راقد بسلام في صندوق سيارتي. النتيجة بعيدة عن المثالي، لكن إن كانت جرعة مفرطة من الكربوهيدرات في هذه الساعة المشؤومة من اليوم هي كل ما يتطلبه سعيي وراء إنقاذ متنزه المغامرات، فسأفعلها.

أخذتُ نفسًا عميقًا، وخرجتُ من السيارة، ثم مشيتُ إلى المنزل وصعدتُ الدرجات إلى الشرفة وانتظرتُ الباب لينفتح. ثم انتظرتُ بعض الوقت الإضافي. ولم يحدث شيء. فرننتُ الجرس الذي لم يتسنَّ لي المرة الماضية لمسه، ودوَّى صوته عبر المنزل المعتم. وانتظرتُ ثانيةً. لم يتحرك أحد داخل المنزل. نظرتُ إلى الباب، ثم حاولت تدوير المقبض، فدار.

كانت رائحة المنزل أشبه بمخبز متوسط الحجم. خطوتُ خطوة إضافية إلى الداخل، وناديتُ، محاولًا إبقاء صوتي عاديًّا بقدر الإمكان، سائلًا عما إن كان الوقتُ مناسبًا للزيارة، ولم ترِدني إجابة، فرفعتُ صوتي وسألتُ ثانية، وثالثة، ولا إجابة. بدا أن المنزل خالٍ، فتقدمتُ بحذرٍ إلى المطبخ.

كان الكعكُ في الفرن بالفعل. لستُ خبيرًا فيما يتعلق بالخَبز، لكنني أعرف هذا. متوسط وقت الخَبز لكعك القرفة ثلاث عشرة إلى خمس عشرة دقيقة، وعندما يكون الكعك بهذا الحجم -إذ يمكنني رؤية حجمها بالنظر داخل الفرن- فقد يستغرق الخَبز ما يبلغ سبع عشرة أو ثماني عشرة دقيقة. وبالحكم من لون الكعكات، لا بد أنها في الفرن منذ قرابة أربع إلى خمس دقائق.

رأيتُ شيئًا آخر على الطاولة: ظرف قهوة فارغًا بجوار صانعة القهوة. ثمة بالفعل مياه جديدة في الصانعة، ومُرشَّح جديد نظيف في الأعلى، لكن في تلك اللحظة... أدرك الرجل الضخم أن قهوته قد نفدَت، ولا يمكن للمرء أكل كعك القرفة من دون قهوة.

تذكرتُ خارطة المنطقة. توجد محطة وقود في الاتجاه المعاكس لاتجاه مجيئي، ربما على بُعد خمس أو ست دقائق في السيارة.

إنني معتاد على إجراء عدة عمليات حسابية في رأسي دفعة واحدة، عملياتٍ معقدةٍ صعبة. معتاد على وجود عدة متغيرات متزامنة، وقادر على مقارنة الحسابات بعضها ببعض بينما أعمل عليها. ومن كل الخيارات المتاحة، كانت الخلاصة التي بلغتُها هي الأفضل، الخلاصة التي ستؤدي في الأرجح إلى أحسن نتيجة، تلك التي ستزيد أيما زيادة أرجحية واحتمال النتيجة المرغوبة التالية أكثر من أي خيار آخر متاح.

ثم ركضتُ. عدتُ إلى السيارة، وفتحتُ الباب الخلفي، وأخذتُ مصباحًا كاشفًا من مساحة الأقدام. شغَّلته ومشيتُ ناحية الحظيرة. كانت بناءً قديمًا أمامه منحدر يقود إلى مجموعة واسعة من الأبواب، والأبواب مغلقة. لففتُ إلى جانب الحظيرة المواجه للغابة التي خرجتُ منها إلى الفناء في زيارتي الأخيرة. وجدتُ بابًا صغيرًا مفتوحًا وانسللتُ إلى الداخل. كانت رائحة العفَن كنصلٍ يشقُّ منخريَّ، حادة وقوية حد شعوري أن بإمكاني تقريبًا رؤيتها في سحُب خبيثة في ضوء المصباح. ثمة طبقة متفاوتة من الأسمنت تكسو الأرض، وذكَّرتني النوافذ الصغيرة الضيقة بزنزانة سجن. مررتُ فوق ألواح خشبية، وأنقاض، وكومات من القمامة، وبعد بحث سريع، حددتُ مكان السلالم وتسلقتُ إلى الطبقة العلوية.

أخذَت ألواح الأرضية تصرُّ بينما أتحركُ في المساحة المرتفعة العابقة برائحة الغبار والعفن، وفي كل مرة أضاء المصباح غرضًا ما، بدا أن الغرض يهجم عليَّ، يخطو خطوة أو اثنتين خارجًا من الظلمة. كان كل شيء تقريبًا كما كان في زيارتي الأخيرة. مشيتُ طول الحظيرة وخرجتُ من الطرف الآخر للمساحة الرئيسة، كما فعل الرجل الضخم تمامًا في لقائنا الأول، ثم تابعتُ طريقي ناحية البوابة الكبيرة الرئيسة ورفعتُ اللوح الموضوع فوق المزاليج لإبقائه مغلقًا. دفعت بعد ذلك الأبواب فاتحًا إياها ومشيتُ هابطًا المنحدر الشديد المودي إلى الفناء، ثم صعدتُ المنحدر بالسيارة رجوعًا وتوقفتُ حالما صار نصفها في الحظيرة، وأطفأت المحرك.

خرجتُ من السيارة، ولففت حولها إلى الصندوق، وفتحته. قبضتُ على الرجل العظاءة أسفل ذراعيه وبدأتُ أجرُّه أكثر إلى داخل الحظيرة. كان إبطاه رطبين ودافئين، وكان ثقيلًا لكنه ليِّن. صرنا أخيرًا في الداخل، فأجلسته لقاء عمود، ثم مشيتُ عائدًا ناحية الدرجات. وجدتُ الدراجة الرباعية حيث كانت قبلًا، والحبل ما يزال متصلًا بدعامة السقف، ففككتُ الحبل، حاليًّا، وعدتُ إلى الرجل العظاءة، لففته حول عنقه وشددتُه، وألقيتُ الطرف الآخر للحبل فوق واحدة من العوارض الخشبية، وتنهدتُ وأشحتُ بنظري.

لم أفعل ذلك بسرور، وفي الحقيقة، سيسرني ألا أفكر فيه أبدًا. شنقتُ رجلًا ميتًا.

كانت العملية أشق مما ظننت. إذ يزن الرجل العظاءة تقريبًا ما يزنه ذكر بالغ عادي، وليس الأمر أنه يقاوم. أخذت الدعامة تصرُّ، والحبل ينسحج فوق الخشب بينما أسحب. حاولتُ سدَّ أذني، وإقناع نفسي بأن هذا حتمي، لا يمكنه تلافيه. في آخر الأمر، وبعد الكثير من الكدح من ناحيتي، صار الرجل العظاءة محكم التعليق في الجو وعاد الحبل متصلًا بمؤخر الدراجة الرباعية.

دَرَجتُ بالسيارة عودًا إلى الفناء، وأغلقتُ الأبواب الضخمة من الداخل، ثم أخذتُ الضوء الكاشف عن الأرض ومشيتُ عائدًا إلى الطابق الأرضي من دون أن ألقي نظرة حتى ناحية الرجل العظاءة. عند قمة الدرجات، قبل أعلاها بثلاث، نظرتُ من فوق كتفي رغم كل شيء. رجل شنق آخرين، رجل استغلَّ أناسًا، هددهم وابتزَّهم، رجل كان يخطط لقتلي. لو كنتُه، لقلتُ شيئًا من قبيل واحد زائد واحد يساوي اثنين.

لكنني لستُه، أنا أنا. لذا لم أقل شيئًا، بل راجعتُ حساباتي ببساطة مرة إضافية وغادرتُ بأسرع ما أمكنني. وجعلت رائحة كعك القرفة الليلة المنعاء تبدو حلوة وسكرية على نحو غريب.



بعد القيادة لثمانية كيلومتراتٍ تقريبًا، توقفت عند نقطة وقوف بعيدة. نزعتُ القفازات المطاطية وأزلتُ الأغطية الواقية عن حذائي، وفعلتُ المثل بالميدعة. وكنتُ قد نزعتُ شبكة الشعر عن رأسي سابقًا، ثم وضعتُ الكل في كيس بلاستيكي أسود وحشرته في الحاوية.

أعدتُ السيارة إلى متنزه المغامرات ومشيتُ كيلومترًا في اتجاه المطار، ثم أوقفتُ سيارة أجرة ووصلتُ إلى المنزل بعد الخامسة بقليل. كان هاتفي حيث تركته بالضبط: على الطاولة في الردهة.

قدمتُ لشوبنهاور طعامه، واستحممتُ ثم حضرتُ بعض الشاي. لم أُمتِعه بتفاصيل أحداث ليلتي، بل مسَّدتُ بدلًا من ذلك رأسه وظهره الوثير وجانبيه المُخرخرين قبل أن أُخرجه إلى الشرفة ليشاهد شروق الشمس. شربتُ كأس شايي وأكلتُ شريحة من خبز الجاودار مع الزبدة والغرافلاكس. وأثار ذلك

جوعي، فحضرتُ شطيرة ثانية، ثم ثالثة، ثم أكلتُ علبتين من الزبادي اللاذعة مع رشَّة كثيفة من العسل. لم أكُن قد لاحظتُ مدى جوعي حتى. كنتُ في حركة دائبة طوال النهار والعشية، وجعلت أحداث النهار الانتباه إلى قائمة طعام اليوم أمرًا عسيرًا.

أخيرًا، بعد أن خمَّرتُ لنفسي كأس شاي أخرى، جلستُ إلى طاولة المطبخ وصغتُ بريدًا إلكترونيًّا آخر إلى أوسمالا. لم أحتَج هذه المرة إلى التفكير في النبرة، إذ راودتني من فورها. أظن أن هذا سيجعل الرسالة مقنعة بالحد الكافي، من صنف الرسائل الذي يجعل أوسمالا يتصرف بصرف النظر عن البلاغ الكاذب السابق.

شرحتُ في الرسالة أنني خائفٌ على حياتي وأنني في طريقي إلى مزرعة معينة في الغابة للقاء رب عملي، وهو مجرم سيئ السمعة، وأنه في حال كانت هذه رسالتي الأخيرة، فأريد أن تعرف الشرطة قاتلي. قدمت إحداثيات دقيقة للحظيرة بقدر ما أعتقد أن الكاتب المزعوم لهذا البريد سيقدر على تقديمه، ثم أضفتُ وصفًا للحظيرة نفسها. أخبرته أن هذه الرسالة ستُرسل تلقائيًّا في وقتٍ معين إلا إن تمكنتُ من العودة إلى المنزل وإبطالها. ثم ضغطتُ زر «إرسال» وأطفأت حاسوبي. نهضتُ بعدئذ ووضعتُ طبقي وطبق شوبنهاور في غسالة الأطباق وشغلتها، ثم اتكأت على طاولة المطبخ ورحت أنصت إلى خضخضة المياه. لأول مرة منذ فينة طويلة جدًّا، كان ذهني هادئًا، وخاليًا من الأفكار، فخرجتُ إلى الشرفة لأنضم إلى شوبنهاور.

كان الصبح ما يزال هشًّا، وأعمدة الإنارة المُوزَّعة متناثرة تترك بقعًا معتمة كبيرة عبر الباحة الأمامية. تركزَت عينا شوبنهاور على أشجار القضبان الشعثاء عديمة الأوراق تقريبًا والشجيرات تحتها، التي باتت تبدو أكثف من دغل. لم أرَ شيئًا غير عاديٍّ، لكن يمكنني أن أفهم تمامًا لمَ يراقبها شوبنهاور بهذا الانتباه. لقد قرر أنه لن يؤخذ على حين غرة.

32

نمتُ حتى الظهيرة، ثم حلقتُ ذقني ولبستُ ثيابي وضبطتُ ربطة عنقي وخرجت. كان النهار مشرقًا وهادئًا، والهواء حادًّا وباردًا برودة منعشة، والشمس تكاد تبدو بيضاء، وإن لم تمنح دفئًا البتة، كأنه يوم شتوي في منتصف الخريف.

مرت رحلة القطار سارةً، إذ لم يحاول أحد تهديدي أو سرقة بطاقة سفري، وألقيت نظرة على عناوين الصحف المصغرة على هاتفي، لكنني أعرف أن الوقت ما يزال مبكرًا جدًّا. فضلتُ عدم تصور أن خططي لم تنجح. بأي حال، سأحتاج إلى أن أكون أكثر حذرًا، وأكثر احتراسًا من أي وقت مضى. لعله ليس أسوأ ما يمكن حدوثه في النهاية، فقبل أن ينتهي بي المطاف في متنزه المغامرات، من كان أكثر من أثق بهم في العالم؟ شوبنهاور. وبمن ما زلتُ أثق؟ بشوبنهاور. بكليهما في الحقيقة، القط والفيلسوف.

دخلتُ متنزه المغامرات من الباب الخلفي. مشيتُ عبر الرواق، وأخبرتني نظرة خاطفة أن أعداد زبائننا في علو. ثمة أطفال -وبالغون- في المتنزه أكثر من أي وقت سبق، فقد حققنت جداريات لورا والاهتمام الذي كسبته المتنزه بالطاقة التي تصورت أن المصرف قد يحققنها. سرعان ما سيختفي المصرف. بلغتُ مكتبي، وجلستُ إلى طاولتي وشغلتُ الحاسوب. وبينما أنتظر إقلاع النظام، رحت أنصتُ إلى أصوات المتنزه. كان باب مكتبي مفتوحًا، ورغم وجود زاويتين بين الردهة وموقعي، وجد الصخب طريقه إليَّ.

سجلتُ دخولي إلى نظام إدارة المصرف ورأيتُ أن رصيد الحساب صفرٌ كبير بدين، فلأن منح القروض أمرٌ يمكن إجراؤه في بضع نقرات وحسب، كان كل العاملين في مكتب التذاكر قادرين على منحها، وبالحكم من تاريخ تسجيل الدخول، فقد مُنح معظمها بيد كريستيان، الذي يُحسب له أنه أظهر مهارات بيع من الطراز الرفيع. منح في ظهيرة واحدة ثلاثين قرضًا تقريبًا وبلغ حد الائتمان الأعلى، وإن لم أكن مخطئًا، فقد كانت تلك الظهيرة التي أخبرني فيها أول مرة عن دروسه واستعرض تقنيات البيع خاصته.

ومرة أخرى، عليَّ الاعتراف أنني كنتُ مخطئًا ومصيبًا معًا، فمن الواضح أن ثمة سوقًا للقروض منخفضة الفائدة، لكن رغم أنها منصفة لكل الأطراف، لا يشعر الناس بتأنيب الضمير لسدادها أكثر مما يشعرون به ناحية ذات معدلات الفائدة الباهظة. لم يدفع أي شخص دفعة أولى حتى، ولم يبدُ أي زبونٍ مهتمًّا في السداد على نظام فائدة فقط. كنتُ موشكًا على تسجيل الخروج من نظام الإدارة إلى نظام المحاسبة الذي أنشأته للمصرف، وقتما رأيتُ شخصًا يدخل مكتبي من دون أن يطرق الباب.

عرفتُ هوية هذا الوافد الجديد قبل أن أرفع عيني، فقد تعرفتُ وقْع الخطوات المتتالية.

بدَت لورا على نحو مذهل شبيهة بما بدَت عليه في أول مرة اصطحبتني في جولة حول المتنزه. وبطبيعة الحال، كان شعرها الكثيث نفسه، بُنيًّا وكثيفًا، ونظارتها سوداء الإطار نفسها، ولها نفس النظرة المشرقة السؤولة في عينيها، وترتدي الملابس نفسها أيضًا: كنزة صفراء بقلنسوة، وسروالًا جينزًا أسود، وزوجين من الأحذية الرياضية الملوَّنة. وعندما أقول إنها تبدو بنفس الهيئة، أقصد شيئًا أكثر من مجرد الشعر والملابس، إذ ثمة شيء في أسلوب حياتها، وطريقة حركتها، ووقفتها في منتصف الغرفة. بطريقة ما، شعرتُ أنني عدتُ إلى أول لحظة لمحتها فيها، إلا أنني عاجز عن العودة إلى تلك اللحظة. ناهيك بأن أمرًا كهذا في الحقيقة مستحيل، لكن بعد كل ما حدث، وبالنظر لكل شيء أعرفه عنها، لا يمكنني وحسب.

- ألديكَ دقيقة؟

قلت حالما تمكنتُ من صوغ الكلمات ثانية: «أجل. أتودين القعود؟».

- قد يكون هذا أفضل.

قعدت لورا إلى الجانب الآخر من الطاولة، ووجدتُ نفسي آملًا أن تبدأ المحادثة -وأفترض أنها كانت تأمل المثل- لأنني لا أعرف ما أقول، ولا طريقة قوله إن وُجد، فما أراه في الصورة أمامي هو مرة ثانية اللحظة التي قالت فيها إن أيًّا كان ما جرى بيننا فقد انتهى. وذكرى تلك اللحظة محسوسة، مُشلّة، كأن شيئًا ما يُمزّق مني، جزئي الذي يتحكم بتصرفاتي ومشاعري. شعرتُ أنني أخوض في أسمنت بارد، داخليًّا وخارجيًّا.

قالت أخيرًا: «أريدُ أن أشكرك»، وتوقفت لوهلة، ربما منتظرة أن أظهر أنني ما زلتُ طرفًا في هذه المحادثة. لكنني عجزتُ عن حمل نفسي على قول أي شيء، «لولاك، لما وُلدت هذه الجداريات أبدًا. لقد سمحت لي باستخدام الجدران، وشجعتني بطريقة... فريدة. أردتُ... شكرك فقط».

سمعتُ نفسي أقول: «من دواعي سروري».

بدا تردد لورا واضحًا، ونظرت في عينيَّ مباشرةً، كما فعلت مرات عديدة قبلًا، لكنها هذه المرة فتحت فمها لا لشيء إلا لتغلقه ثانيةً. حاولت محاولة ثانية، وتدبرت هذه المرة الكلام: «لقد تلقيتُ عرض عمل».

لم أقل شيئًا.

- وقبِلتُه.

أصار الضجيج والصخب القادم من الردهة فجأةً مسموعًا أكثر؟ شيء ما في الجَلَبة الخلفية صار أصخب، وراح يسافر عبر أذنيَّ وينتشر في جسدي.

- جئتُ أقدم استقالتي.

جلسنا صامتَين، وعيوننا خفيضة. أعرف أن عليَّ قول شيء ما. أعرف الكلمات الصحيحة حتى.

- تهانيَّ على وظيفتك الجديدة.

قالت: «أشكرك»، وتوقفت لحظة، ثم تابعَت: «لَم تسألني ما هي».

حاولتُ فتح فمي. كان ذهني يهدرُ بألف سؤال وسؤال، وليس أيها بالضرورة متعلقًا بوظيفة لورا الجديدة.

تمكنتُ أخيرًا من سؤالها: «ما هي؟».

- سأرسمُ على الجدران، كما فعلتُ هنا تمامًا. ثمانية جدران، كلها تقريبًا من نفس القياس. إنها طلبيَّة، شركة تريد ردهة مدخل من الصنف الذي يُحدث أثرًا حقيقيًّا.

رأيتُ وميضًا في عينَي لورا، وابتسامة على شفتيها أذكرها خير ذكرى.

- ما أعنيه أنني الآن سأتمكن من أداء العمل الذي أردتُه منذ البداية. هذا هو ندائي الحقيقي، المهنة التي طالما حلمت بها. أخيرًا. أحيانًا يمكن لأحلامنا... أن تتحقق فعلًا. (لم تعُد تبتسم) أريدك أن تعرف أن هذا جزئيًّا بفضلك.

قلتُ: «شكرًا لكِ»، وحاولت الاستمرار، لكنني عجزتُ عن القبض على زمام أفكاري.

- كما تتذكرُ على الأرجح، لقد وجدتُ الرسم في غاية المشقة لسنين طويلة، وكانت هذه نقطة تحول كبيرة بالنسبة إليَّ. أشكرك على ذلك أيضًا.

أجبرتُ نفسي على قول: «بالطبع. سرَّني ذلك».

- ماذا عنك؟

باغتني السؤال أتم المباغتة، إذ لا أملك جوابًا سريعًا، ولاحظت لورا ذلك.

- يبدو أن المتنزه يبلي خير البلاء. لم أرَ هذا القدر من الناس هنا قبلًا.

فأقرَرتُ: «إن عدد الزوار في ارتفاع قياسي».

- لقد فعلتَها يا هنري.

سألتُ قبل أن أدرك حتى: «ماذا فعلت؟».

لوهلة، تجنبت لورا التواصل البصري ومسَّدت بلطفٍ بضع خصلات من شعرها.

- إن كان فهمي صحيحًا، فقد كان المتنزه في حالة من العسر المادي وقتما تسلمتَه. لكن الأمور الآن تبدو أفضل بكثير، صحيح؟ ثمة وفرة من الزبائن، ويبدو أن كل الموظفين... سعداء وراضون. يمكن القول إنك أنقذت المتنزه. لقد أحسنت صنعًا.

قلتُ في خلدي: «لسنا نعرفُ ذلك بعد. ما يزال الأمر يتأرجح في الميزان. حسنًا، إنه يتأرجح، ولنكتفِ بهذا».

قلت: «يبدو أن معظم العمل قد أُنجز. آمل ذلك بكل صدق».

بدت لورا موشكة على قول شيءٍ ما، لكنها رصَّت شفتيها بإحكام آنذاك وظهر أنها تنتظر مرور الاندفاعة فقط. كان التغير في وجهها طفيفًا، ولم يدُم إلا جزءًا من الثانية، لكنني لاحظته، ثم بدأت عيناها بالتلألؤ وأبدَت ابتسامة مقتضبة.

وقالت بهدوء: «لا أريدُ إشغالك».

قلت: «لا مشكلة»، وكان وقْع الكلمات مبتذلًا كما هو بالضبط. لأن هذه قد لا تكون مشكلة البتة، لكنها منتهى الغُصة.

صارت الجعجعة القادمة من الردهة أشبه ببحر يموج خلفنا أو في مكان جانبيٍّ ما، وربما أنصت كلانا للموجات لبعض الوقت. غزا أصابعي نفس الخدَر الذي شعرته قبلًا، وزن خفيٌّ يجذب حجابي الحاجز إلى الأسفل، وأحجار ثلجية تضطرب في أحشائي. افترضتُ أن لقاءنا قد انتهى، وحضرتُ نفسي لقول شيء ملائم ما، شيء من قبيل: عليَّ العودة إلى برامج الجدولة، لكن لورا تكلمت أولًا.

- لدي شيء إضافي أطلبه.

حاولتُ البُدُوَّ فضوليًّا ومترقبًا، وربما نجحت، لستُ واثقًا.

- إن الشركة، التي طلبت الجداريات، تريد البدء بسرعة، فالافتتاح الرسمي لمبانيهم الجديدة في غضون شهر ونصف الشهر، وعليَّ تقديم إشعار الاستقالة قبل شهر هنا. لن أحظى بوقتٍ كافٍ لإنهاء الجداريات في أسبوعين فقط، وأنا مستعدة للتنازل عن راتبي للشهر المقبل.

ربما بان عليَّ أنني لم أفهمها، رغم ظني أنني فعلت، فتابعَت كلامها: «أريدُ المغادرة حالًا، لأتمكن من البدء بالجداريات الجديدة، وبالطبع، لستُ أتوقع منك أن تدفع لي راتب شهرٍ بينما أعمل لصالح شركة أخرى، لذا سأتنازل عن...».

- هذا ليس ضروريًّا.

- أريدُ ذلك.
- إنه ليس...
- إنه سيسعدني.

لم يكُن صوتُ لورا سعيدًا للغاية بكل تأكيد، وفي الحقيقة، كان أكثر جديةً مما كان عليه منذ فترة طويلة. لم أعرف ما الذي فاجأني أكثر في رد فعلها، وحملني على التحرك، بطريقة ما، رغم أنني ما زلتُ أشعر أني مُوثق في حوض من الأسمنت.

بدأت أقول: «من أجل مدرسة اللغة الخاصة بابنتك أو...»، من دون أن أعرف إلى أين أتجه، وفي الوقت نفسه، أخفضت لورا نظرها وارتفعت يدها سريعًا لتُعدِّل نظارتها، ثم نظرت إليَّ ثانية.

وقالت: «لقد اعتُنِيَ بكل شيء»، وأشارت لهجتها إلى وجود نقطة ختامية في نهاية الجملة، ثم سكتَتْ.

رتبتُ بعض الأوراق على الطاولة التي لا تحتاج إلى الترتيب، ذلك أنني عجزتُ عن التفكير في أي شيء آخر أفعله بيديَّ. كل ما يمكنني فعله هو البقاء جالسًا والنظر مباشرةً في عينَي لورا الزرقاوين المخضرَّتين.

ثم تلعثمتُ قائلًا: «بالطبع. يمكنك المغادرة حالًا».

كانت كلمات تُقال يوميًّا بصورة اعتيادية، لكنها آلمَت فمي، ولم أفهم تمامًا السبب. ترقرقت عينا لورا، وبحركة سريعة كالبرق مسحَت صدغها وخدها بيدها اليمنى، ثم صححت جلستها ثانيةً. بدَت كأنها قاعدة وقائمة في الآن نفسه، وأخيرًا، وضعت يديها على ذراعَي الكرسي، وقالت: «سأنصرف».

خرجت الكلمات كأنها موجهة لشخص سواي، وسواها.

نهضَت بعدئذ، ولوهلة، ظننتُ أن عَصف المتنزه صار أشدَّ، ثم أدركتُ أن الموجات بداخلي.

- شكرًا لك يا هنري.

33

استغرق الأمر يومين، ثم بدأت الصحف الشعبية تحظى بمتعتها.

«جثة في الحظيرة».

«تصفية حسابات في عالم الإجرام؟».

رحتُ أُقلِّب بين الأخبار حتى وجدت المعلومة الحاسمة التي أبحث عنها: «جرى القبض على مُشتبه به في جريمة القتل. للمشتبه تاريخ من الانخراط في عالم الإجرام وهو شهير لدى الشرطة».

قلتُ في قرارتي: *يبدو أنني نجحت، وانتهى كل شيء.*

أقفلتُ الباب الخلفي لمتنزه المغامرات وهبطتُ الدرجات المعدنية إلى الفناء الأمامي. كانت الساعة الحادية عشرة، والهواء بارد وخامل، ومن دون الإضاءة الكهربائية، بدا العالم أشبه بقبو شاسع معتم. حملتُ كيس القمامة إلى الحاويات، ثم فتحت الغطاء وألقيته في الداخل، فانصفق الغطاء منغلقًا وأصدر جلجلة بالصخب الذي أملتُه. بطريقة أو بأخرى، أردتُ أن تُلحظ مغادرتي. أردتُ أن أُرى مغادرًا المتنزه.

بعد أن لففتُ الناصية، انطلقتُ قطريًّا عبر مرأب السيارات، وحالما صرتُ بعيدًا بالقدر الكافي ألقيتُ نظرة إلى يميني، ورأيتُ لقاء حائط البناء الانعكاس النحيل العمودي نفسه الذي كنت أراه سابقًا. عليَّ شُكر عناوين الأخبار على جذب انتباهي إلى الأمر.

بعد قراءتي العناوين باكرًا في هذا الصباح، احتجتُ حقًّا إلى بعض الهواء العليل. كانت الأخبار جيدة، أو جيدة بالقدر الذي يمكن توقُّعه، لكنها أطلقت

تفاعل كربٍ متأخر وهائل، والذي يتصل من مناحٍ عدة بلورا، وبكون كل شيء... منتهيًا.

مشيتُ حول متنزه المغامرات، وبينما أنهيتُ مشواري أخذتُ بالهدوء من جديد -فاستقر نفَسي، وحصلت على أكسجين كافٍ، ولم أعُد أشعر أن معدتي ملأى بالمعادن المنصهرة- ووصلتُ إلى أمام لافتة يُو مي فَن الضخمة على السطح، ثم تفرقت السحُب أمام الشمس وومضَ شيء في ركن عيني.

في البداية، عجزتُ عن رؤية أي شيء آخر. ثم نظرتُ من كثب مزيدٍ إلى الجدار وعرفتُ مصدر الوميض. بالنظر من الزاوية الصحيحة، رأيت الشمس تنعكس عن سِلك رفيع يمتد على طول المبنى، ومن مكان لمسه الأرض المسفلتة، يمتد على طولها إلى خلف عمود أسمنتي، حيث يرقد مجدولًا في حلقات على الأرض، ثم يصعد الجدار ويختفي فوق المزراب وإلى السطح. عدتُ إلى الداخل وصعدتُ إلى السطح عبر الدرج الداخلي ثم مشيتُ إلى النقطة التي افترضتُ أن السلك سيكون فيها، وبدا أن الطرف الآخر النظيف للسلك الجديد قد عُقد مؤخرًا حول لافتة يُو مي فَن.

عندما وصلتُ بعد ذلك إلى طرف مرأب السيارات القريب من الشارع، انعطفتُ يمينًا وتابعتُ على طول ممر الدراجات، وكما العادة، اتجهتُ ناحية موقف الحافلات. حالما وصلتُ إلى حيث يحيد ممر الدراجات بين الصخور وخط رفيع من الأراضي الحراجية، أي حيث لم يعُد ممكنًا النظر خلفًا إلى الطريق، غادرت الممر وتسلقت حافة صغيرة تكسوها الأشجار ووصلت إلى مرأب سيارات متجر بيع أثاث مجاور، ثم مشيتُ حول المتجر، وسرعان ما بتُّ أدنو من متنزه المغامرات من الجانب الآخر. وجدتُ مكانًا مناسبًا للانتظار في ظلال مقهى صغير وبسيط غير مضاء إلى جانب الطريق، وكان المقهى قد أغلق أبوابه إغلاقًا دائمًا، لكن رائحة الطعام السريع من الربيع الماضي ما تزال عالقة في الهواء.

لقد شوهدتُ أغادر متنزه المغامرات، وكنتُ آخر المغادرين، والسلك ينتظر. كل شيء جاهز. المعادلة جميلة ببساطتها. لاحظتُ أنني أخيرًا أُعيد اكتشاف سحر حساب التفاضل والتكامل خاصتي، إذ يراودني في نوبات متقطعة، وما أزال أشعرُ أن ثمة حبة رمل ضئيلة لكنها عازمة أشد ما يكون بين التروس،

بيد أنني لا أعرف مكانها. كان الخلاف شبيهًا بإتمام المرء أحجية الصور المقطَّعة لا لشيء إلا ليكتشف أن القطعة الأخيرة مفقودة، فتبدو الصورة الأكبر منقوصة على نحو غير مُرضٍ. ثم، وأخيرًا، أظهرت القطعة الناقصة من المعادلة نفسها.

أبطأت سيارة هيونداي وبدت مترددة قبل الانعطاف إلى متنزه المغامرات، ثم رأيتُ ما توقعت رؤيته بالضبط: واقية المصدِّ. شكرتُ أوسمالا ذهنيًّا. انعطفت السيارة التي أسقطت سارية العَلم بحذر إلى مرأب السيارات، وتابعت طريقها قطريًّا عبر الأسفلت، والآن فهمت السبب: يريد السائق استطلاع المنطقة خلف المرأب أولًا. حالما اختفَت الهيونداي من مجال بصري، بدأتُ الركض.

كنتُ قد عبرتُ الطريق ووصلتُ إلى مُجمَّع متنزه المغامرات، وآخذٌ بالعدو بكل سرعتي على طول واجهة المبنى الطويلة وقتما سمعتُ صوت الشاحنة ثانيةً، فتوقفتُ، عند الناصية تمامًا، وأخذت الشاحنة تقترب، تدنو أكثر فأكثر... حتى توقفت.

رنوتُ من خلف الناصية، فرأيتُ السائق ينعطف بالمركبة، ويرجعُ عكسيًّا ناحية الجدار. أخرجتُ هاتفي، وبعد لحظة أعدته إلى جيبي، ذلك أن عُقدة القَطر توقفت على بُعد بضعة أمتار من الجدار، ثم فُتح باب السائق. وثب السائق منها وركض من فوق العمود، وكان يلبس سترة ضخمة من تحتها قلنسوة مشدودة فوق رأسه إلى حدٍّ أبقى وجهه محجوبًا في الظلال، ثم التقط السلك من خلف العمود وبدأ بربطه بعقدة القطر.

اتخذتُ بضع خطوات رشيقة ناحية عاقِد العُقَد، وحجب صوت محرك الشاحنة وقْع خطواتي. أنهى السائق عقد العقدة، ووقف منتصبًا، وكان موشكًا على الاندفاع عائدًا إلى الشاحنة وقتما مددتُ يدًا وأمسكتُ بالمجرم من كتفه.

استدار السائق وترنَّح خلفًا في الآن نفسه، وحدث ذلك بفعل القوة الدافعة للحركة فقط، ذلك أنني لا دفعتُه ولا هاجمتُه. ثم تراجع صادمًا رأسه وكتفيه بالشاحنة وأطلق صرخة، صرخة حادة بعض الشيء، وسقطت القلنسوة أمام وجهه تمامًا، فقد كانت أكبر بثلاثة قياسات تقريبًا. بدا واضحًا أن السائق

مرتبك، ولم أدرك حتى الآن قصر قامته وضآلة حجمه. قبضتُ على القلنسوة، وجذبتها خلفًا، فوجدتُ نفسي أنظر إلى شابة.

- فينلا؟

سألَتني: «ماذا؟».

ظهر أن حساباتي كانت صحيحة، وصولًا إلى هذا التفصيل الأخير، وبدا على فينلا بعض الصدمة وأكثر من بعض الانزعاج. كان لها شعر مُبيَّض قصير جدًّا وعينان زرقاوان خضراوان غاضبتان غضبًا مُجفلًا.

فقلت: «أولًا أسقطتِ سارية العَلم خاصتي، ثم حشرتِ فخذ دجاجة مثلَّجة تحت قضبان قطار الكومودو، والآن تحاولين اقتلاع اللافتة عن السطح؟».

- إذن؟

- إذن... متنزه المغامرات يدفع رواتبكِ. لستِ تحصلين على راتبٍ شهري لتخرِّبي المتنزه، بل، في حالك، لخبراتك في خدمة الزبائن. هذا ليس معقولًا البتة. متنزه المغامرات يعاني. هيونداي أبيكِ ستعاني.

- وما أدراك...؟

- لقد تحققتُ من رقم التسجيل منذ لحظة، وأشك أن اسمك تيرو. على هذا أن يتوقف.

اكتسى وجه فينلا الآن شيئًا آخر إلى جانب السخط المذعور، فبدَت مُشوَّشة أكثر من أي شيء آخر.

- مَن أنت؟

شرحتُ لها من أنا، وكيف انتهى بي الأمر أفعل ما أفعله. أخبرتها بشأن وفاة يوهاني المبكرة، وأوضاع المتنزه الراهنة، وتزايد عدد الزوار. ذكرتُ لها أيضًا أن مكتب التذاكر في حاجة ماسة إلى عضو آخر من الطاقم، ولا سيما شخص اسمه موجود بالفعل في جدول الرواتب.

- يوهاني ميت؟

- أجل. ألم يخبرك كريستيان؟

هزَّت فينلا رأسها: «نحن لا نتكلم عن أي شيء البتة. أراسله عبر الواتساب فقط وأسأله الوقوف مكاني، ويُجيب برمزين تعبيريَين: قلب وإبهام مرفوع».

- من المرجح جدًّا أنه معجبٌ بك.

- كيف تعرف ذلك؟

فقلت: «لدي خبرة في هذي الأمور، وليس من الصعب تحديدًا رؤية ذلك»، متلهفًا لتغيير الموضوع، لمجموعة من الأسباب، «لكن هذا ليس سبب وجودك هنا هذا المساء، ففي هذا المساء، نحن...».

- انظر، لقد وعدني يوهاني بإنتاج ألبومي، إن كسرتُ رقم مبيعاتي القياسي، فحطَّمته. لكنه لم ينتج ألبومي، لذا فكرتُ في أنني قد أحطِّم شيئًا آخر كذلك...

استغرقتُ لحظة حتى فهمتُ ما تتكلم عنه فينلا بالضبط. فكرتُ في أخي ثانيةً. آهٍ يا يوهاني. ماذا كنتُ أتوقع غير ذلك؟ ماذا تركت لي أيضًا لأصلحه؟ أي صنف من الأسرار ما يزال متنزه المغامرات يخفيه؟ لا أملك القوة لأغضب، فهذا أقل كروبي شأنًا. لقد عشنا الأسوأ في الأسابيع الماضية.

- لم يكُن يوهاني منتج تسجيلات.

- كفاكَ مزاحًا يا شيرلوك!

- أعني، آسفٌ إن كان قد وعدك بشيء كهذا. لقد وعد الناس بجميع ضروب الأمور، لكنه كان يدفع راتبك الشهري أيضًا.

نظرَت فينلا إلى يسارها، ناحية الجدار، وكان السلك يلمعُ في الوهج الأحمر لأضواء الشاحنة الخلفية.

- أستتصل بالشرطة؟

لن يُجدي الاتصال بالشرطة إلا جلب أوسمالا إلى هنا ثانيةً، وكم مرة سيكون مستعدًّا لزيارة المتنزه من دون قلب كل شيء رأسًا على عقب؟ وأيضًا، لستُ في حاجة إلى المزيد من المشكلات الآن، ولستُ أريدُ إطالة المشكلات التي نواجهها بالفعل. أريدُ حلولًا، وضوحًا، أريدُ أناسًا يَفون بكلماتهم.

- أستأتين إلى المتنزه في الغد في الموعد المتفق عليه وتهتمين بالعمل الذي يُدفع لك أجره؟

لم تفكر فينلا في ذلك طويلًا: «أجل».

- في التاسعة تمامًا.
- في التاسعة تمامًا.
- جيد.

أمعنَت فينلا النظر فيَّ، ثم قالت: «حقًّا؟».

- حقًّا.
- يمكنني القفزُ إلى السيارة والابتعاد وحسب؟
- كنتُ لأفك عقدة ذاك السلك أولًا.

فتذكرَت ذلك: «صحيح، أجل».

ثم مشت ناحية عقدة القطر، وحلَّت ربطة السلك وأرتني الطرف السائب قبل أن تتركه يسقط على الأرض. عبرتني بخَطوها بعد ذلك وصعدَت إلى الشاحنة، وكانت موشكة على جذب الباب مغلقةً إياه وقتما توقفَت فجأة.

- فيما يخص رقمي القياسي في المبيعات...
- فيما يخص سارية عَلمي...
- أراكَ في الصباح.

وجَّهت فينلا سيارة أبيها تيرو الهيونداي عبر مرأب السيارات، ثم هبوطًا إلى الشارع، وأسرعت منطلقة حتى اختفت الشاحنة أخيرًا عن الأنظار.

34

أجريتُ المراجعة النهائية قبل أن أفتح أبواب المتنزه، ولاحظتُ أنني أفكر في المستقبل على أنه أمر يفوق كونه مسألة بقاء. لم أفعل ذلك منذ وقت طويل. وبعد لحظة، فكرت جديًّا في طلب إصلاح كامل للدب الأكبر. سيكون استثمارًا ضخمًا، وهكذا، سيحمل قدرًا معينًا من المجازفة. زلاقات الأطفال ليست مزحة. ومع ذلك، شعرتُ أن الفكرة... جيدة.

أتممتُ قائمة التدقيق، وكتبت الملاحظات النهائية في أوراقي وأغلقت المجلد، ثم نظرتُ حولي، وانشدَّت عيناي ناحية مقهى كيرلي كيك. لم أكُن قد تكلمتُ إلى يوهانا بخصوص الأقفال على الثلاجة أو سألتها عن سبب ظهورها في لحظة ثم اختفائها في التالية. لم أُرِد قول أي شيء قد يحملها على الظن أن الجثة التي رقدت في قعر الثلاجة -على فرض أنها لاحظتها حتى- قد سُجِّيت هناك بواسطة حضرتي. لا شيء يربطني بالرجل، ويسعدني أن أحمل يوهانا على الظن أنني ارتبكتُ إزاء زيارة الشرطة بصفتي المدير القلق لمتنزه المغامرات، وهذا كل شيء.

قلتُ في نفسي: *وهو في الحقيقة كل شيء*، وشعرتُ من فوري بعبء آخر ينزاح عن كاهلي. صار بوسعي النظر إلى جداريات لورا ثانيةً. ما يزال التفكير فيها يهرس أحشائي ويغشِّي عينيَّ، لكن بطريقة حنينيَّة غريبة، سرَّني أنني أخبرتها برأيي فيها: أنها استثنائية، وأنها أيقظت فيَّ شيئًا كان مجهولًا سابقًا، ويكاد يكون غير موجود. صرت أفهم أنه في هذا الصنف من المواقف تحديدًا يتكلم الناس عن الحب. لستُ أدري ما سوى ذلك قد يعطي شعورًا كهذا: سعيدًا وحزينًا ومشرقًا وفي غاية الغموض دفعة واحدة.

ويمكنني النظر إلى المتنزه بأكمله وتأكيدُ أن لورا كانت محقة في هذا الصدد أيضًا، إذ يبدو أنني، وبصرف النظر عن كل شيء، قد نجحت. أو على الأقل، اقتربتُ أيما اقتراب من ذلك.

شعرتُ بمجموعة من المشاعر، لكن أبرزها الراحة الظافرة بينما أمشي إلى بهو الاستقبال وأفتح أبواب متنزه المغامرات. في الخارج، كانت شمس بداية أكتوبر الثاقبة تتدلَّى خفيضةً في الأفق، مُرقَّطة ومقصوصة على أشكال النوافذ، ومنكسرة إلى بهو الاستقبال في مربعات ومستطيلات. وخلف الأبواب، رأيتُ معالم زبائن اليوم، وكانت هذه ظاهرة جديدة، فقد امتد طابورٌ قبل أن نفتح الأبواب حتى.

استخدمتُ المفتاح اليدوي على الجدار وانزلقت الأبواب منفتحة، ثم حييتُ الجميع تحية الصباح وأشرتُ لهم بالدخول. ظهر زبون دحداح، وخرج من بين الأشكال الظليلة إلى الضوء، وعندما تعرفتُه زال ارتياحي فجأة.

كان أوسمالا وحده. سجلتُ ذلك تلقائيًّا في ملاحظةٍ ذهنية ولم أفهم السبب إلا بعد حين، فلو أنه جاء لاعتقالي، لجلب مؤازرة معه. لا بد أن هذا بخصوص أمر آخر.

سألني: «لستُ مصدر تعكير، صحيح؟».

وكان سؤالًا غريبًا، إذ لا يمكنني تصور شخص لا يتعكر إزاء زيارة محقق من قسم شرطة هلسنكي له بانتظام وطرحه كل ضروب الأسئلة المربكة.

فأجبت: «على الإطلاق»، وشممتُ الرائحة المألوفة للشواء المتوسط قادمة من المقهى، «قهوة؟».

- سيكون ذلك... أواثق أنني لستُ أشغلك؟

- فلنسمِّها استراحة قهوتي. أنا مالك هذا المتنزه في النهاية.

سمعتُ نبرة كبرياء في صوتي ورأيتُ أن أوسمالا لاحظها أيضًا. مشيتُ والمفتش عبر الردهة، ثم توقف، وانتبهتُ إلى ذلك بعد خطوة ونصف فاستدرت.

- أيمكن ألا نذهب إلى المقهى؟ فلننظر إلى هذه الجدران بدلًا عن ذلك. لقد قرأت زوجتي عنها في الجريدة.

- بالطبع.

فقال: «لكن اسمح لي أن أُريك صورة أولًا»، وفتح المجلد الكبير في يده، ثم أخرج ورقة من قياس A4 عليها صورة فوتوغرافية ملونة للرجل الضخم، «هل زار هذا الرجل المتنزه قبلًا؟».

- ليس بحسب علمي. أظن أنني كنتُ لأتذكر لو زار رجلٌ كهذا المتنزه. يبدو شخصية خطرةً جدًّا.

أومأ أوسمالا، وأعاد الصورة إلى المجلد.

- في أقصى الخطورة. وواثق أنت كل الثقة أنك لم تره، ربما بصحبة أخيك؟

- واثق كل الثقة. ما اسمه؟

كان سؤالي صادقًا، فلست أعرف شيئًا تقريبًا عن هذا الرجل، ولا حتى اسمه. انفتحَت عينا أوسمالا الزرقاوان الفاتحتان وانغلقتا.

- بيكًّا كوبونين.

- أخشى أنني لم أسمع به قبلًا.

ربما لأول مرة في صحبتي، ابتسم أوسمالا، تقريبًا، ثم أومأ قائلًا: «ظننتُ هذا».

- أقال، هذا المسمى كوبونين، شيئًا يخص المتنزه؟

كان سؤالًا طبيعيًّا، وليس إلا مُتوقعًا، فبالنهاية، أنا مالك متنزه المغامرات ومديره العام، لذا عليَّ أن أعرف. لكن أوسمالا بدا متفاجئًا بعض الشيء من سؤالي.

- أقال شيئًا؟ لا، لم يقل شيئًا. لا يخفى أن هؤلاء الناس يفضلون ألا يتكلموا إلى الشرطة.

انتظرتُ، وكان أوسمالا قد استدار بعض الشيء وبدا ينظر إلى شيءٍ ما خلفي.

- كم زلاقة لديك هناك؟

أجبتُ: «ثلاث عشرة»، واستدرتُ أنظر إلى الدب الأكبر، ثم أخذ الأطفال يزعقون؛ الجاذبية شيء بهيج.

سألني: «أفهم أنك تعرف بأن أحد موظفيك مُدان سابق بتهمة الاحتيال؟»، وراح ينتظر.

أذكرُ هذا التكتيك. كان أوسمالا يتكلم بودٍّ، لكنه تكتيك تضليليٌّ حيث يراوغ مثل مهاجم يقترب من منطقة المرمى.

فأجبت بأمانة: «لقد عرفتُ بالمسألة»، وأدركت أن بإمكاني بكل سهولة طرح الأسئلة التي قد يسألها مالك متنزه مغامرات في موقف كهذا والتي تهمُّني أشد الاهتمام، لعدد من الأسباب، «أتشتبه الشرطة بها في شيء أيضًا؟».

كانت خطوات أوسمالا بطيئة وثقيلة، ورحتُ أمشي بجواره، ثم أرسل نظره إلى قطار الكومودو، الموشك على مغادرة المحطة.

- لا، ليس بحسب علمي، أينبغي لنا ذلك؟

صرنا أمام جدار فرانكنتالر وتوقفنا لنستبدعه. فكرتُ في نفسي كيف أنني أعرف الشخص الذي رسمه ولا أعرفه في الآن نفسه. ومرة ثانية، أمامي فرصة لأكون ما أنا عليه تمامًا: مالك متنزه مغامرات قلق.

فقلت: «لا يمكنني معرفة ذلك البتة. لكن أثمة صلةٌ بين أحد موظفي المتنزه وكوبونين هذا؟».

استدار أوسمالا بعض الشيء وقال: «لا. لم أقصد ذلك. كان قصدي: هل لاحظتَ أي شيء مريب بخصوص هذه الموظفة تحديدًا؟».

قلت: «لا»، وهززتُ رأسي، مرتاحًا إثر هذه المعلومة. لا أعرف كيف كنتُ لأتفاعل مع معرفة أن ثمة صلةً ما بين الرجل الضخم ولورا.

- ثمة سؤال عليَّ طرحه، بصورة غير رسمية، إن كان ممكنًا. أنا أملك هذا المكان، وإنني أحاول الحرص على أن يسير كل شيء بسلاسة قدر...

- أنت قلق. أفهم ذلك.

- بالطبع.

- تزورك الشرطة هنا وتسأل شتى الأسئلة وتفتح الثلاجات وهلمَّ جرًّا.

- صحيح.

نظر أوسمالا إليَّ، وكان واضحًا أنه يُقيِّمني، ثم طفق يمشي باتجاه الجدار التالي، كراسنر، وتبعتُه.

- أفهمك. لكن في هذه المرحلة من التحقيق، لا يمكنني الغوص في التفاصيل. أنا واثق بتقديرك أننا نظرنا في كل أنواع الصلات.

- لكنك قلت للتو...

- ومن تقديرك أيضًا، (تابع أوسمالا كلامه كأنه لم يسمع احتجاجاتي) أنني كنتُ لآتي بسلطة قانونية مختلفة لو أننا وجدنا أي صلة بين الاثنين.

ثم توقفنا، وقال: «سأكون صادقًا، ينطبق الأمر نفسه عليك وعلى هذه الرسامة. (ثم أومأ إلى جدار كراسنر) ليس في الأمر شيء لم تكُن لتستنتجه وحدك، لكن ثمة شيء شائق جدًّا في هذه التركيبة».

- أي تركيبة؟

- مالك متنزه مغامرات عديم الخبرة يظهر من خارج الصناعة، وتنتظره هنا موظفة تعلمت في الغالب شيئًا أو اثنين بصفتها شريكة محتال ماهر، والتي -على نحو أقرب إلى المجحف، إن سألتني- أُدينت معه. بالطبع، لقد وقَّعَت بالفعل على تلك المستندات، لكنها كانت في مواجهة مُتلاعبٍ نابغة. وكما يمكنكَ أن تخمِّن، لقد نظرنا في هذه الصلة مباشرةً: أكانت هذه الموظفة تحاول خداعك أم كانت متواطئة مع كوبونين؟

نظرتُ إلى الجدارية. بدا أن الألوان ازدادت زهوًا مع امتداد شرح أوسمالا، وما زالت تشرق، ثم هز كتفيه. وتابع: «كما قُلتَ، لم تُلاحظ شيئًا، لعدم وجود أي تواصل أو صلة. وشخصيًّا... (أخذ أوسمالا نفسًا عميقًا) أنا سعيد للغاية. أظن أنه من الرائع رؤية الناس ينجون، يبدِّلون اتجاهاتهم، ويفتحون صفحة جديدة. انظر إلى هذه الجداريات وحسب».

كراسنر، وتانينج، ودي ليمبيكا، وفرانكنثالر، وأوكيفي، وجانسون. كأنني أراها للمرة الأولى. مد أوسمالا يده إلى جيب سترته ونظر إلى هاتفه: «عليَّ الذهاب».

فأجبته: «خذ راحتك»، من دون أن أنظر إليه. كانت اللوحات تتألق، وقد صارت مشرقة إشراقًا سادرًا للأبصار.

قال: «خلف نجاح كهذا، ثمة دائمًا إخلاص أشد بكثير مما يمكننا رؤيته بالعين المجردة».

قَوِيَت حواسي، والأهم من ذلك أنني، ولأول مرة منذ مدة طويلة، صرت قادرًا على حساب الأمور كما كنتُ أحسبها عندما كنت أعمل في شركة التأمين، لذا عرفتُ بيقين مطلق كل المتغيرات في المعادلة، فأقررت: «هذا صحيح».

قال: «سأرجع في نهاية الأسبوع مع زوجتي لنرى هذه»، وخطا خطوته الحازمة الأولى ناحية المدخل.

وسمعتُ نفسي أقول: «الأبواب مفتوحة دائمًا».

35

مضيتُ أتابع حساباتي في مكتبي، فشغلتُ نظام إدارة قروض الائتمان الاستهلاكية الخاصة بالمتنزه، وللوهلة الأولى، لم أرَ شيئًا يستحق الذكر على وجه التحديد، ثم نقلتُ جميع البيانات المتعلقة بالقروض إلى جدول بيانات إكسل المشابه خاصتي وهممتُ بدراسة القروض واحدًا واحدًا، وسرعان ما بدأتُ أرى الفُروق الضئيلة.

كان رصيد حساب الائتمان الاستهلاكي يتناقص بصورة أسرع مما ينبغي لقيمة القروض أن ترجع به. في البداية كان الفرق صغيرًا، ثم كبيرًا، وفي آخر الأمر، حالما صار اتجاه الحركة واضحًا، كاد الرصيد يسقط في الهاوية. بمجرد إضافة المبلغ الإجمالي للمال المُقرض وطرحه من الرصيد الافتتاحي، رأيتُ أن نحو نصف أموال المصرف، ما يقرب من 125.000 يورو فقط، قد اختفى من غير أثر.

لكن المال لم يختفِ، بل حُوِّلَ بعناية من الحساب، وبعد ذلك مُسحت تفاصيل التحويل من مسك الدفاتر وعُدل الحساب وفق ذلك. إنها عملية بسيطة، بضع ضربات على لوحة المفاتيح وبضع نقرات من الفأرة وحسب، ومن الصعب ظاهريًّا ملاحظتها، لا سيما بسبب وجود عدد كبير من القروض لتصنيفها وبعضها صغير جدًّا يصل إلى خمسين يورو، حد أن مجرد طول القائمة واتساعها يخدع العين، كسجادة تغطي حفرة فاغرة في الأرض، ومن نظام إدارة القروض الخاصة بالمصرف، تشق جدًّا رؤية أين ومتى حدثت عمليات التحويل الخيالية هذه.

ومع ذلك، من السهل نسبيًّا ملاحظتها في حساب المصرف الفعلي، حيث يستحيل تنفيذ الألاعيب، ويمكنني أن أرى ما حدث للمال بالضبط، إذ يظهر أنه أُنفق على الخدمات الاستشارية. أخبرني حقل الرسالة بهذا القدر، ورقم

حساب المستقبِل نفسه دائمًا أيضًا، ما يساعد في تحديد هذه المدفوعات. خدمات استشارية بقيمة مئة وخمسة وعشرين ألف يورو.

تراخيتُ في كرسيَّ. لقد عرف شخص ما بالأمر، ربما منذ البداية، أو على الأقل بعدها بقليل. راودَ المواقف دماغي في سلسلة من الصور، كأنني كنت قد التقطت صورًا قديمة والآن أنظر إليها مؤطرة: لقائي الأول بالرجل العظاءة، في هذه الغرفة نفسها، وكيف جاء الموظفون إلى الغرفة واحدًا واحدًا، كأنما قدِموا لإنقاذي، وكيف جرى تبادل النظرات، لحظة الإدراك تلك. ثم، عاجلًا بعدئذٍ، إعلاني عن افتتاح المصرف، والظهور المفاجئ لرأس المال الأولي المُستَثْمَر، المال الذي موَّهتُه على أنه عوائد مبيعات زائدة، ما بطبيعة الحال لم يخدع الشخص الوحيد الذي طالما اعتنى بتقارير البيع اليومية. ثم كيف نظمتُ بسرعة تدريبًا لكل أفراد الطاقم حول طريقة استخدام نظام التشغيل المصمم لجعل منح القروض سريعًا وسهلًا بقدر الإمكان، وكيف قد يرى شخص معين ذو خبرة سابقة في العيش في مناطق مالية رمادية، إن كان ينظر من بعيد فقط، شيئًا مثيرًا للاهتمام في برنامجي فائق السهولة. ثم، كيف صار الجانب غير الرسمي بتاتًا من عملياتي واضحًا على أقصى تقدير عقب اكتشاف شيء ما في ثلاجة المقهى لا ينتمي إليها.

في هذه المرحلة، لا بد أن شخصًا كان يراقب الأحداث من كثب قد خلُص إلى الاستنتاجات الصحيحة. عرف ذلك الشخص أنني لن أتصل بأوسمالا سريعًا. عرف ذلك الشخص أيضًا أنني سأضطر في آخر الأمر إلى إنهاء عمليات المصرف تدريجيًا، وشطب الأمور بطريقة خلَّاقة، ربما باستخدام شكلٍ ما من مسك الدفاتر ذي القيد المزدوج، شيء ما يفهمه هذا الشخص أحسن الفهم. وحتى إن لم تفعل، فلا بد أنها اشتبهت بأن شيئًا ما على هذا النسق كان يجري. لكن في النهاية، كانت تعرف أنها تسرق مالًا اكتُسبَ بغِشٍّ، مالًا غير موجود رسميًّا، ولهذا السبب وحده عرفَت أنني سأُبقي الأمر في سري لاحقًا، حتى عندما ربطتُ النقاط أخيرًا بين المئة وخمسة وعشرين ألف يورو المفقودة ورحيلها النهائي.

لاحظتُ أنني وبينما كنتُ أُجري هذه الحسابات، كان خفق قلبي يزداد شدةً وصخبًا، وريحٌ زمهريرٌ تهبُّ داخلي وتشتدُّ عصفًا. نظرتُ ثانيةً إلى النتائج. الرياضيات عفيفة، تقول الحقيقة دائمًا، والحقيقة هي أنني غُلبتُ في العدِّ، وهذا ليس كل شيء، بل صرتُ أشعر أن للحقيقة أظافر حادة وباردة وخصوصية للغاية مستعدة لخمشي وتمزيقي. ظللتُ أنظر إلى الأرقام، وظل عصف الريح يشتد والأظافر تحتد. وأخيرًا، استسلمتُ وتركتُ العاصفة تضرب.

بعد أسبوعين

امتلأ مرأب السيارات في منتصف النهار، وأوحى الضجيج المُطبق والحركة المحمومة داخل المتنزه أن هذا قد يكون أفضل آحادنا -أو أيامنا- لهذا العام، وقدم عدد التذاكر المباعة دليلًا مكينًا على أنه أفضل أيام عامنا. وفي حين يمنح هذا شعورًا مُجزيًا من كلا الناحيتين الشخصية والمالية -فبهذا المعدل سنرجع إلى بر الأمان أسرع مما توقعت-، هو يعني أيضًا أنني أعدو من كارثة إلى أخرى بسرعة هائلة.

في الساعة الأخيرة وحدها، حدثت حوادث تتراوح من معصم مخلوع وبطاقات دخول مزوَّرة وعرقلة سببتها علكة في إحدى الزلاقات، إلى زوجين من الأمهات المتشاجرات اللذين اصطُحبا إلى الخارج أولًا، ثم إلى سيارتيهما الخاصتين ثانيًا.

وقفتُ بجوار إحدى السيارتين في هذه الظهيرة الأكتوبرية الرائقة الباردة، وكنتُ ما أزال أسمع السِّباب يتدفق من داخل المركبة وقتما تلقيتُ رسالة نصية من مقهى كيرلي كيك. كانت الرسالة موجزة وفي صميم الموضوع، فهي من يوهانا، ولم أكُن لأتوقع غير ذلك. مدَّت المرأة في السيارة إصبعها الوسطى لي مرتين، أولًا بينما تتراجع من مركنها ومرة ثانية بعد أن انطلقت بثانية.



وجدتُ يوهانا في المطبخ النظيف والعاجِّ بالحركة في الآن نفسه، وهذا في حد ذاته غير مفاجئ، فيوهانا مُكرسة لمقهاها وتحافظ عليه، يعمل بدقة سَير الساعة. رأتني وأومأت برأسها. لم يكُن انطباعي الأول عنها أنها مُبارزة حديدية جسورة صلبة كصخرة قد تغير، وما زلتُ لم أخُض محادثة فعلية معها، محادثة أطول من بضع كلمات هنا وهناك، إذ لم تدعُ الحاجة إلى ذلك. وحتى الآن، يبدو أن كل شيء في المطبخ يعمل بتناغم متزامن: الأفران، والقلَّايات، وكلتا غسالتَي الصحون، وعجَّانة العجين المعدنية الكبيرة التي تعادل حجم خلَّاطة أسمنتٍ صغيرة. بنظرة سريعة، لم أرَ شيئًا يمكنني مساعدتها فيه، وقبل أن أتمكن من طرح سؤال أو قول شيء ما، أشارَت لي ناحية أحد المقاعد الطويلة، وقالت: «اجلس، علينا أن نتكلم».

- حسن جدًّا.

قالت: «ثماني دقائق»، وأزلقت صينية من الهِلاليَّات إلى الفرن كما يرسل لاعبو الكيرلنغ القرص، لكنها فعلتها أسرع وبدقة أعلى حتى، ثم أغلقت الفرن واستشارت ساعتها الذكية، وتابعَت: «ينبغي أن يكون ذلك كافيًا».

لستُ واثقًا إن كانت تشير إلى الهلاليات أم إلى الطول المُقدَّر لمحادثتنا، لذا ظللتُ قاعدًا ورحتُ أنتظر، وانتبهتُ إلى أن هذه هي ثاني مرة أجدُ نفسي فيها أسابق الساعة وفطائر في الفرن في الأسابيع الماضية.

قالت: «واثقة أنك لاحظت غياب شيء ما»، وظننتُ أنني رأيتها تومئ ناحية الثلاجة، لكنني لم أتيقن، «كل ما تحتاج إلى معرفته هو أنك ليس عليك القلق حيال ذلك».

صرتُ جازمًا تمامًا، متوثِّقًا مئة في المئة. فقلتُ بتردد: «شكرًا لك، على أجنحة الدجاج».

- كما قلتُ قبلًا، أنا التي ينبغي لها شكرك. لكن ثمة شيء آخر مفقود كذلك، صحيح؟

فكرتُ في أن هذا يجري بسرعة زائدة، ومن ناحية أخرى: إن كانت يوهانا تعرف بالفعل... إن كانت الثلاجة شيئًا يُهتدى به، فربما تعرفُ أكثر مني حتى. أخبرتني إعادة تقييم بسرعة البرق للوضع أن هذه هي حقيقة الأمر. فقلت: «المئة وخمسة وعشرون ألف يورو».

- أي نظريات؟

مرة ثانية، هذا يجري بسرعة زائدة، لكنني استخلصتُ أنها ونظرًا إلى كونها لا بد تفهم الأساسيات، إذا جاز التعبير، فيمكنني بأمان طرح نظرية تخصني، لأن هذا كل ما لدي: نظرية. فقلت: «هيَ مَن فعلها. لورا فعلتها. لا يمكنني إلا تخمين وقت بدء الأمر كله، لكن أظنني أعرف. وقتما زارني ذانك الرجلان، تعرَّفَت إلى الذي أدعوه الرجل العظاءة. ربما كان واحدًا من معارف شريكها السابق، ذاك الشريك الذي انضمَّت إليه في السجن في آخر الأمر. أدركَت لورا أن المتنزه كان في وضع ماليٍّ حرج، وربما لاحظت شيئًا ما في عهد يوهاني هنا أيضًا. ثم نظرتِ أنتِ في الثلاجة واكتشفت الرجل الذي خبأته مؤقتًا هناك. عرفتُ من أسلوب كلامها عنك ومن حقيقة أنها تركتكِ تعتني بابنتها أنكما مقربتان، وأظنني أعرف أين التقيتما ومتى».

توقفتُ، وظلت يوهانا صامتة، لكنها لم تنكر لذا تابعتُ: «لعل إحداكما تعرَّفَت الرجل في الثلاجة. ثم أخبرتُ لورا بخططي لإنشاء مصرف، وباعتبارها شخصًا عالِمًا بأوضاع المتنزه المالية، كانت تعرف أن المتنزه نفسه لا يملك أي رأس مال. عرفَت أن المال لا بد جاء من الخارج، ولأنها تعرف مع من أتعامل، فقد عرفَت كذلك أن المال ملوث. ثم تعلم الجميع تشغيل برنامج المصرف الجديد، ولورا خبيرة في إجراء عمليات تحويل معينة بعيدًا عن الأنظار وفي كيفية جعل كل شيء يبدو قانونيًّا ما دامت هذه التحويلات تحقق معايير محددة. عرفَت أنني لا أعتقد أن وكالات التحصيل تفرض معدلات فائدة منصفة وعرفَت أنني لن أتصل بأوسمالا، الذي تعرفتِه من فوركِ، وأنا واثق تمامًا بهذا. كانت تثق بأنني سأضع حدًّا للمسألة بأسرها في آخر الأمر. ودارت البقية حول الحرص على عدم وجود شيء يربطها بالمتنزه بعد الآن. أخذت لورا المال واختفت».

لَم يرتعش وجه يوهانا، ثم نظرَت إلى ساعتها الذكية، وربما مرت على وجهها ومضة طفيفة لشيءٍ ما. للمرة الأولى في حضوري، بدَت قلقة، وفكرتُ في خلدي أن ذلك ربما إزاء فكرة أن تُشوى الهلاليات أكثر مما يجب، لكنني نبذت الفكرة، فهذا شيء آخر. وقالت: «لا».

تركزَت عيناها عليَّ.

- إنها نظرية...

- لستُ أقصد ذلك.

أخذت الآلة تهمهم بثبات، وكان صوت قرقرتها الخفيضة الصوتَ الوحيد في المطبخ.

- أنت مُحق. لقد عرفَتْ فعلًا مصدر المال. وعرفَتْ أن المتنزه كان في خطر، وعرفَت أنكَ كنتَ في خطرٍ أيضًا، وأرادَت مساعدتك ومساعدة المتنزه، لكنها اضطرت إلى البقاء بعيدة عن كليكما حالما ظهر المحقق. وقد تعرفتُ المحقق، كنتَ محقًّا في ذلك أيضًا.

- لكن حينما قلتُ إنها أخذت المال، قُلتِ 'لا'.

- لأن نظريتك خاطئة. لم تأخذ المال.

بالنظر إلى كل الأشياء الهرائيَّة التي سمعتها مؤخرًا، كانت هذه الجملة الأخيرة الأقل منطقية. حاولت رؤية أي سيناريوهات جديدة، أي طرق جديدة يمكن لسلسلة الأحداث أن تسير وفقها، لكنها شحيحة، بل في الحقيقة غير موجودة، ولا بد أن يوهانا شعرت بالتروس تتسارع عشوائيًّا في دماغي.

- لم تأخذه لنفسها، بل للمتنزه. المال جاهز ليستفيد منه المتنزه عندما يحين الوقت. فبقدر ما فهمت، ثمة جهات معينة قد تُظهر اهتمامًا بشؤون المتنزه المالية.

كانت بالطبع تشير إلى المفتش أوسمالا. ومما فهمته، فالشرطة في طور اختتام تحقيقها في المتنزه. لكن ليس هذا سبب شعوري بأن العالم يتلاشى، وسبب توقفي عن سماع ضجيج المتنزه من خلفي، وهمهمة المطبخ، وسبب امتلاء أذنيَّ بصوت قلبي ودمي.

- على فرض أن هذا ما حدث...

- هو كذلك.

- لمَ عساها... تتكبد كل ذلك؟

لم تعُد يوهانا تبدو مبارزًا حديديًّا، بل صارت تبدو فائزًا حديديًّا، أقواهم وأقساهم كلهم.

- سوف تحملُني على قولها، أليس كذلك؟

- لستُ إلا أحاول فهم...

- إنها تحبك.



انحنى الطريق بعض الشيء صعودًا، وكانت الأمسية معتمة والسماء صافية، وبضع نجمات ظاهرة بالفعل. رحتُ أمشي أسرع وأسرع وألاحظُ أشياء أدرك حتى وأنا ألاحظها أنها ليست إلا محاولة لتشتيت ذهني عن المسألة المطروحة. وعندما انعطفتُ إلى الطريق القصير الشبيه بالهلال الذي يؤدي إلى الكتلة الشققية المطلوبة، نظرتُ إلى محيطي وفكرت في أنه حيٌّ مُنتقى أحسن انتقاء بالنظر إلى موقعه، وقربه من منطقة المحمية الطبيعية، والجودة العامة للمساكن -إذ بُنيت كلها في خمسينيات القرن العشرين وقتما كانت الوظيفية مبدأ التصميم الرئيسي لا الخيال- والقيمة السوقية المتزايدة بثبات للملكيَّات.

وبالفعل، كان المبنى الذي أبحث عنه من طراز الخمسينيات، وهو مبنى مَصونٌ أحسن الصيانة، ومتموضع بجمال على جرف يوفر إطلالات بديعة على الخليج من الجانب الآخر للبناء، وشققه على الأرجح تتراوح بين غرفة نوم إلى ثلاث بتصميمات واضحة تتيح المنفعة القصوى. منطقي، ومعقول، وجميل...

وفجأةً، صار واضحًا وضوح سماء المساء أنني لم أعُد قادرًا على تشتيت نفسي، ولا لحظة واحدة. وفي الآن نفسه، ظهر جليًّا أن كوني منطقيًّا وعقلانيًّا وحده لم يعُد كافيًا، إذ صار عليَّ أن أكون شيئًا آخر. ما تراه يكون هذا الشيء الآخر، لستُ أدري بالضبط، لكنني أشعر أن عليَّ التخلي عن شيء كنت متمسكًا به، شيء كنتُ متشبثًا به بأصابع متجمدة.

توقفتُ في مدخلٍ خافت الإنارة في شرق هلسنكي. كنت أرن جرس طابق سفلي في ضواحي المدينة عشية يوم الأحد، وكانت الطيور قد حلقت غربًا لقضاء الشتاء، ولا توجد ريح، وهمهمة حركة السير بعيدة. ثم سمعتُ صوتًا في الهاتف الداخلي، صوتًا صغيرًا جدًّا.

- مَن؟

- اسمي هنري كوسكينين.

حلَّت لحظة سكون، ثم سأل الصوت الصغير ثانية: «مَن في الباب؟».

فكررت: «هنري كوسكينين».

- لمَ؟

- لمَ اسمي هنري كوسكينين؟

- ماذا؟

أعيَتني الحيلة، وأوشكتُ على السؤال عن هوية الشخص الذي يفاوضني وقتما سمعتُ صوت الجرس الكهربائي وفُتح قفل الباب، فأمسكتُ بالمقبض ودخلت. لم أجِد مِصعدًا، لذا استقللتُ السلالم إلى الطابق الرابع. كان باب الشقة مفتوحًا، وبينما تسلقتُ الدرجة الأخيرة رأيتُ وجهًا صغيرًا يختفي من المشهد. لا بد أنها...

قالت لورا هيلانتو: «تولي، ابنتي».

كانت لورا واقفة في الرواق تحت مصباح سقفي بدا يضرم النار في شعرها الجامح، مجازيًّا بالطبع، وتولي نصف مختبئة إلى اليمين من المدخل، وعندما قلتُ مرحبًا اختفت كلها.

- تفضل بالدخول.

خطوتُ بضع خطوات وأغلقت الباب من خلفي. ثم استدرت، وها نحن أولاء: كلانا واقف في منزل لورا هيلانتو. كان دافئًا وإضاءته مريحة، والتقط أنفي أريج لازانيا. وجدتُ نفسي أفكر في أن هذا ما ينبغي للمنزل بثه من إحساس ورائحة. وقفت لورا تنظر إليَّ، واستغرقتُ لحظة لأدرك أنها تنتظرني لأقول شيئًا ما.

- لقد تكلمتُ إلى يوهانا اليوم، وأخبرتني لمَ فعلتِها.

نظرَت لورا من فوق كتفها، ثم عادَت إليَّ، وانعكس الضوء عن نظارتها مثل شعاع. لكنني كنتُ قد فهمتُ الحال بالفعل. فهمته منذ زمن بعيد. فبوجود تولي في مرمى السمع، لن أقول جهارًا إن أمها أدت عملًا رائعًا على جبهة الاحتيال المصرفي، وإنها تدبرت تضليل كلٍّ من الشرطة وأنا، وحمايتي من

أذًى مزيدٍ وقتما كنتُ متورطًا في إخفاء جثة، وتعلُّم بواطن تقنيات الشنق وظواهرها، والتعامل غير ذلك مع جمهور من المجرمين عديمي الضمير ذوي مستويات تمالك الذات المنخفضة انخفاضًا خطِرًا وقاتلًا. لكن كل ذلك في خبر كان. لم يعُد ثمة إلا شيء واحد أفعله.

- وهكذا، أردتُ شكرك.

بدت لورا غير متأثرة، ولم أعرف لم استغرقَت وقتًا طويلًا حتى تكلمَت. ثم قالت أخيرًا: «على الرحب والسعة».

- هذا ليس كل شيء.

- أليس كذلك؟

- لا.

وقفنا هناك لما بدا أبديةً، وشعرتُ أن الثواني أطول من المعتاد، حتى تمكنتُ من فتح الأصابع المتجمدة التي تمسكني من الداخل بالقوة.

- منذ أول يوم التقيتُك فيه، شعرتُ بأقصى التضايق في وجودك، وكان أفضل شعورٍ اختبرته أبدًا. كنتُ قد استنتجتُ أن ذلك مردُّه إلى ثلاثة عوامل مستقلة: أولًا: أنك أذكى شخص التقيتُه في حياتي، فقد خدعتني، ولم يتمكن أحد من خداعي قط. ثانيًا: فنُّكِ يُنزل بي مشاعر لم تُراودني من قبل، ولا يمكنني تفسير ذلك، وفي الواقع لا أريد تفسيره حتى. ثالثًا: جعلتِني أنسى الرياضيات. ليس في كل الأوقات بالطبع، فذلك لن يكون نافعًا للعمل وسيدمِّر على الأرجح النمو الواعد الذي نشهده، لكنك تجعلينني أرى الأشياء في ضوء جديد، تجعلينني أرغب بعيش حياتي على نحو مختلف، أو على الأقل، تجعلينني أرغب بتجربة عيشها بتركيز أقل على حساب التفاضل والتكامل الاحتمالي. والآن أبدأ بالشعور أن ثمة عاملًا رابعًا أيضًا، لكن كما قلت، أنت تُنسينني الأشياء، ويروق لي هذا أيضًا.

خرجت الكلمات سريعًا جدًّا، ومعظمها مختلف عما خططتُ لاستخدامه. وعلى نحو مفاجئ بنفس القدر، عنيتُ كل كلمة منها. في البداية، ظننتُ لورا

تبتسم، ثم رأيتُ دمعةً تنسال على خدها. لا. بلى. كانت تفعل الاثنتين: تبتسم وتبكي.

- هنري، يمكنني القول بأمانة إن شخصًا لم يقُل لي شيئًا كهذا من قبل.
- هذا ليس كل شيء.
- ليس كذلك؟
- لا.

اقتربتُ أكثر، وفي تلك اللحظة خرجَت تولي من مخبئها، قصيرة وتشبه أمها كثير الشبه، وقالت: «أنت هنري كوسكينين».

- وأنتِ تولي.

رسم هذا ابتسامةً على وجهها، وابتسمتُ أيضًا. ثم نظرتُ إلى لورا هيلانتو وتذكرتُ أنني ما يزال أمامي أمران أعتني بهما، وأولهما شيء كنتُ أنتظر فعله منذ محادثتي مع يوهانا. قلت: «أحبك يا لورا».

والثاني...

- أحبك يا هنري...

قبَّلتُها، وقبَّلتني، وتعانقنا. ولو أمكنني النطق، لأخبرتُها بمدى مثالية المعادلة التي يخطُّها ذلك.